

الكتاب

مكتبة

١٥٧٥ - ١٥٧٦

تجدد صالح الدقر
٢٢٩٧٧

892.73
Hx559a A

الدكتور مبرور ج. مَنَا

عُبَيْدُ الْحَبَّارِ

دار العالم للتأليف
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى

بيروت ، نيسان ١٩٥٥

كان طير الشؤم ينشق فوق البيت الذي ولد فيه ، فما ان
خرج من بطن امه ، حتى انسلت من صدرها نسمة الحياة ،
واختلط صراخ الوليد مع نواح النادبات .

وكان ابو الوليد ، قد غادر دنياه الى ما وراء دنياه ،
ليستجير برحمة ربه ، من قضاء خؤول صناعة موازين العدل في
الارض ، اذ حكم عليه بالموت ، لانه بزعم القضاء « العادل » ،
عامل شغب ، وخطور على سلامة المجتمع .

وتشاءم القوم من ولادة يتيم مات ابوه قبل ان يراه ،
وماتت امه قبل ان يفتح عينيه على النور .

وخلا حديث القوم من كلمة حنان على الوليد اليتيم ، وقال
اهل القرية : « ليت له لم يولد ، بل ليت امه لم تحبل به » . ولم
يتورع منهم من قال : « ليت يموت الساعة ، لكي لا يعيش ،
ويعيش معه الشؤم . »

وهست احدهن في اذن القابلة : « اخنقيه ، اخرى بمثله الا

يعيش ! »

واشفقت القابلة على وليد الشقاء ، ولقته بجرق عتيقة ،
التقطتها من زوايا الغرفة المعبّقة بالدخان ، وحملته الى المدينة ،
واودعته داراً للآيتام اللقطاء ، فتسلمته وليّة الدار وسمّته
عُبَيْدًا .

واخذ الطفل ينمو ويكبر مع اخوانه ، وكلّهم من نفس
العائلة ، عائلة الشقاء .

وكان عبّيد اشدّهم ذكاءً ، واصليهم عوداً ، واكثرهم
عناداً ، وما كاد يبلغ السنّ السابعة ، حتى اصبح قائد الجوقة ،
جوقة التاعسين .

وأدخل عبّيد مدرسة الدار ، ولكنّه كان كثير التبرّم
بقوانين المدرسة وقساوة المربيّات . كان شديد الميل لتلقّي
العلم ، ولكن لم يكن في طباعه ما يحمله على الطاعة ، كأن فيه
شعوراً داخلياً ، بانه نكايّةً اتى الى الدنيا ، ونكايّة يجب ان
يعيش فيها .

وكان عبّيد ، قصير القامة ، ممتلئ الجسم ، اسمر البشرة ،
الّا عندما يغضب ، وتنقلب سمرة الى حمرة على سواد . وكان
ذا عيّن سوداوين ، تقدحان بالشرر ، وشعرٍ اشعث ، يغصى
على الامشاط ، وانف معقوف ، واهداب طويلة ، ووجه ينم
عن رجولة مبكّرة ، ويدين مخشوشنتين . وكان صوته أبسح ،
كأن في حلقة منشار .

وكانت المعلّمة تجيب من يسألها عن عبّيد : « انه ولدٌ ذكي ،
وسريع الفهم ، ولكنّه من جنس العفاريّات ، اذا عمل مخالفة ،

و كثيراً ما يعمل ، او اذا صفع احداً من رفاقه ، وشكاه هذا
اليّ ، لا ينكر ، ولا يكذب ، ولا يعتذر . انه صلب المراس ،
و كثير الجدل ، ولا ينفع فيه الضرب . غير انه مع كل هذا ،
خفيف الروح ، وفيه جاذبيّة تجعل رفاقه يصفحون عن تصرّفات
معهم ، ويرتضون بزعامته عليهم . انه حقاً ولدٌ غريب عجيب ،
لا يستطيع فهمه ، وفي نفس الوقت لا يستطيع ان ابغضه .

وكانت ساحة اللعب ، محاذيةً للساحة التي يلعب فيها تلامذة
القسم الآخر من المدرسة ، الذي يتعلّم فيه الاولاد
الميسورون ، الذين يدفع عنهم ذووهم أقساط المدرسة . وكانت
ساحة الايتام ، قليلة العرض والطول ، يغزوها غبار الصيف ،
ويوحلها مطر الشتاء ، بينما كانت الساحة الأخرى ، مجتّبة
الشيئين ، بسورٍ من الشريط ، تكسوه اشجار خضراء ،
ويغطّيها سقف من القرميد .

وكان عبيد مجلياً في اللعب ، كما كان مجلياً في الدروس .
وكان رفاقه يسمّونه بطل الساحة . ولطالما كان اولاد القسم
الآخر يتسلّقون السياج الفاصل بين الساحتين ، لكي يتفرّجوا
على بهلوانية البطل عبيد .

ولم يكن يغيظ عبيداً شيء اكثر من هذا السياج الفاصل ،
الذي يمنعه من منازلة الاولاد المحظوظين . وكان يتساءل في
ذات نفسه ، عن معنى وجوده ، دون ان تقوى مدارك عقله
الصغير ، على تفسير ما تحدّثه به نفسه . وشقّ على عبيد ، منذ

طفولته ، ان يكون العالم عالماً ، يفصل بينهما سياجٌ ، كالسياج الذي يفصل بين الساحتين ، وبدأ ايمانه بالناس يتزعزع ، وبدأت تنمو فيه بذور الحقد . ومن تلك اللحظة ، احسّ بشعلة الاضطراب ، تلتهب في نفسه .

وانتهز عبيد غفلة المراقب ذات يوم ، وقفز فوق السياج الى الساحة الثانية ، حيث استقبله اللاعبون الآخرون بالترحاب ، وافسحوا له مكاناً في دائرتهم ، فبدأ وهو في ثوبه القاتم ، وشعره المنبوش ، وحذائه الغليظ المرقع ، كعوسجة وسط طبق من الزهر .

وانزل عبيد رفاقه الجدد ، وجلس عليهم ، ولم يسلم واحد من هؤلاء ، من وخزة العوسجة النافرة .

وافاق المراقب على الصياح ، وشاهد عبيداً في الساحة الثانية فتوَعَّده مزجراً كالضبع المتهتاج ، واستدعاه بغضب ، حتى اذا قفز الى الساحة الاولى ، بادر الى ضربه ولكمه ورفسه ، بينما كان لاعبو الساحتين ، يتمزقون غيظاً على المراقب الوحش .

وصمد عبيد على وحشية المراقب ، وعيناه تقدحان بالشرر ، دون ان يتفوّه بكلمة ما .

واعلنت الساعة وقت الدرس ، ومشى عبيد مع رفاقه ، بثوبه المعفّر ، وشعره المنكوش ، ووجهه المحدث من شدّة الضرب .

ولاحظت المعلّمة الصغيرة الحالة الغريبة التي كان فيها عبيد ،

وسأله عما به ، ولكنه لم يخرج عن صمته ، ولم يجب بشيء . على
ان رفاقه اخبروها بما حدث ، فسكتت على مضض ، لتتحيّن
فرصة مؤاتية ، وتسوّي الامر بالتّي هي احسن .

وبقي عبيد في صمته طوال مدة الدرس ، ولم يردّ بكلمة على
أيّما سؤال . ولاحظ رفاقه في غرفة النوم ، انه لم يذق طعام الرقاد
في تلك اللّيلة .

وجرت العادة ، وفقاً للنظام ، ان يقوم اولاد « المدرسة
اليتمية » ببعض خدمات في المدرسة المفضّلة . وكان الايتام
يتناوبون الخدمة في غرف الطعام ، ويكنّسون ساحتي الملعب ،
ويرتبون غرف النوم ، ويقضون حاجات التلامذة الآخرين ،
ويقيمون في ساعات مبكرة لكي لا يدهمهم الوقت قبل ان
ينجزوا مهماتهم المتعدّدة . ولم يكن الايتام يتذمرون من هذا
الواجب ، اذ ادخل في روعهم ، ان هذه الخدمات هي اقلّ ما
يتوجب عليهم ، مقابل ايوائهم واطعامهم وتعليمهم . ولم يتأخر
عبيد عن هذا الواجب ، منذ بلغ السنّ العاشرة ، وهي سن
الخدمة المفروضة ، وكان يذهب الى عمله عن طيبة خاطر ، الى
اليوم الذي وقعت فيه الحادثة بينه وبين المراقب . وجعل يسائل
نفسه : « لماذا يُسمح لنا ، بل لماذا يُفرض علينا ، اختراق الحدود
بين المدرستين ، عندما نذهب لنخدم ، ولا يسمح لنا بذلك ،
متى اردنا الذهاب لنشترك في اللعب »

وبقي عبيد حائراً في الامر ، وأحسّ مرة ثانية بشعلة
الاصطراع تلتهب في نفسه ، وقال في سره : « يجب تحطيم الحدود ! »

وجلّسى عبيد بالدروس على رفاقه في المدرستين ، واستحق
الجائزة الاولى في المسابقة النهائية ، ولكنه لم يُعْطَها ، اذ
ارتأت وليّة الدار ، بالرغم من الحاح المعلّمة الصغيرة ، ان تحرمه
من الجائزة بسبب عفرتة ومنحتها للتلميذ الذي اتى بعده ، لان
الجائزة وسام من الالومنيوم عليه صورة ملاك ، والملائكة
لا تقعد على صدور العفاريات .

وصادف ان التلميذ هذا ، الذي مُنح الجائزة ، من طلاب
القسم المفضّل ، واسمه سليم ، تبدو على وجهه ملامح الوجاهة
والكبرياء .

وغضب عبيد على الوليّة وسليم معاً ، وانتوى امرأ ما . فما
ان خرج الى صحن الدار ، حتى ذهب تواء صوب السياج الفاصل
بين القسمين ، وقفز الى الجانب الاخر ، وانتزع الوسام على صدر
سليم ، وعاد معتزّاً بما فعل .

وبكى سليم ، وذهب الى الوليّة يشكو عبيداً ، فاستدعته
هذه الى المكتب . ودخل عليها رافع الرأس ، بينما كانت الرعشة
تبدو على وجهها المجعّد ، وفي ظهرها المقوّس ، وقامت المديدة
المهزولة ، الأشبه « بأم الغيط » *

وفي جرس متهدّج من الغيظ والمكر ، سألته المديرية :
-- هل صحيح انك انتزعت الوسام من سليم بالرغم منه .

* « أم الغيط » اسم يطلقه العامة على فتزاعة العصافير التي ينصبونها في اعلى
التينة المثمرة لكي تمنع العصافير من ان تغط على الثمر الناضج .

واجاب عبید بجرس حازم .

— نعم انتزعته .

فقال المدبرة مزجرة ونار الغضب تشع من عينيها المحمرتين :

— وتجب بوقاحة ايضاً انك اغتصبته منه الوسام ولا

تستحي ؟

واجاب عبید .

— اتريديني ان اكذب ؟ نعم انتزعته ، وما كان عليّ ان

اعمل غير ذلك .

— يالك من لعين وقليل الادب . الا تعلم انه محظور عليك

ان تذهب الى القسم الآخر ، وانك خالفت قانون المدرسة ؟ .

— انا لم آخذ الا ما هو من حقي ان آخذه . وحقي يجب

ان استرجعه من ايما انسان ، حتى ولو كان من ابناء السماء .

ولكن الا تعلم ايها الوقح ، ان سليماً لم يأخذ الوسام ،

بل انا اعطيته اياه ، لان العفاريث مثلك لا يستحقون الاوسمة ،

انما يستحقون لكمة مثل هذه ...

وتراجع عبید ليمتقي اللكمة وقال :

— اذن انت ياسيديتي سالبة حقي . هه ... وماذا استطيع

ان افعله معك ؟

— هذا ما ينقصك بعد يا وحش .

— قد اكون وحشاً كما تقولين . ولكن هل الوسام هذا ،

وسام حسن سلوك ام وسام حفظ دروس ؟

— هذا لا يعنيك ، اغرب عن وجهي يا قليل الحياء .

واقتربت المديرية من عبيد ، وانتزعت منه الوسام ، وطردته من الغرفة ، وخرج عبيد ، وهو يلعن في سرّه ، الساعة التي أتى به فيها الى هذه الدار .

ودقّ الجرس ، يدعو الاولاد الى الطعام ، فدخلوا صفوفاً صفوفاً ، وجلس كلّ منهم في مقعده . وكان عبيد على اشد ما يكون من الانفعال .

وقالت المعلمة الصغيرة ، ذات العينين الברاقتين والجرس الهاديء الناعم : « سأسألكم سؤالاً يا صغار ، ومن جابوب الجواب الصحيح ، له قطعة من الحلوى . » وأشرأت اعناق الصغار نحو المعلمة المحبوبة ، وكلهم طامع بقطعة الحلوى وقالت المعلمة من منكم يعلم ما هي أشهى أكلة ؟ .

— وراح الاولاد يتزاحمون على الاجابة . فقال الاول « هي المجردة » وقال الثاني « هي الكبّة بالصينية » وقال الثالث « هي السمك بطرطور » دون ان يكون ذاق طعمه في حياته ، وقال الرابع « اللحم المشوي » . وتعدّدت الاجوبة ، وكانت المعلمة الصغيرة تبتسم ، وتوميء بحاجبيها الحلوين ، ان لا . وخرج عبيد عن صمته ، ورفع اصبعه طالباً الكلام ، وقال « ان أشهى أكلة يا معلمتي هي التي آكلها وانا جوعان . »

وانبسطت اسارير المعلمة عن بسمة رضىة وقالت « عافاك يا عبيد ، انك استحققت قطعة الحلوى . » وحدث ان دخلت المديرية في تلك اللحظة الى غرفة الطعام ،

بين هرج الاولاد ومرحهم ، وبيننا كان عبيد لا يزال واقفاً ،
وانظار رفاقه مشرئبة اليه ، والمعلمة الصغيرة تبتم له ، فسألت
ما الخبر ؟

وأطلعها المعلمة على الامر ، ورجتها ان يعطى عبيد قطعة
الحلوى . فتجهّم وجه المديرية وقالت :

« ان هذا الوقح هو آخر من يستحق اكل الحلوى . »

ثم رمقت المعلمة بنظرة توبيخية ، لملايتها عبيد . واذ سمعت
عبيداً يتمم بكلمات غير مفهومة ، استدعته بخشونة ، وامطرته
وابلاً من قارص الكلام . وعندما نفرّ بها ، واحتجّ على معاملتها
له ، وحرمانه للمرة الثانية من المكافأة التي استحقها ، لكتمه على
وجهه لكمة كادت ترميه الى الارض . ولم تكتف بما فعلته به ،
بل طردته من غرفته الطعام ، وامرت بحبسه في غرفة منفردة
يوماً كاملاً ، لا يذوق فيه من الطعام شيئاً .

وأدخل عبيد غرفة سجنه ، بينما كانت المعلمة الصغيرة تشيّع
بعينها الحلوتين العطوفتين .

وجعل عبيد يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً ، حتى اعياد التعب
وعضّه الجوع . وكان يلهمي نفسه بشتم المديرية ، يخرج من فمه
مثل زخ المطر .

وصادف ان كانت الغرفة محاذية للمطبخ ، ولها باب الى جهة
الدار ، أقفل من الخارج بأمر المديرية ، وله نافذة صغيرة في أعلى
الحائط ، الفاصل بينها وبين المطبخ ، وكانت النافذة مغلقة ايضاً .
وسمع عبيد خشخشة الأواني من وراء الحائط ، كما سمع ايضاً

سعال الطباخة العجوز . فتسلق الحائط بمنورة بهلوانية ، وطرق
زجاج النافذة ، لكي يستلفت نظر الطباخة .
ودهشت هذه عندما رأت عبيداً معلقاً بين السقف والارض ،
وممسكاً بحافة النافذة .

وقال لها عبيد :

«آلو . آلو... برّبك يا عمّاه ، اطعميني لقمة من العيش لاسد
جوعي ، اني اكاد اموت من الجوع . »

واجابت العجوز ضاحكة ، على تكشيرة اشبه بتكشيرة
السعادين :

« يبدو انك محبوس لجرم ما اقترفته يارذيل . كل يوم لك
قصة جديدة . هذه المرة علقك بالفخّ مثل الخردون .

وقال عبيد :

«والله ما عملت شيئاً استحق عليه الفخّ . اطعميني الله يطعمك . »

وقالت العجوز :

« يا لمصيتي اذا عرفت المديرية . ربما تجهلها انت ، ولكن انا
اعرفها . عبد الحميد ما كان مثلها . قلبها حجر ، لا شفقة ولا
رحمة . بالله عليك اعفني من شرك يا عبيد . »

وقال عبيد بسخرية :

«وايما شر تخافين ؟ لقمة واحدة لا يعرف بها احد . هل تريد
ان اموت جوعاً من اجل خاطر ستنا المديرية الظالمة ؟ انك عجوز
مثلها ، ولكنك لست خبيثة ومتحجرة القلب . ان هيئتك تدل
على انك عجوز طيبة القلب ، ولو لم تكوني كذلك ، لما كنت

سمينة ، بل كنت هزيلة وشنعاء ، كما هي المديرية .
وقالت الطباخة :

« قلت لك اعفني من شرك ، ولا تكن سبب طردي . ان
مديرتنا قاسية وظالمة ، ولا تهاود في القصاص . ان عندي عيالاً
عليّ ان اطعمهم . ستطردني اذا عرفت وتكون انت سبب
سقائي . لن تموت يا عبيد اذا صمت يوماً واحداً . »

وقال عبيد ، بعد ان انقلبت سجنته الساخرة الى عبوس :
« لن انزل قبل ان تطعميني ، واذا ابيت فاللعنة عليك وعلى
جميع العجائز . اطعميني وإلا سيكون لك معي بعض الشأث
غداً » قال هذا وغمزها بعينه غمزة تعني شيئاً ما .

واشفقت العجوز على عبيد ، بل خشيت ما يتوعدّها به في
الغد ، فتظاهرت بالاشفاق ، وناولته رغيفاً وبعض حبّات زيتون
ورجته ان ينزل سريعاً الى الارض ، ولا يبوح بالامر لأحد .
وهبط عبيد الى ارض الغرفة ، والتمهم ما حصل عليه بالحيلة
والمكر ، وقال في ذات نفسه : « ان خبث العجائز لا يغلبه غير
شيطنة الصغار » .

وقضى عبيد ساعات حبسه ، وهو يلعن المديرية والمدرسة
والذين اتوا به اليها .

وجاءت المعلمة الصغيرة في المساء ، وفتحت باب الغرفة بامر
المديرية ، وأومأت لعبيد بان يخرج ، وناولته قطعة من الكعك
المطبوخ ، حملتها له من خزانتها الخاصة سراً ، وطلبت منه ان
يبتلعها قبل ان يراه احد .

والقى عبيد نفسه بين يدي المعلمة الصغيرة ، وقال لها « شكراً
يا معلمتي اللطيفة . »

وعاد عبيد الى دروسه ولعبه وعمله في الخدمة ، دونما تدمير ،
ولو ظاهرياً . فهو يعلم انه من عائلة الفقراء ، التي يسري عليها ما
لا يسري على من ليس منها . والفقراء ، على ما يعلمونهم ايّاد ،
يجب ان يتحملوا اعباء فقرهم ، وعليهم ان يدفعوا شيئاً ما ، ثناً
لما يُعطون ، واذا لم يكن عندهم ما يدفعونه ، فالعدل يقضي بان
يخدموا من يغذون الدار بدراهمهم ، او دراهم ذويهم . هذا هو
المعقول بنظر الشرع ، والا كانت الدنيا فوضى ، وأكل الناس
بعضهم بعضاً . وما دام الفقر واليتم بيد الله ، كما تقول الكتب ،
ويعظ الوعاظ ، ويشرع المسترعون ، فليس للانسان ان يتدمر
من احكام الله .

وأولع عبيد بالمطالعة . فكهما وجد فراغاً في وقته ، اخذ
كتاباً او قصة ليقرأها . واكثر ما كان يعمل اليه ، سير القديسين ،
ومواعظ المبشرين والمصلحين . وما بلغ السن الثالثة عشرة ، حتى
كاد يحفظ في ذاكرته ، كل ما قرأه في الكتب والكراريس .
ولطالما وقف حائراً مما يقرأه . على ان ما كان يقلقه ، ويستحوذ
على تفكيره ، في الليل والنهار ، ويحاول ان يتفهّمه ، هو ، لماذا
يخلق الله انساناً فقراً واناساً اغنياء .

واراد مرة ان يستفسر من المعلمة ، عن امور يصعب عليه
تفسيرها فقال لها :

— هل تستطيعين يا معلمتي ان تقولي لي ، لماذا خلقي الله فقيراً

ويتيماً ، وحكم علي بان اعيش من مال غيري ، ما دام الله الـ
الجميع . وهو الذي خلقتي كما خلق غيري على صورته ومثاله ؟ وما
هو ذنبي ، اذا كنت اتيت الى هذه الدنيا بدون أب وام ؟ وهل
عند الله فرق بيني وبين الاولاد في القسم الاخر من المدرسة ؟
وهل صحيح اننا نحن وهؤلاء اخوة في عيني الله ؟ اذا كان
صحيحاً ما اقرأه في الكتب ، ان الله يحب الفقراء اكثر من
الاغنياء ، فلماذا تحب المديرية الاولاد الاغنياء اكثر مما تحبنا ،
وتعاملهم احسن مما تعاملنا ، وهي التي تصلي له دائماً ، دون ان
تتبع وصاياه ؟

واضطربت المعلمة من هذه الاسئلة ، التي لم يسألها ايها احد
قبل الآن ، وارادت قطع هذا الحديث المربك والخطر جداً ،
وقالت لعبيد :

— انك لا تزال صغيراً على هذه الاسئلة يا عبيد . ليس لنا
نحن البشر ان نجادل في امور مثل هذه ، بل علينا ان نؤمن
بتعاليم الله ، ونرضخ لارادته سبحانه تعالى .
وسكت عبيد ، ولكنه بقي حائراً .

ومضت الايام ، واستمر عبيد في مطالعة الكتب ، وكانت
امنيته الكبرى ، ان تحصل الى يده كتب غير الكتب الموجودة
في المدرسة .

كان يُسمح لعبيد ورفاقه ، ان يخرجوا احياناً الى المدينة ،
لقضاء حاجة من حاجات المدرسة . وكان عبيد يجد غبطة في

نفسه كلما اتيح له ان يخرج الى السوق . ولطالما كان يتطوع من تلقائه بخدمة من هذا النوع ، لانه كان يجد في السوق جوّاً احب الى نفسه من جوّ المدرسة . ففي السوق ، كان يشعر بأنه انسان مثل سائر الناس ، ويرتاح الى الحرية الموقّعة التي يتمتع بها بعيداً عن غلاظة المديرية ، ذات الوجه المجعّد ، والظهر المقوّس ، والشعر الاسيب ، والعينين الغائرتين ، في رأس اشبه برأس القرد . وفي السوق ، تعرّف عبيد على اولاد جدد ، وتصادق مع بعض منهم اكثر من مصادقته مع رفاق المدرسة المستذلّين ، لانه لمس في رفاق السوق عنفوانية تتلاءم مع طباعه . وكان يقول في ذات نفسه : « ليتني أبقى مع هؤلاء »

وتسلل عبيد من غرفته ذات مساء دون ان يدري به احد . وهرول مسرعاً صوب السور ، وقفز فوقه الى الخارج . وذهب الى الحبيّ الذي كان يلتقي فيه باصحابه الجدد . ولم يعد الا في ساعة متأخرة من الليل ، بعد ان قضى الوقت يطوّف احياء المدينة ، ويشبع ناظريه من مفاتن المدينة الصاخبة . وما ان عاد الى المدرسة ، حتى رأى القيامة قائمة . رفاقه حائرون بما كان من امر عبيد ، والمعلمة الصغيرة قلقة وساهرة ، بانتظار عودته ، او بانتظار خبر عنه . فاستقبله رفاقه بالتأهيل والتوجيب ، بينما كانت المعلمة الصغيرة تؤنبه على ما فعل ، وتخوّفه من العقاب الذي ينتظره في الغد من المديرية التي لا يخفها شيء . لقد عرفت المديرية بغياب عبيد اثناء دورتها المسائية في غرف النوم ، واستشاطت غيظاً ، ليس عليه فقط ، بل على المعلمة ايضاً ، وكالت لها عبارات

التوبيخ، لأنها لم تتدارك مثل هذه الامور، وهي الموكلة بالنظام،
وهذه كلها هي ايضاً بالعقاب .

واستلقى عبيد على فراشه ، بعد مغادرة المعلة . ولكنه لم
ينم ، ولم يدع احداً من رفاقه ينام . كان يحدثهم عما رآه في
المدينة ، وعما سمعه من اصدقائه الجدد . وقص عليهم ما قرأه
في صحف النهار ، واخبرهم عن ثورة العمال في معمل السجاير ،
وكيف جنّد البوليس عشرة من المتظاهرين ، وكيف حدثت
المشاجرة في مجلس النواب ، وكيف شاهد فتى ، لا يزيد كثيراً
في السن ، محمولاً على اكتاف الناس ، وهو ينشد فيهم ، وكيف
هجمت النساء على السراي ، وهي تنادي «بدنا خبز . بدنا خبز» ،
وكيف سقطت احدهن مع طفلها ، الذي كانت تحمله ، برصاص
الدرك ، وكيف اقلّ التجار دكاكينهم وهربوا من الخوف ،
وكيف وكيف وكيف ، بما رآه ، او سمعه ، او قرأ عنه في
جريدة ، او اختلقته مخيلته المحتاجة . وهكذا استطاع عبيد ان
يُدخل في اذهان رفاقه ، ان الحياة خارج الدار التي يعيشون فيها ،
افكره واخصب من الحياة في داخلها .

واصبح الصباح ، وهرع الاولاد الايتام الى اعمالهم في
الخدمة ، بعد ان رتبوا سررهم ، وكنسوا غرفتهم . وكانت
تبدو على وجوههم ملامح لم تكن تبدو عليها من قبل . كانت
عيونهم متعبة من قلة النوم ، ولكنهم لم يقصروا في الخدمة ،
كأن ما سمعوه من عبيد في الليل ، اذكى فيهم قوة لا شعورية .

وكان عبيد ينتفخ كما ينتفخ الديك قبل ان يصيح ، وهو دائب على عمله تحت نظر المراقب البدين ، دون ان يلفت نظره اليه . كان يعمل وهو يتمم بالغناء ، وكان رفاقه يرمقونه بنظرات الاشفاق ، لما سيكون من امره بعد ساعة ، عندما يُدعى من قبل المديرية ، ليُعطي حساباً عما فعله بالامس . وكان اقلهم اهتماماً للامر عبيد بالذات . انه رجل في عيني نفسه ، والرجال في عرفه لا يخافون شيئاً .

ودلف الاولاد ، بعد انجازهم خدمة القسم الاخر ، الى غرفة الطعام ، حيث كانت تنتظرهم المعلمة الصغيرة . وتناولوا فطور الصباح ، دون ان ينبس احد منهم ببنت شفة . كانوا على احرا من الجمر ، بانتظار ساعة عبيد الرهبة . كانت عينا المعلمة الصغيرة شاخصة الى عبيد ، وعلى ثغرها ابتسامة لطيفة وادعة ، وكأنا كانت تشعر في قرارتها بالمصير الذي كان ينتظره . انها اعرف الجميع بما تنطوي عليه المديرية من قساوة ، وما تضرره لعبيد من حقد ، وتحشى ان يكون عقابه شديداً .

وجاء من يدعو عبيداً . فقام من توة ، ومشى وراء الرسول ، وهو شامخ الرأس ، كما لو كان داخلاً الى معركة ، بينما كان رفاقه والمعلمة ، يتبعونه بنظرات الاشفاق . وأدخل عبيد على المديرية ، وكانت هذه واقفة في وسط الغرفة ، وعلى الشكل الذي كانت فيه ، في المرة السابقة وكان الشرر يتطاير من عينيها المحمقتين .

ووقف عبيد في حضرتها ، بينما كانت هي تزار كزئير الضبع

المجروح . ولم ينس عبيد ان يقول لها « صباح الخير يا سيدتي » .
ودون ان تردّ عليه السلام ، ضربت الطاولة بقبضة يدها ،
ذات العظام النافرة والجلد المنمش ، وقالت لعبيد :
... والان عليك ان تجيب على اسئلتى ، دونما لف او دوران
او كذب .

وقاطعها عبيد بانفة : « انا لا اكذب ابداً يا سيدتي . سلى
ما شئت » .
وقالت المديرية :

— لماذا خرجت من المدرسة أمس ، والى اين ذهبت ،
وماذا عملت ؟

— خرجت الى الحيّ المجاور ، وقضيت الوقت مع اصدقاء
تعرفت اليهم عند كنت فيها لقضاء حاجات المدرسة .
وقالت المديرية بجرس مرتجف :

— في تلك الاثناء ، كنت ترسل من اجل حاجة ما من
حاجات الدار . اما هذه المرّة ، فانك ذهبت دونما اذن ، مع
انك تعلم ان هذا ممنوع .

واجاب عبيد بجرس هادىء :

— هذه المرّة ذهبت لقضاء حاجة لي انا .

ورأت المديرية في جواب عبيد ، على هذا الشكل ، شيئاً من
الاستخفاف ، فاغلظت له الكلام .
وقالت لعبيد :

- تأدب في مجاوبتك يا قليل الأدب !

وقال لها عبيد ، وعلى وجهه ابتسامة صفراء :

- وماذا في جوابي من قلّة الادب . سألتني وجاوبت ،

دونما لف ولا دوران . ألم تقولي لي انت كذلك ؟

وتابعت المديرّة بمجدة :

- الا تعلم ان للمدرسة نظاماً ، يجب عليك ان تحترمه

وتتقيد به ؟ ثم الا تعلم ان مخالفة النظام ، تستوجب القصاص

الصارم ؟ هل تحسب انك في صحراء ؟

ولم يخرج عبيد عن هدوئه ، وقال للمديرّة :

- قد اكون اعلم بالنظام . ولكن هل النظام عليّ وحدي ؟

- عليك وعلى الجميع .

- على الجميع في قسمنا نحن فقط ، ام على الجميع في القسم

الاخر ايضاً ؟

واحتدمت المديرّة بالغضب وقالت :

- هذا لا يعنيك . دع القسم الاخر وشأنه . نحن الذين نضع

النظام وليس انت . هذا يجب ان تفهمه جيّداً ، ولا تتدخل

فيما لا يعنيك .

وسكت عبيد على تممة في شفّتيه .

وحسبت المديرّة انها أمسكت طرف خيط الاقناع ، وتابعت

بجرسٍ اميل الى النعومة من الاول .

- لقد اشفقنا عليك يا عبيد عندما جيء بك الى هنا ، وها

انت تبادل الاحسان بالتصرّف غير اللائق .

وقال عبید ، وكأنه لم یستطع نعومة المدیرة :

— لیتکم لم تشفقوا یا سیدی !

وظلّت المدیرة العجوز نعومتها العابرة وقالت بنخبث :

— بل كنت الیوم فی عداد الاموات ، مع امك وایك .

وأحسّ عبید كأنما طعن فی قلبه ، لدن ذكر امه وایه ،

على هذا الشكل الباهت الماكر وقال بغضب :

— وماذا كان حدث ، لو متّ مع ابي وامی ؟ هل كانت

خربت الدنیا ؟ هل كان یتعذر على مدرستك ان تجدها زبائن

من امثالی ؟ الایتام یملأون الارض . یتیم بالناقص فی دنیا

الشقاء .

وما تراجعّت المدیرة ، ولا وخزها ضمیرها بما قاله عبید

وقالت بحفاء :

— یا لك من ولد غبی وغنید وکبیر الرأس ! لقد آویناک من

یوم ولدت ، واطعمناک وکسوناک ، وعلمناک کل هذه السنوات

واردنا ان نصلحک لکی تكون رجلاً . ولكنک على ما یبدولی

ُجبلت على الشر ، وانکرت النعمة ، فیا ضیاع التعب والعلم

فیک ! انک لم تعد تطاق ، ولقد حان الوقت لان نضع حدّاً

لکل هذا .

و کظم عبید غیظه ، دون ان یفقد شیئاً من تعقّله ، وقال

لرئیسة :

— اسألی معلمتی یا حضرة الرئیسة اذا كنت غیباً کما تقولین .

انی لم اتأخر يوماً عن اداء فروضی المدرسیة ، واستحققت اکثر

من جائزة ، لو لم تحرمني منها ، وكنت اقوم بواجب الخدمة المفروضة على مثل رفاقي . اسألي اولاد القسم الآخر ، اذا كنت تلكأت مرة عن القيام بالواجب . اذا كان حجم رأسي كبيراً ، فرأسي ليس من صنعي . هل يكون كبر الرأس عيباً في الانسان ؟ لماذا تقولين اني جببت على الشر ؟ هل انا جببت نفسي ام هو الله عزّ وجلّ الذي جببني ؟ هل يجبل الله انساناً بالشرّ وانساناً بالخير ؟ انا شرير ؟ هل سرقت ؟ هل كذبت ؟ هل قتلت احداً ؟ رأسي كبير ؟ وما حيلتي بذلك ؟ في القسم الآخر من المدرسة ، يوجد رؤوس اكبر من رأسي . لماذا لا يعابون على ذلك ، كما يُعاب عليّ ؟ اذا كان كبر رأسي لا يتلاءم مع يتي ، ماذا افعل ؟ فلا يسمي مني ، ولا كبر رأسي مني ! وغمرت العجوز الحدة وقالت تعبيد :

— ما اكثر ما تحب الجدل وطق الحنك ، كأنك استاذ في الحمامة ، او بالاحرى استاذ في النفاق . من العبث ان اضيع وقتي معك . اخرج من هنا قبل ان اكسر رأسك بهذه المسطرة ، ولكني اخاف على المسطرة من هذا الرأس ، الاشبه برأس الوحش !

واستأذنها عبيد ليقول ، ما لم يجد بداً من ان يقوله :
— قد يكون عندي يا حضرة الرئيسة ميل الى الجدل ، ولست احسب ان هذا تقيصة . ولكني احتج على اتهامك ايتاي بالنفاق ، لاني لست جباناً ، لكي اكذب او انافق . اني اردّ اهانتك لي بقوة ، ولا اقبلها ، لا منك ، ولا من ايما انسان على

وجه الارض .

واومات المديرية الى عبيد ان يذهب ، بعد ان صوّبت اليه
نظرات حقد ، وامطرته بقوارص الشتيمة ، وقالت له :
— اغرب الان من هنا ، وسنرى ماذا تقرر الادارة
بشأنك !

وقبل ان يغادر عبيد المكتب سأل المديرية :
— ولكن عفوك يا سيدتي ، انك قلت انك ستضعين حداً
لي ، فهل لي ان اسألك متى ستضعين هذا الحد ؟
 واجابت المديرية بكبرياء :
— هذا شأنى وشأن العمدة ، وليس لك ان تتدخل به ،
وستعرفه في حينه .
ورفع عبيد يده الى رأسه مودعاً . وانصرف ، ونار الحقد
تشتعل في قلبه .

كان رفاق عبيد في غرفة الدرس مع المعلمة الصغيرة . ولكن
احداً منهم لم يكن ينتبه لدرسه . وكانت المعلمة الصغيرة ذاهلة
عن عدم اهتمام التلامذة بالدروس .
ودخل عبيد الغرفة ، وجلس في مكانه ، كأنما لم يكن شيء .
وعندما خرج التلامذة الى صحن الدار ، التفوا حول عبيد ،
وجعلوا يسألونه عما جرى بينه وبين المديرية ، وكلهم متلهفون
لمعرفة ما حصل . وكان عبيد يجيبهم بعدم اكتراث :
— سألتني وأجبتها ، وقالت لي وقلت لها . وغضبت

وزجرت ، ولكنها لم تضربني هذه المرة ، مكتفية بالتهديد
بتكسير رأسي ، وقالت انها ستضع حداً لي ، وترفع الامر الى
العمدة . هذا لا يهمني بشيء . الضرب لا يمتني ، والحبس اعتدت
عليه ، والصيام اعرف كيف اداويه ، والطرء من المدرسة ...
هه ... هه . هيا الى الساحة !

وتعالت اصوات الرفاق : « كل شيء ولا الطرد . لن تذهب .
لن تذهب . لن تذهب . آه من هذه العجوز اللعينة ! »
ومرّ اسبوع على الحادثة ، دون ان يتخذ ايّما تدبير بحق
عبيد . وسرّ رفاقه ، وحسبوا ان الامر قد أهمل ، وكان يزداد
شغف الرفاق بعبيد يوماً عن يوم . ان له في كل مجلس نكتة ،
ولكل خبر تفسيراً . اذا قرأ كتاباً او قصة ، سود ملخصها
لرفاقه في غرفة النوم ، واذا اشترك في لعبة ما ، ألعب الحماسة في
اللاعبين الآخرين ، وهو لا يدع بادرة تمرّ ، الاّ ويعلق عليها
الف تعليق ، حتى اصبح المرجع الاول والاخير لجميع التلامذة .
ولاحظت الادارة ، ان جوّ المدرسة بدأ يتغيّر عن ذي قبل .
ولم يخرج عبيد من المدرسة طوال الاسبوع ، الاّ مرّة
واحدة . كان ذلك يوم توفي كبير في المدينة ، وطلب اهله من
الادارة ، ان يمشي في الجنازة ، ايتام المدرسة . فارتدى هؤلاء
بذلاتهم المصبوغة بالازرق لمثل هذه المناسبات ، ومشوا صفوفاً
صفوفاً امام النعش ، وهم يحملون الأكاليل وبُسط الرحمة ،
وينشدون نشيد الموت . وكانت الادارة تغتبط بهذه المناسبات ،
لما تستوفيه عليها من جعلات ، اقلها خمسون ليرة . وكانت

الادارة تتكرّم على الايتام بطبخة ، اكثر كلفة من الطبخات العادية ، كلّما قبضت محصولها من هذه المهمة الراجحة .

واطلّ على الدار في آخر الاسبوع ، الرئيس الاعلى لدور الايتام ، في جميع انحاء البلاد . واقيمت لمقدمه الاستقبالات والحفلات ، واستعرض الرئيس صفوف التلامذة ، وخطب فيهم . وكان يرافق الرئيس ، في كل استعراض ، المديرية العجوز . وكان التلامذة يفرحون بهذه الزيارات ، لما يرافقها من احتفالات وعطلات مدرسيّة . وما دروا ان وراء زيارة اليوم ، مفاجأة ستصيبهم في الصميم .

وفي خلوة بين الرئيس الاعلى والمديرة ، طفقت هذه تروي للزائر الكبير ، ما كان من امر عبيد . وسردت قصته من يوم جيء به الى الدار ، كيف كان يخالف النظام منذ بدأ يفهم ، وكيف قفز الى القسم الآخر وانتزع الوسام من سليم ، وكيف خرج من المدرسة بدون استئذان ، دون ان تترك شاردة ولا واردة ، وهي تجسّم كل حادثة وقعت له . وعندما قال لها الرئيس ، ان مثل هذه الامور ، يمكن معالجتها بالطرق التربوية المألوفة لاصلاح الاحداث الاشرار ، غلبت عليها الحدة وقالت للرئيس :

- ان هذا الولد ، لا ينفع فيه شيء . ضربناه فما اهتم ، وحبسته اكثر من مرة ، فكان يخرج من الحبس ويعود الى عناده : حرّمته الطعام فما ارتدع . انه من فصيلة الشياطين . واذا

تغاضيت عن كل هذا، فهناك امرٌ لا يسعني السكوت عليه ابداً ،
ولا شك انك يا سيادة الرئيس توافقتني على عدم السكوت .
ان عبيداً ولد ذكي ، هذا لا انكره ابداً ، ولكن ذكاه
خطر جداً ، ليس على نفسه وحسب ، بل على اولادنا الآخرين .
انه يقرأ كثيراً ، ويجادل فيما يقرأه . فاذا قرأ كتاباً ، يفلسفه
كأنه فيلسوف ، حتى وصل به حبّ الجدل ، الى التساؤل عن
صحة الايات المقدسة . اكثر من مرة ، كان يسأل عن حكمة
الله ، سبحانه وتعالى ، بخلقه اولاداً فقراء واولاداً اغنياء .
وكثيراً ما كان يجادل في الفرق بين القسم الذي يتعلّم فيه
والقسم الآخر ، ولماذا نمنع اختلاط الاولاد في القسمين . صحيح
انه يتمّم واجباته في الدرس والخدمة ، ولكنه يحبّ المناقشة
في أمور ، ليس من شأنه ان يناقش فيها . واهم من كل ذلك ،
انه يجلس الفرص لمطالعة الصحف وبعض الكراريس الممنوعة في
المدرسة ، لا اعلم كيف يتوصل الى الحصول عليها . انه
عفريت ، وعلى عتبة الكفر والزندقة . والخطر اكثر واكثر ،
انه يستولي بسهولة على افكار رفاقه البسطاء ، واخشى ان يبذر
فيهم بذور الفساد . منذ بدأ يخرج الى السوق ، وهذا ما لا
نستغني عنه من اجل قضاء حاجات المدرسة ، لاحظت ان الجو
يتغيّر بين التلامذة ، واصبحوا يفهمون اموراً لم يكونوا
يفهمونها ، ولا قبل لهم بفهمها ، ولا يجوز ان يتكلموا عنها . انهم
لا يزالون صغاراً ، ناضري العود ويسهل على الشيطان الدخول فيهم .
اذا اردنا ان تبقى مدرستنا ذات سمعة طيبة ، وينشأ اولادنا على

وصايا الله وتعاليمه ، فيجب ان نتخلص من هذا الشيطان
الاثيم . وماذا يضير اذا ضحينا بفرد من اجل خلاص المجموع؟
عبيد لا يجوز ان يبقى عندنا ابداً ، ابداً ، ابداً ! لو كنت في
محلي يا صاحب السيادة ، لما كنت تتحمل من هذا الولد العاق
ما تحمّله انا الى الآن . وحق الايمان يا سيدنا ، ان بقاءه هنا ،
وبين هؤلاء الصغار ، من شأنه زعزعة الايمان من نفوسهم
البريئة ، كما ان من شأنه ايضاً ، ان يشكل اكبر خطر على
رسالتنا نفسها . يجب طرده ، ولتكن مشيئة الله .

كان الرئيس الاعلى يفكر وهو مطرق الرأس ، عندما كانت
المديرة تتكلم باكثر ما يكون من الحدة والانفعال . انه عظيم
الثقة بالمديرة . ففي اثناء ولايتها على المعهد ، اصاب هذا ازدهاراً
لم يسبق ان اصابه قبل ولايتها . ان عدد الابنية زاد ضعفين
عما كان قبل خمس سنوات ، والاحسانات تتدفق على المعهد من
كل صوب . انها العمود الفقري في المعهد ، ووجودها في
رؤاسته ضمان لسيور الرسالة . العائلات الكبيرة في البلاد تحبها
وتحترمها ، والحكومة تحلها المقام الاول بين مديري المعاهد
الاحسانية . انها شديدة التمسك بالمبادئ التي على اساسها انشئ
المعهد ، ومن اجل نشرها يجب ان يعمل دائماً . انها اكبر عامل
في بث تعاليم الخير والصلاح ، التي تأمر بها الكتب ، تصلني الى
الله من اجل خلاص البشر ، دون ان تطلب لنفسها شيئاً الا
رحمة الله تعالى . انها اليوم الزم من ايما وقت مضى ، لمقاومة
التعاليم الهدامة لكياننا الاجتماعي وحضارتنا الغربية ، القائمة على

الدين والايمان . انها اخبر من غيرها كيف تكافح « رسل
الشيطان » ، الذين يدعون ان العقل البشري باستطاعته ان
يتحكم بشؤون الطبيعة ، على غير ما تقوله النواميس الالهية .
انها عدوة الكفر والكفرة وزنادقة الايمان ، وجندي من جنود
الحبّة والرافة والسلام ، وليس ما هو احوج لعالمنا الروحي ، في
صرعه مع العالم المادّي ، من امثال هذه المديرية المؤمنة التقيّة .
ووجّه الرئيس الاعلى بعد استماعه الى حديث المديرية عن
عبيد ، وقلب الامر في سرّه على جميع وجوهه ، ووزنه بميزان
« من » و « الى » ثم قال لها :

— اني حائرٌ فيما تقولينه ايتها الاخت الصالحة . هذه ورطة ،
ليس سهلاً الخروج منها . لعلّها اعقد مشكلة تواجهنا . كنت
اعتقد ان هذا الولد ، سيكون عاملاً من عملاء الخير ، لانه على
ما بدا لي ، وكما تشهدين انت ايضاً ، ذكي ونشيط . كنت آمل ان
نجني منه كثيراً ، وكنت ارغب في استبقائه عندنا ، لنفيد منه في
نشر الرسالة التي اخذنا على عاتقنا نشرها في العالم . ولكن يبدو
ان للذكاء حسنات ، كما ان له سيئات كذلك . انا اقرّك ، على ان
للذكاء اخطاره اذا اتّجه صاحبه نحو الشر ، وجعل يتحدّى
تعاليم الله والقدّيسين . ان العقول الكبيرة نعمة سماوية ، وهبة
يهبها الخالق جلّ جلاله للمصطفين من خلقه ، ولكنها لا تبقى
كذلك ، اذا لم يوضع لها ضابط روحي يردعها عن الانطلاق
خارج نطاق الايمان . وهذا الضابط ، علينا نحن المؤمنين ان
نضعه ، لكي لا يفلت زمامه من ايدي الرسل الاصفياء . ان

مهمتنا في هذا العصر صعبة جداً ، وتزداد صعوبتها يوماً عن يوم ، وهي تتطلب السير باكثُر ما يكون من الحكمة ، واستلھام المعونة من العناية الالھية ، لكي تسدّ العناية كل خطوة من خطواتنا . انك ايتها الاخت الصالحة تشار كيني هذا الرأي ، ولا ازيدك معرفة به . ان ثقتنا بك لا يحدّها حد ، واعتمادنا على اخلاصك وايمانك ورجاحة عقلك ، لا يحتاج الى برھنة . انك ولا شك فكّرت كثيراً بامر هذا الولد ، وهو امرٌ خطير جداً ، وسيكون لأيّما قرار نتخذه اثرٌ كبير ، وسيحدث به الناس ، وسيغتنمه اعداؤنا واعداء الايمان ، فرصة ليحملوا علينا . كل ما ابتغيه منك ايتها الصالحة ، ان تستلھمي العناية قبل ان تقدمي على عملٍ ما ، ولتكن مشيئة الله .

بعد هذا الحوار بين المديرية والرئيس الاعلى ، وبعد ان خوّلت كامل الصلاحية بالحكم في قضية عبيد ، اخذ يساورها قلق نفسي ، وجعلت تتناظر مع افكارها ... « هل اطردها الولد من المدرسة ، تخلصاً من شرّه وخطره على الاولاد الآخرين ؟ هل يرضى الله عن عمل مثل هذا تجاه ولدٍ یتيم ، قد يسبب له الشقاء الدائم ، ويرميه في احضان الرذيلة ؟ ... واذا صفحت عنه هذه المرّة وابقيته عندنا ، من يعلم اذا ما جرّت علينا هذه التجربة تجارب اخرى اشدّ وطأة منها ؟ ... من يعلم اذا كان بقاؤه في المدرسة لا يكون معناه الابقاء على نواة ، لنشر الفساد والتمرد في الجوّ المدرسي ؟ ... لماذا اتّني هذه الورطة في

آخر حياتي، وبعد ان خدمت ثلاثين عاماً براحة فكر وراحة ضمير؟ ... ليت هذا الولد لم يؤت به إلينا، بل ليتني متّ قبل ان تواجهني هذه التجربة ... غداً اذا وضعته خارج الدار، ستقوم القيامة علينا، وسيغتنمها خصومنا الكثيرون فرصة لزيادة دعايتهم ضدنا ... ومن جهة ثانية كيف السبيل لترويض هذا الولد المتوحش، ووقاية اولادنا الآخرين من شرور يلقّحهم بها؟ ... لماذا لم يقطع لي الرئيس الاعلى برأي حاسم؟ ... لماذا ترك لي وحدي امر البتّ في هذه المشكلة الشائكة؟ ... أغسّي يا الهّي، على الخلاص من هذه التجربة بما فيه رضاك .

وقضت المديرية ليلتها بالصلاة، لكي تلهمها العناية على عمل الافضل . واذا أصبح الصباح، تراءى لها ان العناية اوحّت لها بطرد عبيد، فصحّ عزمها على التخلص منه، مهما كان الامر، وذلك من اجل خلاص المجموع .

ووصل الى علم التلامذة في اليوم التالي لزيارة الرئيس الاعلى، ان قضية عبيد قد بُت فيها . وان هذا الرفيق المحبوب سينغادر الدار . فشقّ عليهم الامر، وحرّن اولاد قسمه عن دخول الصفّ، ومنهم من هدّد بمغادرة الدار، اذا غادرها عبيد . حتى اولاد القسيم الآخر، ساءهم ان تنتهي القضية على هذا الشكل . وتوافدوا على المديرية يستعطفونها لكي تصفح عن عبيد . ولكن المديرية لم تبال لتهديد الاولين، ولا لاستعطاف الآخرين . واصدرت حكمها المبرم : إنه لم يبق لعبيد محلّ في الدار .

وهاج رفاق عبيد الايتام وماجوا . ولم تفعل فيهم وسائل
التهدئة ، التي استعملتها المعلمة الصغيرة ، وهي نفسها كانت
تشعر بالغصة لطرد عبيد ، الذي كانت تحبه وتقدر ذكاه
وأنفقه المتمردة على الظلم ، وعلى « عدالة » غير عادلة .

وجاءت ساعة الفراق ، واحاط الرفاق بعبيد ، وتسلسل نفر
من ابناء القسم الآخر لتوديعه . وما بقيت عين الا ودمعت .
وانتحت المعلمة الصغيرة ناحية منعزلة ، وبدأت على وجهها
دلائل الكآبة . واخذ الرفاق يوسعون عبيداً ضمّاً وتقييلاً . ولم
يشذ الا احدهم عامر ، الذي نفر من توديع من كان احب
الرفاق الى قلبه . وادرك عبيد ، وما كان لعبيد في ذكائه الا
ان يدرك ، ان عامراً يبيت فكرة ما . ولم تفارق الابتسامة
وجه عبيد ، الا عندما حلت محلها ، دمععة شكر وعرفان ،
وهو يودع معلمته الصغيرة ، التي طالما شملته بعطفها ، والتي كان
يرى فيها صورة عن الانسان الامثل .

وخطق الرفاق عبيداً الى بوابة الدار . وعندما رفع يده علامة
الوداع الاخير ، تعالت اصوات الجميع : « يعيش عبيد ...
يعيش ... يعيش ... يعيش ! »

وفي تلك اللحظة بالذات ، كان عامر يتسلق السور ، ويلتحق
بجيبه عبيد ، في زاوية الشارع المقابل .
واقفلت بوابة الدار ، على شقيق التلامذة ، وكآبة المعلمة
الصغيرة ، وعنجهية المديرية العجوز ، وحرمة النظام المفروض .

شريدان يضربان في الارض ، خاويي الوفاض ، ولا يلويان على شيء ، وليس لذيها ايما اتجاه . كان لهما ملجأ يأويان اليه ، والان ليس لهما ايما ملجأ . كانا يأكلان من طعام الميتم ، والان يفتشان على ما يسدّان به جوعهما . انهما لا يملكان شيئاً ، ولا يعلمان ما سيأتيهما به الغد .

ومشى عبيد وعامر في السوق ، الى حيث يتجمع المتبطلون . كانا يمرّان بدكاكين الباعة ، ويشخصان الى البسطات المقدّسة عليها صنوف المأكّل والفاكهة ، ويتملّظان برائحة اللحم المشوي في المطاعم ، ويسمعان مناداة الجوالين : « رغيف الخبز بقرشين ، صحن اللحم بخمسة قروش ، الليمونة بفرنك . يا بلاش . كل يا فقير . الخبز من عند الله يا ناس ! » . ولكن من اين يأتيان بالقرشين او بالخمسة قروش ؟

وجلسا على الرصيف ، بانتظار قادم ينبغي عملاً في عملٍ ما . انهما بحاجة الى ما يشتريان به لقمة العيش ، وليس في خلد هما ان يستجديا اللقمة استجداءً ، بل يريدانها مغموسة بعرق الجبين . واطلّ عليهما قادم من بعيد ، فشخصا اليه ، لعلّه جاء يفتش عن يشتغل عنده وسألها اذا كانت لهما رغبة في الشغل فما تلكا ، ولا ساوما ، وتبعاه الى ورشة في ضاحية المدينة . كانت ورشة بناء ؛ وكان صاحبها بحاجة الى فعلة لنقل الحجارة والطين . لم يتعودا هذا النوع من الشغل ، ولكنه شغل لا يحتاج الى علم او مراس . وهما بحاجة الى القروش ، سواء كانت

قليلة ام كثيرة ، ومعدتاها تدقّان عليها الباب ، وتلحان في الدقّ .

وقضيا يوماً كاملاً في نقل الحجارة . وعندما غربت الشمس ، تقدما صاحب الورشة ليوتين ، لكل منهما ليوة ، انستاها شيئاً من التعب . وكان العشاء الاول على رصيف الشارع ، وكانت الليلة الاولى التي ناماها في العراء .

واستمرّ عبيد وعامر في عملها هذا طوال الاسبوع ، وهما قانعان بما يحصلان عليه ، يقتاتان بالارغفة ، وينامان على الرصيف .

وكان عبيد في اثناء وجوده في الميتم ، قد اطلع خلسة ، في سجل الدار ذات يوم ، على ما دوّن عنه في السجلّ . وقرأ امام اسمه ما يأتي :

« طفل ابن يومه ، مات ابوه قبل ولادته بشهرين ، وماتت امه على اثر الولادة ، حملته الينا قابلة من قرية « عفنيق » لم تعط اسمها ، فتسلمناه منها ، واسميناه عبيد » . وكانت الصفحة المسجل فيها اسمه ، مليئة بالشروح الاخرى ، عن سيرته وتصرفاته ، ممّا يعرفه عبيد ، ولم يابه له .

وقال عبيد لرفيقه عامر ذات يوم :

— اسمع يا عامر . سأغادرك غداً في رحلة لن تطول . داوم على الشغل في هذه الورشة . ان المعلم بحاجة الينا . لن اغيب عنك اكثر من يومين او ثلاثة ، وقد يكون لنا من وراء هذه الرحلة

بعض القائدة .

واضطرب عامر من هذه المفاجأة ، وشقّ عليه ان يتركه رفيقه عبيد ، وقال له ماذا حدث ؟ وماذا تبليت يا عبيد ؟ لقد هربت من المدرسة ، وفضلت ان التحق بك ، وها انت تهم بتركي وحدي . ابهذا تكافئني يا عبيد ؟

واجابه عبيد :

— وحق الاله لن اتركك وحيداً ابداً ، ولن يفرقني عنك غير الموت . ساكون هنا بعد ثلاثة ايام على الاكثر . قلت لك ، انه قد يكون لنا بعض الخير من وراء هذه الغيبة . نحن الاثنين اخوان ورفيقان مدى العمر . لن اتركك . اقسم لك اني لن اتركك .

وسأل عامر :

— الى اين انت ذاهب ؟

— الى مكان ما ، لا تعرفه انت ، ولا اعرفه انا . ولكني ساعود بعد ثلاثة ايام ، او اقل ، ونبقى معاً حتى الموت . وبكى عامر ، ورّبت عبيد على كتف رفيقه ، وطبع على خدّه قبلتين ، وقال له : « بعد ثلاثة ايام » .

وظف عبيد يمشي في ارض جبليّة ، موحشة وجدباء ، وهو يلث من التعب . كان العرق يتصبّب من جبينه وعنقه وجسمه ، فيمسحه بطرف ستورته ، المتدلّية فوق سروال من سقط القماش المهترى من حمل الحجارة . وخاف على حذائه العتيق ، ان تزيد الصخور في تمزّقه ، فتزعه وحمله تحت إبطه ، وجعل يسير حافياً

في الدرب المتعرجة . ان بإمكانه ان يتحمّل الجروح ويداويها ، ولكن ما ليس بإمكانه ، شراء حذاء جديد . وكان كلّما مرّ به عابر سبيل ، يسأله عن قرية « عفنيق » وهو يأمل بالوصول اليها ، ويخلص من هذه الرحلة المنهكة ، ولعلّه يجد في الضيعة شيئاً يسدّ به الجوع ، الذي يعضّه في أحشائه . انه لا يحمل معه لا طعاماً ولا شرباً . والطريق مقفرة ، وليس فيها نقطة ماء . مرّة واحدة صادفه رجل سقاه جرعة ماء ، ولكنها خرجت من جسمه مع العرق الدافق من كل اطرافه . وبعد مسير خمس ساعات بين التلال والادوية والصخور ، قال له احد المكارين : « هناك وراء التلة الخضراء تقع قرية عفنيق »

وجد عبيد في المسير ، وكان يلث كما يلث كلب الصيد . وكان خفقان قلبه يزداد ، كلّما اقترب من القرية . واطلّ على فسحة بين التلال ، مغروسة بأشجار التين والتوت والصبير والعريش ، وقد انتثرت بين اشجارها ، بضعة بيوت صغيرة وعتيقة وحقيرة ، كأنها بقية من خرائب العصور الماضية . ولم يلمح بينها الاّ بناءً واحداً ، ترتفع فوقه قبة و صليب ، ادرك انها كنيسة الضيعة .

ومشى عبيد في اتجاه القبة العالية ، وفي يقينه ، انه لا بدّ ان يكون بيت الكاهن قريباً من الكنيسة . وذهب من توّه الى حيث يقصد كل غريب عندما يصل الى ايّما قرية . ودلّه احدهم على بيت الكاهن . فجلس هنيهة على حجر ليستريح وينشف عنه العرق . ثم قصد بيت الكاهن ، ووجده جالساً القرفصاء امام

الباب ، وهو يتم صلوات يقرأها في « شبيته » * الصغيرة .
كان الكاهن شيخاً جليلاً ، لا تقلّ سنوه عن الثمانين . وكانت
تظهر على ملامحه علائم الطيبة والوقار ، تزیده وقاراً لحيّة بيضاء
كالشّج ، متدلّية على صدره . وكان يرتدي جبّة ، باخ لونها من
كثرة الاستعمال ، وكان كل ما في البيت يدلّ على فقرٍ مدقع .
ودهش الكاهن من رؤية هذا القادم الغريب ، اذ انه نادراً
ما كان يأتي غريب ما الى هذه القرية . واستقبل عبيداً بالمزيد من
الحفاوة القروية .

وبعد ان القى عبيد السلام على الكاهن ، وتبادل معه كلمات
الجمالة المألوفة ، قال عبيد :

في نفسي رغبة بالتحدث اليك يا أبتِ اذا سمحت .

— وقال الكاهن الشيخ :

— قل يا ابني ما تريد . ولكني اراك تعباً جداً ، ويبدو لي
انك آتٍ من محلٍ بعيد ، وقد لا تكون وجدت في الطريق
طعاماً . الطريق الى ضيعتنا طويلة ومجدبة . فهل لك بلقمة من
خير الله ، وبعدها نتحدث ؟

واجاب عبيد :

— شكراً يا أبتِ ، فما اخطأ حدسك . يكفيني رغيف وحبّة
زيتون .

وابتسم الكاهن الجليل وقال :

* . الشبيّة كتاب صلوات يحمله الكهنة دائماً في جيوبهم ليؤدوا فروضهم
الدينيّة .

— من حواضر البيت يا بني .

ونادى الكاهن خوريتة العجوز ، وعرفها على عبيد ، وطلب منها تحضير ما يمكنها تحضيره من الحواضر . وأكل عبيد من المائدة التي أعدتها الحورية ، وحملتها له على طبقٍ من القش ، بينما كان الكاهن يحدّق اليه بعين العطف ، ويحدّثه عن قرية « عفنيق » لكي يُشغله عن اتّما شعور بالاستحياء .

واستوى عبيد ، بعد ان اشبع معدته الخائفة ، من اللبن والزيتون والقريشة ، وقال للكاهن :

— اني قاصد هذه القرية من المدينة لامرٍ يتعلق بي ويهمني ان اعرف شيئاً عنه . انا يا ابنتِ يقيم الابوين ، منذ الساعة التي ولدت فيها ، فما عرفت ابي ولا امي ، وعشت منذ ولادتي في احد ميّات المدينة . وقد عرفت وانا في الميتم ، اني ولدت في هذه القرية ، وان القابلة التي ولدت على يدها ، حملتني الى الميتم واودعتني فيه . وعندما غادرته ، وكان ذلك من اسبوع فقط ، أبيت الا ان اجيء الى هنا ، لعلّي اعرف من امري ما يلهمني في حياتي . ولعلك يا ابنتِ كنت كاهن القرية يوم كانت ولادتي ، بل ربما تذكر شيئاً ما عن ذلك الحدث النعس . هل عرفت امي ؟ هل تعرف القابلة ؟ هل هي لا تزال موجودة في هذه القرية ؟ هل تستطيع ان امسك طرف خيط ، آمل منه معرفة شيء عن ابي وامي ؟ لقد حرمت منهما ، فلا اريد ان احرّم من معرفة شيء عنهما . وعلى تعاسي ، اكون سعيداً اذا تمكنت من زيارة القبر الذي دُفنا فيه ، لأضع عليه قبلة واحدة .

وبكى عبيد ، وبكى الكاهن .
واطرق الكاهن بضع دقائق ، وانحس عينيه على ذكريات لا
تزال تخطر في باله ، وقال لعبيد :

— ان قريتنا صغيرة يا بني ، كما تراها بعينيك ، وليس فيها
اكثر من خمسين بيتاً ، اذا صحّ ان نسمي هذه الاكواخ
بيوتاً ، وسكانها لا يزيدون عن المائة نسمة ، يعيشون كما لو كانوا
عائلة واحدة . وانا اعرف كل رجل وامرأة وولد فيها . لقد
خدمتها ، بنعمة الله ، اكثر من اربعين سنة ، لم تتنقص حياتي
فيها يوماً واحداً . ان هؤلاء القرويين من اطيب الناس ، لا
يعرفون غير الشغل والصلاة . ليس ما يحزنني في آخر ايامي ،
الا رؤية شبابها يهاجرون الى اميركا . قد يكون معهم
حق في الهجرة ، لان المعيشة هنا ضيقة . والشباب لا يرضى ان
يعيش كما عشنا نحن . يقولون ان الرزق في اميركا متوفر . لا
اعرف اذا كان هذا صحيحاً . من كل الشبان الذين هاجروا لم
يعد الينا واحد منهم . الله يوفقهم ويفتح بوجوههم . ولكن نحن
الشيخوخ ، ما هي حياتنا ، اذا عشنا بدون شباب ؟ الحياة هنا
حزينة . الجنينة بدون ازهار لا تنفع . ما لنا ولهذا الآث .
الشيخوخ مثلي يثثرون كثيراً . عدم المؤاخذة يا بني . تسألني عن
ابويك ؟ انا عرفت امك فقط . انها لم تكن من قريتنا ، ولكنها
اتت الى هنا بعد ان فقدت اباك . كنا نحبها كلنا ، لانها كانت
امرأة طيبة وتقية . واحبينها اكثر ، عندما اخبرتنا قصة المرحوم
ابيك وكيف مات . لا اريد ان استعيد هذه الذكريات

الحزنة . يكفيك ما انت عليه من التعاسة . لا تقل يا بني انك
يتيم ، فاذا كان القدر افقدك ابوك ، فالله ابوك والعذراء امك .
وقال عبيد وكان رأى في هذا الكاهن الشيخ ما يحبه اليه :
- اذا كانت القابلة لا تزال في قيد الحياة وموجودة هنا ،
ارجوك يا أبت ان تعرفني بها . هذه هي الخدمة التي اطلبها منك
واسكرك عليها .

وقال الكاهن :

- هي حيّة وعجوز مثلي . انها لا تتعاطى مهنتها الآن ،
واكثر ايامها مريضة . وليس فيها شيء سليم غير لسانها ، وسأجمعك
بها ، لانها جارة لنا . ولكني انبهك على ثروتها . كل العجائز
ثرثارون ، ولا سيما اذا كانت العجوز قابلة عتيقة .

واغرق الكاهن في الضحك ، بقصد الترويح عن نفس عبيد
الحزون . ونادى القابلة ، ودعاها للتعرف على ضيفه الشاب .
ووصلت القابلة ، تتوكأ على عصاها . ووقف عبيد مسلماً
على من باستطاعتها ان تروي غليله اكثر من ايما انسان .

واسرّ الكاهن للقابلة امر عبيد ، وطلب اليها الا تفصح له
كثيراً عما تعرفه عن امه وابيه ، لكي لا تزيد في سواد قلبه .
وحلّ ميعاد صلاة الغروب ، فاستأذن الكاهن ، وقصد
الى الكنيسة لقضاء فروضه الدينية . واصرّ على عبيد ان يبيت
عنده تلك الليلة . واوصى الخورية ، الا تدعه يغادر البيت قبل
ان يعود هو من الصلاة .

كانت القابلة ، كما وصفها الكاهن ، عجوزاً . وكانت تعيش وحدها ، في غرفة صغيرة في جوار الكنيسة . فهي لم تتزوج الا شهراً واحداً عندما كان عمرها ثلاثين سنة . ولم تذق طعم اللذة الجنسية ، بل ذاقها من زوج معتل ، لم تلبث حتى قبرته قبل ان ينصرم « شهر العسل » . ولم يكن لها ، لا اخ ولا اخت ، ولا نسيب قريب . مارست مهنتها خمسين سنة ، دون ان تكون تعلمتها الا بالنظر ، لدن كانت ترافق من كانت تتعاطى القبالة في القرية قبلها . ان وجهها اشبه بوجه قرد ، اكثر مما هو وجه انسان ، وعينيها غائرتان في جبهة نافرة الى الامام ، ونتوءات عظيمة ، تنبت فيها وحولها شعرات موزعة هنا وهناك ، كانت العجوز تقتلعها او تحلقها ، عندما كانت شابة جميلة ، كما تقول عن نفسها . كانت يداها ترتجفان ، وكانت وجلاها تتسكهان ، لولا هذه العصا التي لا تتخلى عنها متى وقفت او مشت . ولم يكن فيها عضو احتفظ بقوته الكاملة ، الا هذا اللسان ، الذي لا يهدأ ، ولا يتوقف عن لوك اخبار الناس لو كآ . ومتى اجتمعت الشيخوخة مع العنس ، قل ان هناك جعبة من اخبار الناس ، الصحيح فيها والمختلق .

وجلس عبيد الى العجوز . وقد اعادت هذه الى مخيلته صورة قريبة من صورة رئيسة الميتم . وعزم على استدراجها الى سرد قصة امه وابيه . وبالغ في مجاملتها ، واغداق المزيد من المديح عليها ، املاً بأن يفهم ؛ من خلال ثروتها ، ما خيل اليه ، ان الكاهن يعرفه ويكتمه عليه .

قالت العجوز :

— ما اشد سروري ببقياك يا بني . انك تذكريني بايام شبابي ،
عندما كنت اذهب من بيت الى بيت ، واولد نساء هذه
القرية . كنت افرّ مثل العصفور ، عمري ما تعبت ، ولا هفوت
هفوة واحدة . كل اولاد القرية اولادي ، يعني كلهم ولدوا على
يدي . لم احتج مرّة الى معاونة طبيب ، ومن اين لاهل هذه
القرية الفقراء ان يأتوا بطبيب ؟ انا كنت القابلة والطبيب دائماً .
الاطباء يتعلّمون ويأخذون الشهادات ، ولكننا نحن مجربون
« ومضروبون على الحّلّ والحامض » . المجرب اشطر من الطبيب ،
اي والله . ياما مرّ عليّ من احوال ومشاكل ، كنت دائماً اخرج
منها ، مثل الشعرة من العجين . ما احد قال لي مرة ، ما احلى
الكحل في عينيك . الكل كانوا يحبونني ، وصدر المقام لي . ما
احلى ايام الشباب . اليوم راح ساقى وسماقي . الدنيا شباب يا بني .
وقال عبيد مغرقاً في مجاملة القابلة العجوز :

— فيك كل البركة يا عمتي . شبابك راح ، ولكن بركتك
موجودة ، ولن تروح ابداً . قولي يا عمتي ، هل تذكرين امي
التي ولدتها ؟

واغمضت العجوز عينيها ، لتستعيد ذاكرتها ، ثم قالت :
— هذه مسألة قديمة . كم عمرك الآن ؟ يمكن خمس عشرة سنة .
اي والله ، سنة الثلجة . الدنيا لا تثلج عندنا . ولكن في تلك السنة
وصل الثلج الى علوّ الباب ، وما عاد احد يخرج من بيته . اي
والله ، اذكر تلك الليلة التي طلبوني فيها لعند المرحومة امك .

الله يرحمها . كانت مثل الزهرة . ولدتها بخير وسلامة ، ثم
انخطفت من بين ايدينا الله بالله . الذي عملته لها ، ما في طيب
يقدر عليه . انه الشؤم يا ابني . الله ينجينا من ساعة الشؤم
وقال لها عبيد :

— قال لي الكاهن ، ان امي لم تكن من عفتيق ، فهل تعرفين
من اين انت ؟

واجابت العجوز :

— الحق مع قدس الكاهن . امك انت الى عفتيق قبل ولادتها
بكم يوم . كانت لابسة بدلة سوداء . استقبلناها كأنها بنتنا . يادلي
عليها . هربت من محل بعيد . اتركنا من هالديث ..
وقال عبيد :

— بالله عليك يا عمي . اخبريني كل ما تعرفينه . انا لم اعد ولدآ ،
ولو رأيتني صغيرآ . وحق المسيح تخبريني .

— ماذا اخبرك يا ولدي . الله يعتر الذين عتروها . كان عندها
زوج مثل الرمح . راح بوشاية اولاد الحرام . كان الفرنسيون
حاكمين بالبلاد ، وكانت الحرب دائرة ، ولكن ليس هنا بل
بعيدآ بعيدآ . وكانت بلادنا ملآنة بالعسكر . وكان ابوك ، مثل
كل الناس البسيطين يقول « شوخصنا نحن من هالحرب » . وفي
يوم من الايام الملعونة ، حصلت « خضة » ضدّ العسكر ، الذين
كانوا ينهبون كل خيراتنا ، الزهيدة في الاصل . والظاهر ان والدك
كان له ضلع فيها ، او كانت وشاية عليه من اولاد الحرام ، مع
انه ما كان لا نائب ، ولا وزير ، ولا شيخ ، ولا مختار . كان

شغياً بسيطاً ، يركض الليل أكثر من النهار . راح بجريرة غيره . عندما تقوم القيامة يا ابني ، الله ينجيننا . العسكرية عندها الدم مثل المي . قتلوه الله يقتلهم . ما كان ينفع لارجاء ، ولا كلام . وحوش كاسرة . حتى الجنة لم يسلموها لامك المسكينة . اين طموها ما احد عرف . انهم كفار ، لم يقبلوا ان يصلي عليها الكاهن . العسكر لا يعرفون الله . الله يجازيهم ويخرب بيوتهم اكثر مما خربت . لا تبك يا ولدي . ابوك في السماء . كانت امك تخبرنا عنه وعن محبته لها ، ومحبه لك وانت في بطنها . كانت دائماً ، محزونة ، وكل يوم تضعف عن يوم . ما احتملت الولادة . يادلي عليها كيف ، راحت من بين ايدينا . انطفأت مثل الشمعة ولو لم آخذك انا ، واحملك الى المدينة ماشية ، كنت لا سمح الله ، رحت انت ايضاً .

كانت القابلة العجوز تلطم وجهها وهي تتحدث لعبيد عن امه . وكان عبيد مطرق الرأس ولا يجيد نظره عن الارض . وعاد الكاهن من الصلاة ، ولاحظ ان عبيداً استدراج القابلة الثرثرة لاختباره ما كان من امر امه وابيه ، فاخذ يعزيه بكلمات عذبة ، تعلمها في الكتب الدينية ، او تمرس بها اثناء خبرته الطويلة في الحياة .

وبقي عبيد صامتاً ومطرقاً الى الارض ، وأبى ان يأخذ من الطعام شيئاً ، الا كوباً من اللبن شربه استجابة لالحاح الكاهن الشيخ .

وقضى عبيد ليلته في بيت الكاهن ، دون ان تغض له عين .

وكان الكاهن يتردد على الغرفة التي فرشت فيها الحورية فراشاً لعبيد ، وكان يعظه بالصبر . ولكن كيف لعبيد ان يصبر او يتعزّى ؟

واصبح الصباح . فطلب عبيد من الكاهن ، ان يـُدله على القبر الذي دفنت فيه امه . واذا رأى الكاهن ، ان لا مندوحة له عن اجابة طلب عبيد ، مشى معه ، وتبعتهما الحورية والقابلة الى حيث دفنت الام . فركع عبيد ، وطبع على حافة القبر قبلة خرجت من صميم قلبه .

وعادت القافلة الحزينة الى بيت الكاهن ، واستأذن عبيد بالعودة الى المدينة ، فقال له الكاهن :

— ليتك تبقى عندنا يا بني . ان في بيتي مكاناً لك . وفي قرينتنا الصغيرة اناسٌ يحبونك . ان امك غرست لك في قلوب اهل القرية بذور المحبة الطاهرة . تعيش بيننا كما لو كنت واحداً منا . اذا كنا لم نستطع ان نبعد غائلة الشؤم عن امك المسكينة ، فلعلنا نستطيع ان نبعداها عنك . المدينة ، ماذا ستعمل فيها ؟ المعيشة هنا اهون ولو كانت ابسط . وحق المسيح ستكون ابننا . ابقى هنا ، ما دام ليس عندك بيت ، ولا انت مربوط بعمل ما . وتذكر عبيد وعده لعمامه ، وقال للكاهن :

— شكراً يا ابي . انا ما زلت في مقتبل العمر ، وامامي طريق يجب ان امشيها . لقد وفيت نذري الآن ، واتييت الى القرية التي حضنت امي في اتعس ايامها ، وقبّلت الضريح الذي ترقد فيه . ان امي وديعة عندكم يا اشرف الناس . واذا ساعدتني

الايام ساعود اليكم بعد حين .

وقال الكاهن :

عندما تعود الى عفتيق ، تجديتي مفتوحاً لك . قد لا اكون
انا عندئذٍ في قيد الحياة ، لان العمر له حدٌ يا ولدي ، وانا
اصبحت عجوزاً ، ومصائب الحياة هدّت قواي . ثق يا ابني ،
ان لك غرفة في هذا البيت ، وخوريّتي امّ لك ، وكل اهل
القرية اخوانك ، وهم يحبّون الغريب ، فلا تتأخر عن العودة
اليّنا ، اذا ما سدّت بوجهك الابواب .

وايدت الحورية والقابلة كلام الكاهن ، ولقّت الحورية عدداً
من الارغفة وبعض الأدام الناشف زوادة الطريق ، وقال الثلاثة
معاً : « ليحرسك الله اينما ذهبت وكيفما اتجهت ، وليرافقك التوفيق
في حياتك . »

وسأله الكاهن :

— ولكن هل لديك ايما خطّة تأمل ان تكسب فيها عيشك ،
ام انت ذاهب على بركة الله ؟ ان الايام ضيقة يا ولدي ،
والشائعات تقول بان العالم على ابواب حرب جديدة ، وانت لا
ترال طري العود ، واخشى عليك من الضيق في هذه الايام
المنحوسة .

وقال عبيد :

— ما عليك يا ابت . سأضرب في الارض ، واحاول ان اعمل
شيئاً ما ، وان كنت الآن لا اعلم ماذا اعمل ، واكافح ما
استطعت المكافحة لكي افال بغيّتي ، واظفر على عدوّي الذي

قتل ابي وامى ، ولا بدّ لي من ان اظفر عليه .
وقال الكاهن ، وقد بدا له في كلام عبيد شيء لم يفهمه :
— ومن هو هذا العدو الاثيم ؟

فأجاب عبيد :

— هو الشؤم الذي حدثتموني عنه ، والذي حرمني والديّ .
هو العدو الذي سافتش عليه اينما كان ، وانا زله حتى اقضي عليه
او يقضي عليّ .

وغادر عبيد قرية عفنيق ، مزوداً بدعاء الكاهن ، وحده
الواحد ، بحاجبة الشؤم ومصارعته .

ووجد عبيد رفيقه عامر في الورشة التي يشتغل فيها . وقضيا
السهرة بالتحدث عن سفرة عبيد .

واخبره عبيد كل ما سمعه عن امه وابيه . فتنهّد عامر وقال :
— ليتني انا ايضاً اعرف عن والدي مثلما عرفت انت عن
والديك !

وداوم الرفيقان على الشغل في الورشة شهراً كاملاً ، يقبضان
اجرتها اليومية ، فيشتريان بها لقمة العيش ، وينامان على الرصيف .

٣

ملّ عبيد الشغل في الورشة ، وما كان يجد في هذا النوع من
العمل ما يرضي رغائب نفسه . كان يود لو يجد عملاً فيه شيء من
الصراع ، وليس في هذه الورشة ما يصارعه عبيد ، غير الحجارة
التي ينقلها على ظهره ، والطين الذي يببل جسمه وثيابه الرثة .

وعندما كان يستلقي على الرصيف بعد كدح النهار ، كان يتخيل
شبحاً يتربّص به ، حتى اذا اجفل وافاق من النوم ، اختفى
الشبح وغار في ظلمات الليل ، فيعود عبيد الى نومه ، وهو يلعن
في ذات نفسه ، هذا الحُصم الجبان ، الذي يتهرّب من الصمود
امام خصمه ، متى دعاه هذا الى النزال .

وكانت الايام تمر يوماً اثر يوم ، وليس فيها ما يتغيّر ، الا
هذا الجدار ، الذي يرتفع شيئاً فشيئاً ، كلما صفت مداмик
الحجارة ، التي ينقلها عبيد ورفاقه الفعلة على ظهورهم . وكانت تمرّ
الامسيات ، امسية اثر امسية ، فلا تأتي لعبيد بشيء جديد ، غير
هذه الليرة التي ينقدها اياها في المساء صاحب الورشة . وكانت
زيارته اليومية مع عامر الى الدكان المواجه ، ليشترى ما يسدّان
به جوعهما ، ثم يغطّان في نومٍ ، لا يعكر سكونه الا زيارة
الشبح الليلية ، شبح الشؤم .

ومرّ امام الورشة ذات صباح ، فتي يتأبط رزمة من الصحف
وينادي بزعقات متناسقة « القتلى والجرحى في المظاهرات »
« استقالة الوزارة » « حلّ مجلس النواب » « اخبار آخر ساعة » .
فهرع عبيد صوب الفتى بائع الصحف والاخبار ، واشترى منه
جريدة بصفحة واحدة ، ونقده ثمنها خمسة قروش ، كانت باقية
معه من غلّة الامس . وبعد ان لمح فيها بطرفة عينه ، طواها
بخفة ، لكي لا يراه وكيل الورشة ، واخفاها تحت قميصه ، ليقرأها
في فرصة الغداء . وعاد مسرعاً الى عمله ، حتى اذا حلّ وقت

الغداء ، انتحى مع رفيقه عامر مكاناً منفرداً ، بعيداً عن اعين
الرقباء ، واخذ يقرأها كلمة كلمة ، ويستعيد قراءتها مرة ومرتين .
وحفظ ما جاء فيها على ظهر قلبه ، وذهب بفكره مع المتظاهرين
ومتى لو كان معهم . وخيل اليه انه اهتدى الى حيث يلتقي
بعدوه الشؤم . وكان يقول في ذات نفسه « يبدو ان الحياة ، هي
اكثر من يتيم يعيش من تبرعات المحسنين ، ومن فقير يكدح ولا
يشبع ، ومن شغل في هذه الورشة ، ومن رغيف يسدّ الجوع
ونومة على الرصيف . »

وفي تلك اللحظة بالذات ، صور لعبيد ، ان افقاً جديداً
ينفتح امامه ، قد يلتقي فيه مع الشؤم ، غريمه البشع ، فيصارعه
ويقضي عليه ، او يسقط في المعركة ، ويذهب الى حيث
سبقه ابواه .

ونام عبيد تلك الليلة مع هواجسه ، وهو يمني نفسه بتبدل ما
في مجرى حياته ومصيره .

ولمخ في الصباح التالي ، فتاه بائع الصحف منادياً من بعيد .
فاغتم فرصة غفلة الوكيل ، واسرع الى الفتى ، قابضاً على الخمسة
قروش ، وقال له :

— أعطني نشرة كنشرة الامس .

وقال له البائع الفتى :

— اخبار جديدة اليوم . الاضراب في الاسواق والمدارس .
الشرطة تملأ الشوارع . الدنيا قائمة قاعدة .

واعجب عبيد بهذا الفتى الصغير وقال له :

— ترى هل يستطيع ان اكون مثلك بائع صحف ؟

واجابه الفتى البائع :

— هذا ممكن على ما اظن . اذا شئت فانا ادلك على المتعهد ،
وقد يأخذك في عداد الباعة . ولكن الغلّة قليلة يا صاحبي . اننا
نركض من الصبح الى الليل ، وينتقب حلقنا من الصريخ ،
وكل هذا لنحصل على ليرة او ليرة ونصف . ولكن ماذا نعمل
في هذه الايام الملعونة ؟ الكحل احسن من العمى ، والليرة
احسن من لا شيء . تعال لاعرفك على المتعهد ، ولربما يرضى ان
يسلمك الصحف لتبيعها ، اذا وجد فيك الضمانة الكافية لتسديد
ثمنها . كيف حنجرتك يا صاحبي ؟ قوّة مثل هذه ... واطلق
الفتى صيحة مدوية ، « اخبار آخر ساعة — الاضراب في المدينة .. »
وقال عبيد :

— ربما يكون صوتي اعلى من صوتك . والتجربة اكبر برهان
اني اكفل للمتعهد بيع كل ما يسلمني اياه ، ولن اضيّع عليه
قرشاً واحداً من ثمنها . اذا كفلتني يا فتاي المحبوب أحفظ لك
الجميل كل عمري . ليحبرني المتعهد مرة واحدة .

واتفق الفتيان على موعد يقابلان فيه المتعهد . وعاد عبيد الى
نقل الحجارة . وزعق الفتى البائع « اخبار آخر ساعة — الاضراب
في المدينة ... »

قال عبيد لرفيقه عامر في اليوم التالي :

— اسمع يا عامر . لم يعد لي رغبة في الشغل هنا بعد الان .

مأشتغل في بيع الصحف ، مثل هذا الفتى الذي يمر علينا كل يوم .
ولكني لن اغيب عنك الا في النهار ، وسأعود في كل مساء ،
فنأكل معاً ، وننام معاً على الرصيف . ولعلي اذا تمكنت من
كسب اكثر من الاجرة التي آخذها هنا ، ان اتدبر لنا نحن
الاثنين ، مأوى احسن من الرصيف . سنبقى رفيقين في اليسر
والعسر . انت تبقى الان تشتغل في الورشة ، وأذهب انا في
طلب الرزق ، الى ان يمن الله علينا بما هو احسن .
وحزن عامر لهذا الفراق ، ولو كان موقتاً ، ولكنه تجلد
عليه ، ما دام عبيد سيعود في كل مساء .

وكان عبيد يبكر في غدواته ، ويستلم رزمة من صحف
النهار ، ويطوّف احياء المدينة كلها ، ويبيع كل ما كان يستلمه
من المتعهد ، ويعود اليه في المساء ، ويدفع له المحصول كله ،
فينقده المتعهد جعالتة عنه ، وكانت هذه الجعالة تزداد يوماً عن
يوم ، كلما ازداد عدد الصحف المسلم له . ووجد المتعهد في
عبيد بائعاً نشيطاً واميناً . وكان عبيد لا يترك صحيفة إلا
ويقرأها ، من الفها الى يائها .

واغتبط عبيد بعمله الجديد . وصارت تبدو عليه علامة جديدة .
ومر اسبوع واحد على اشتغال عبيد في بيع الصحف ، فقال
لعامر في ذات مساء : « يجب ان نطلق بعد اليوم ، النوم على
الرصيف . فقد اصبح بمقدوري ان اكسري لي ولك ، مأوى
نأوي فيه بالليل . وقد وجدت لنا مأوى عند عجوز ، تقطن بيتاً

صغيراً في الزاروب السكائن بآخر الشارع ، مقابل ربع ليرة
كل يوم .
وسرّ عامر ، وراح يقبّل رفيقه المحبوب .

كانت العجوز ، الفقيرة هي ايضاً ، تعيش وحدها ، في غرفة
نصفها تحت الارض ، ونصفها الثاني فوقها . واغتبطت عندما
عرض عليها عبيد ، ان يكتري منها شقّة من الغرفة . العجوز
مثلها لا يتعدّث بها الناس ، اذا هي عاشت مع فتيين في غرفة
واحدة . ان باستطاعتها ان تقسم الغرفة الى قسمين بستر من
الجنفيس . عبيد يشتري الاكياس الفارغة من وكيل الورشة
التي يشتغل فيها عامر ، وهي تخطّطها ستاراً . والربع الليرة ، هي
باشدّ الحاجة لها . فليكن اذاً هذا التعاقد بينها وبين عبيد . وليقل
الناس ما يشاؤون . هي تعرف نفسها ، والسبعون سنة تكفي
لتعرّف الناس بها ، وتحميها من السنة السوء .

وكانت الليلة الاولى التي نامها الرفيقان تحت سقف . ولاول
مرة ، بعد مغادرة دار اليتام ، غسل عبيد وعامر ثيابهما القدرة ،
وشمّاً رائحة الصابون .

واولعت العجوز بالفتيين ، واحبتهما ، وكانت تقضي معها
السهرات ، وتستمع الى الاخبار التي يرويها عبيد ، من مطالعته
الصحف . ووجدت العجوز في عبيد وعامر ، عزاء لها عن
وحشتها . كانت تساعدتهما في طهي الطعام ، وكانت تقصّ عليهما
في الليالي حكايات العجائز . ولم يلبث الثلاثة حتى اصبحوا عائلة

كان الفصل ربيعاً . وكانت ارض الحقول ، مكسوة ببسطٍ من الزهر المفتّح والملوّن ، الالبيض ، والاحمر ، والاصفر ، والازرق ، والمتمسوّج . وكانت الاشجار تلبس حلّة من الاخضرار ، الزاهي . وكانت اشعة شمس نوّار ، تتسلّل الى ما بين الاشجار ، وعلى خفاف الجداول ، وتُدخل الدفء على الفلاحين ، وحرّات الحقول ، وعلى المتنزهين . وكانت عصفير الربيع تزقزق . وكان الناس يخرجون من بيوتهم زرافات زرافات ، لكي يمتعوا نفوسهم بمفاتيح الطبيعة ، بعد ان حرّمهم منها الشتاء القاسي في هذه السنة . وكانت اعياد الموسم تتعاقب في اسبوع الفصح . وكانت العجوز تلحّ على عبيد وعامر ، لكي يفتنّا فرصة الربيع والاعیاد ، ويمتعا نفسيهما بهذه المباحج ، ولو بعض الشيء . وكانت تشفق عليهما من ضیاع ايام الشباب وزهو ولذة الحياة في طور الشباب . وقالت لهما في ذات مساء ، عندما رأتهما يعودان من الشغل ، والتعب آخذٌ منهما كل ماخذ :

يا لطيف كيف تغيرت الايام . كان الناس بالماضي ينتظرون هذا الاسبوع من السنة ، اسبوع اعياد وافراح وشمّ هواء . في مثل هذا اليوم الاربعاء ، كانت الجموع تغدو الى شواطئ البحر . اربعاء الاسبوع هذا ، اربعاء ايوب ، يعني ايوب الصديق . كان ايوب مبتلى بامراض كثيرة . وكانت القروح تملأ جسمه . وكان القيح يسيل من جسمه مثل الریق من غمّ الجمل المزبد . وكانت

رائحة العفن تفوح منه مثل رائحة الجيفة . يقال ان ايوب كان مصاباً بمرض البرص ، ضربه عليه الشيطان ، بعد ان غضّ الربّ نظره عنه ، لما لَقِقَ عنه الشيطان من الكاذب . كيف لا يكون الشيطان شيطاناً ، اذ لم يفسد على الصديقين ويقول انهم انجاس ؟ وهكذا اصيب ايوب البارّ بالف مرض ومرض . ولكنه بقي على ايمانه بالربّ ، وتحمل مصيبته بشكر . وعندما علم الربّ كذب الشيطان ، عاد وبارك ايوب ، وشفاه من كل امراضه . واغتسل ايوب في البحر في مثل هذا اليوم . وصار اسم هذه الاربعاء اربعاء ايوب .

وفرحت العجوز اذ رأت عبيداً وعامراً يصغيان لحديثها عن ايوب . وكان الفتيان يستزيدانها من هذه القصة الاسطورية . فتابعت بشيء من الحماسة ، وسرّها ان يكون لذكرياتها هذا الوقع عند الفتين .

— في مثل هذا اليوم كل سنة ، كانت تذهب الجماهير الى البحر ، وتغتسل في مياهه المقدسة ، الشافية للأمراض ولا سيما امراض العين . وكان من لا يتمكن من الذهاب ، يوصي من يذهب ، ان يأتيه بشيء منها . في ايامي كانت طرقات البحر تغصّ بالزاحفين للاغتسال . الرجال والنساء والاولاد والاطفال ، يحملون زادهم ، ويقضون النهار كله على الشاطئ . ياما كانت العذارى تنتظر هذا اليوم . في تلك الايام ، لم تكن المدينة مثل مدينة اليوم ، ما شاء الله على هذه المدينة . لم تكن البنت تخرج من بيتها إلاّ للكنيسة او للعين ، واذا خرجت لمحل آخر ، تكون برفقة امها

او عمتها او ابيها . ولكن في اربعاء ايوب ، ينفخت الدف
ويتفرق العشاق . لو تسمعان غناء هؤلاء البنات ، بينما يكون
الشباب يلعبون بالسيف والتروس . كنّا نتجمع جماعات جماعات .
بالطبع الرجال في جانب والنساء في جانب آخر ، بعيدين عن
بعضهم ، وليس مثل هذه الايام التي ضاع فيها الحياء ، الله ينجينا .
وحق المسيح ، كل ما يفعله الله بنا ، قليل على خطايانا . بالماضي
كان الحوري في مثل هذه الجمعة ، يعني جمعة الآلام ، لا يجد وقتاً
للاكل . اعتراف ومناولة . اعتراف ومناولة ، من الصبح
للمساء . ما كان احد يبقى بدون اعتراف . لا رجل ، ولا
امراً ، ولا ولد ، كان يأتي الى جناز المسيح يوم الجمعة ، ولا الى
عيد الكبير يوم الاحد بدون ان يكون اعترف وتناول . كانت
صبحية الهجمة ، مثل ساعة القيامة بالتمام . دق الاجراس ،
والقواص ، والزينات ، من عشية السبت الى صباح الاحد .
وثاني يوم عيد الباعوث اكثر واكثر . كان الناس عندهم ايمان .
اليوم لا ايمان ولا من يحزنون . الدنيا صارت شغل بشغل ،
كان الشغل يهرب من بين ايديهم . بسبب خطايانا كثرت
الحروب ، وزادت المصائب . الانسان ما عاد يشبع ، الوحوش
تشبع والانسان لا يشبع . الحيوان متى شبع يكتفي ، والانسان
ما في شيء يكفيه . الطمع اعمى البصر . هذه هي الآخرة التي
تنبأ عنها الانبياء .

وقال لها عبيد مداعباً :

وماذا صار بأيوبك الصديق عندما شفي من امراضه كلها ؟

ونظرت العجوز الى عبيد نظرة فيها شيء من التوبيخ وقالت :
 — لا تضعك يا عبيد . الله حاضر فاضر ، يسمع كل كلمة تقوها
 ولو كنت وراء سبعة بحور . ايوب صديق الله ، مثل كل
 الصديقين . الله ينفعنا ببركتهم وصلواتهم . برضاي عليك يا عبيد
 لا تكفر . يا لطيف كيف انقلبت الدنيا . بالزمان كان الناس
 يعرفون الله ، وما احد كان يسأل مثلها السؤالات . كانت
 الكنيسة تعجّ بالمصلّين . كان الحوري عندما يخرج بين الناس ،
 الكل يركضون لتقبيل يده . كانت الكلمة من المطران تهز
 الأرض . كان الناس راضين ، لا مظاهرات ، ولا اضطرابات ،
 ولا مجالس ، ولا شيء من هذا . اليوم ، صار عندنا مئة حاكم ،
 ومئة نائب ، وكل شهر وزارة ، كأن بلادنا صارت اميركا او
 انكلترا او روسيا . كل هذا من قلّة ايماننا . كلما كبونا
 وتكبرنا ، زادت علينا الضربات . كان الواحد يدفع ربع
 مجيدي بالسنة . اليوم الف ضربة وضربة . يا تعتير الشّعيل اذا
 كان عنده عيال . كانت العيلة تعيش ببشلك بالنهار . اليوم ،
 خمس ليرات لا تكفي للأكل والشرب . قالوا هذه هي المدينة
 الجديدة . تقبرها ان شاء الله . صحيح صار في ناس اغنياء . ولكن
 قبالة كل غني يوجد الف فقير والف جوعان . صارت الناس
 تأكل بعضها . يا الف سلام على الوحوش . راح الايمان وراحت
 معه راحة البال .

وتعلمت العجوز ، وارخت شفتها المتدلّية ، فكشفت عن
 لثة ضامرة ، لم تبق فيها السنون سنّاً واحدة ، ورسمت على

صدرها اشارة الصليب وتابعت الحديث .

- كنا نربي في ها الموسم دودة القز . كانت الاخصاص ،
مشرشرة في سهول التوت ، على مدّ عينك والبصر . منظر من
اجمل المناظر . كان الرجال يمشقون اوراق التوت ويحملونها على
ظهورهم ، وكنا نحن النساء ، نطعمها للدود المتأوج على بساط
الورق الاخضر . كان الخوري يمرّ على الاخصاص كل اسبوع ،
ويرشها بالماء المقدّس ، ليطرده الشيطان عن الدودة المباركة .
بالحقيقة انها دودة مباركة . يا ضياع موسم الحرير . الحرير الياباني
والحرير الاصطناعي ، قتلا موسم الحرير عندنا . وقتلا معه مئات
الالوف من اللبنانيين ، الذين كان رزقهم كله من موسم الحرير .
اليوم ما عاد في توتة بلبنان . الاجانب ضيعوا هذا الموسم المبارك .
كان يوم القطاف احسن ايام السنة . في يوم القطاف ، كان
يتجمع اهل الضيعة ، ويساعدون بعضهم البعض في قطف الغلّة .
وبعد هذا ، يأتي تجار الشرائق ويشترون الموسم من ارضه .
الاقة بمجيدي . وبعض الاوقات بثلاثين قرشاً يعني قرش ايام الخير ،
لا قرش اليوم ، الذي لا يشتري لك فجلة منخورة . دودة القز
يا ابني بركة وثروة . حريرها له ثمن ، جزّة الحصى كنا نبيعها
بكمشة لعلف البقر والغنم . قضبان التوت تكفي للتشغيل كل
ايام السنة . موسم الحرير مات ، وماتت معه البركة . الله يجازي
الذين موّتوه . حريرنا ما كان حرير بالدنيا احسن منه ، ولا مثله
السكين لا يقطع فيه . باقي عندي تنورة من حريرنا من يوم
عرسي . اليوم كل ثيابنا من اميركا . في الحرب ، انقفلت ابواب

البحر ، واهترت ثيابنا علينا . البلاد التي لا يطلع فيها خيط ، ولا يصنع فيها زرّ او دبوس ، كيف بدّها تعيش . اليوم صار بالبلاد كم مصنع ، ولكن اميركا ، يا ابني تعمل الف حيلة وحيلة لتقتل المصانع . وحكوماتنا ، الله يوجه لها الخير ، نائمة على حريرها الاجنبي . وحكامنا الله يصلحهم ، كل همهم جمع المال في جيوبهم . كل شبابنا بدون شغل . والذي يشتغل يركض وراء الرغيف ، والرغيف يركض منه . كل يوم البحر يحمل اولادنا الى المهبجر ، كل يوم نخسر الف شاب . ما بقي بالبلاد غير العجائز مثلي والفقراء المساكين الشحاذين . اميركا بلعت الدنيا واهلها . يا لطيف على ها الحالة . »

كان عبيد وعامر يستمعان الى حديث العجوز الذي لا ينتهي فاستوقفها عبيد وقال لها :

— اخبرينا شيئاً عنك يا عجوزتي الطيبة . هل انت وحيدة في هذه الدنيا مثلنا ؟ اليس لك اهل واقارب ؟

واسندت العجوز ظهرها الى الحائط وتأوهت كأنها أصابتها ذبحة ، وتقلّصت سحنتها المجددة ، واخذت تسرد حكايتها .

— انا وحيدة من ثلاثين سنة ، وليس لي إلا الله سبحانه وتعالى . كنت بالماضي البعيد اسكن في الجبل . وكان لي ابوان ليس بين الناس احسن منهما . كان ابي يشتغل في ارض شيخ الضيعة ، وكانت امي تخدم في بيت الشيخ ، وتربي له القزّ في الموسم . كان عند الشيخ شجر توت ، يربي خمس علب بزر . وكان الموسم عنده اغني المواسم . ومع كل هذا الغنى ، ما كان

عنده ولد . كانت زوجته اكبر منه بالعمر . يا لطيف ما كان اقواها . الله يحق هيك نسوان . كانت هي الرجل . اهل الضيعة كانوا يرتجفون من الشيخ ، والشيخ كان يرتجف من زوجته . هذا يا ابني جزاء من يتزوج للنفخة . ما قبل يتزوج الا من عليه الامراء ، ما شاء الله عليهم ! ركبها على ظهره من اول يوم . عندما غضب مرة عليها ، وسب دين الزيجة ، ابلقت عينها ، وقالت له بكل قلة ادب ... يا الف عيب الشؤم عليها ... قالت له ... « كنت عملتها من الاول يا عملول » تفه على هيك نسوان ، يقلع لها وللنسوان على شكلها . عاش معها عشر سنوات كلها عذاب بعذاب . وعندما مرض ، ما كانت تصدع خاطرها وتعني به . لولا المرحومة امي ، كانت الكلاب جرته . يا حرام على امي . ولما مات اخذت الملعونة كل الاملاك . لان المرحوم كان كتب لها املاكه قبل الزيجة . هذا كان شرط حضرة المير والدها ، ليقبل بتزويجه « هالفرفورة » . كانت ساعة سوداء . الله يرحمه .

وبعد تنهد عميق تابعت :

— ما مضي على موت الشيخ أسبوع ، حتى طردتنا الست « المحترمة » من عندها . كانت تعرف ان زوجها يجبننا ، وما قبلت ان نبقي في خدمتها ، لكي تتخلص من كل اثر له في البيت ومن كثرة لؤمها وفجورها ، صارت تشيع بين الناس ، ان المرحوم زوجها كان يحب امي . يا لطيف على المرأة اذا كانت شريرة وفاجرة . كان الشيخ ، الله يرحمه ، من اشرف الرجال

وكان امي ، يادلي عليها ، من اطهر النسوان . تقبر المشايخ
والامراء ؛ ما ابشعهم وابشع قلوبهم وافكارهم . لولا حب
السترة ، كان من حقنا نحن ، ان نفشي ما كانت تعمله هالأميرة
الفاجرة . ولكن الدنيا مع الواقف يا ابني .

الخلاصة ، بلا طول سيرة ، خرجنا من بيت الشيخ وامي
مريضة . ما وجدنا في الضيعة كلها غرفة نسكنها . عشنا اكثر
من شهرين تحت الخيمة في البرية . اهل الضيعة خافوا من الشيخة
اذا تعاملوا معنا . الشيخ مات ، وصار همهم خاطر الشيخة .
العامّة عمي يا ابني . عشنا تحت الخيمة شهرين ، وكانت امي كل
يوم تتأخر عن يوم . لا طبيب ولا دواء ، ولا نقطة حليب .
ماتت امي بعد شهرين ، يا حرام كيف ماتت . راحت وعيناها
معلقتان بي ، بالكاد رضي الخوري يصلّي عليها . يعني الخوري
احسن من غيره ؟ يا ضياع حرمة الثوب الذي يلبسه خوري
مثله . الله يسامحني على الكفر .

ومسحت العجوز دموعه في عينها واسترسلت في الحديث :

— بعد موت امي ، ما عاد ابي يقدر يسكن بالضيعة . حملني
وجئنا الى المدينة ، وصار يشتغل بالعتالة . ما مضى كم شهر حتى
مات هو ايضاً : بقيت يتيمة الاب والام . اشتغلت خادمة عند
ناس من الكبار . ثم اتى ابن حلال وتزوجني . ولكن بعد
سنة ، صار ابن الحلال ابن حرام . كل يوم كان يـدقني قتلة
شكل . وبعد هالعذاب تركني وسافر الى اميركا . ومن تلك
الايام الى اليوم ، ما عدت عرفت عنه خبر . اميركا بالوعة يا

ابني . وبلا طول سيرة ، صار لي ثلاثين سنة بها الحالة . اشتغل الليل والنهار ، لاحصل على لقمة الخبز . عائشة بها لغرفة . اصحابها ناس اوادم . الله يكثر من امثالهم .

وشعرت العجوز انها اطالت الحديث عن نفسها وعن ماضيها ، فاستوت في جلستها وقالت وهي تبتم : —

نحن العجائز ليس عندنا الا الماضي نتكلم عنه . الماضي كانت له حسنات وكانت له سيئات . كنا نعيش بالقلّة والقناعة والبركة . عيشة اليوم غير عيشة الماضي . العصر اليوم عصر شباب . الله يبارك بالشباب .

كان عبيد وعامر يصغيان لحديث العجوز عن الماضي ، الذي لم يكونا يعرفان عنه شيئاً .

وعندما سكنت العجوز قال عبيد :

يبدو ان الدنيا لم تتغير كثيراً عما كانت في ايامك الا في المظاهر فقط . كانت التعاسة من حظك وحظ الكادحين كلهم . وهي كذلك الآن ، مع الفرق ان بشاعة اليوم يغطونها بالتمويه والرياء والنفاق . كان بالماضي شيخ وشيخة . اليوم ، الف شيخ والف شيخة . بالماضي كانت العيشة بسيطة ، وكان اكثر الناس بسطاء . اليوم تفتحت الناس ، وما عادت تنفع حيل المشايخ وغير المشايخ . شباب اليوم ليسوا مثل شباب الماضي . والشباب يا عجوزتي اكبر قوة . كنتم بالماضي تعيشون بالقلّة والذل ، وكنتم تكبسون القيقح على الدم . اليوم دم الشباب فائر ، ولا يحتمل القيقح ويسكت . طول الله عمرك يا عجوزتي الطيبة ، لكي تري

بعينيك كيف ستقلب الدنيا . من سيقلمها ؟ نحن الشباب .
الشباب الفقراء . نحن . نحن .
وقالت العجوز :

— الله يحفظ الشباب من كل مكروه . ليتني اعيش ، لتقرّ عيني
بكم ، واموت مجبورة الحاطر ، وارى الدنيا تغيرت . ولكن
قدامكم طريق طويلة وصعبة يا حبيبي . لان العالم شرير ،
والحكام اشرار ، والقوة معهم . مالنا ولهذا الآن . طوّلت
عليكم الحديث ، والوقت صار نصف الليل . يجب ان تناما ،
لكي تغدوا على الشغل . الله معكم وتصبحون على خير .
كانت ساعة برج الكنيسة المجاورة ، تعلن نصف الليل ،
عندما نهضت العجوز وغادرت الفتين الى الشقة الثانية من
الغرفة . وغطّ عبيد وعامر في نوم عميق .

٤

كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق لمهرجان العيد
الكبير . وكانت الاسواق تعج بمشتري الحلل الجديدة والشموع
والهدايا التي يتبادلها الناس في مواسم الاعياد . وكانت المجموع
تتقاطر على المعابد ، منها المتبرك ، ومنها المتفرج . وكان الناس
في عطلة رسمية عن العمل ، الا من كان منهم يجد في مواسم
الاعياد ، موسماً لبيع البضائع ، او لبيع البركات . وكان باعة
هذين الصنفين ، على اكثر ما يكون من الغبطة والابتهاج .
ووافق عبيد وعامر في صباح العيد على دقّ الاجراس ودوي
الرصاص . وقدمت عليهما العجوز ، وكانت ترتدي تنورة عرسها

الحريرية ، وباركت لهما بالعيد ، وقالت لهما .

— هيا نذهب معاً الى الكنيسة . ان الجماهير ملأت الساحات
ولن نحصل على مكان اذا تأخرنا . اليوم الشغل حرام .
وقال لهما عبيد :

— انا ليس عندي عيد يا عجوزتي . الاعياد ليست لنا نحن
الكادحين . عليّ ان اذهب الى عملي في بيع الجرائد ويجب ان
نعيش قبل ان نعيّد . ولكن يحسن بك يا عامر ، ان تذهب مع
العمة مريم في هذه السهرة ، ما دامت الورشة التي تشتغل فيها واقفة
اليوم بسبب العيد . وسأل عبيد العجوز : «قولي لي بالله يا عمتي الطيبة
لماذا يطلقون الرصاص بهذا المقدار ؟ قد افهم معنى دقّ الاجراس ،
ولكن ما هو المغزى لهذه المعركة الرصاصية ؟ »
وضحكت العجوز وقالت :

— هذه تقاليد يا عبيد . النصارى فرحون بقيامة المسيح ،
وفي فرحهم ، يقوضون ابتهاجاً . هكذا تعودنا من مئة سنة
واكثر . تغيير العادات صعب . الاسلام ايضاً يعملون نفس
الشيء في اعيادهم . هل نسيت ما عملوه في عيد المولد ؟ انهم
حرقوا الارض بالمشاعل ولعلعة الرصاص ، واستشهد منهم
عشرات من المؤمنين ، وجرح اكثر من خمسمائة انسان . الناس
تنتظر هذه المواسم ، لكي تفرح وتفرج عن كربها . ماذا
يحدث بالدنيا ، اذا كان للجماهير يوم فرح في السنة ، وهي تكدح
وتتعذب وتجوع ، كل ايام السنة ؟ مثلاً عملوا يجب ان نعمل
نحن ، فلا يجوز ان يكون صيف وشتاء على سطح واحد . اننا

متساوون في الحقوق او لنا مثلما لهم . كل المؤمنين هكذا ، اذا كانوا مسلمين او نصارى . يحق للناس ان يفرحوا ولو يوماً واحداً بالسنة .

وهمهم عبيد قائلوا :

— ويبدو اننا متساوون بالجهل ايضاً . حرام عليك يا عجوزتي ان تسمي الموت برصاص العيد استشهاده ، بل سمّه انتحاراً عن جهل وقلة عقل . هؤلاء استشهدوا ؟ ومن اجل من ، وفي سبيل اية عقيدة ، او اي وطن ؟ ان الذين قتلوا من رصاص العيد مجرمون بحق انفسهم ، والمجرم اكثر منهم هي الحكومة التي تسمح بهذه المعارك الهوجاء ، وتبيع دماء الشعب في افراحه وتسهم في تجهيله ، لكي لا يعرف كيف يفرح وكيف يحزن . اما المساواة التي تتحدثين عنها ، يا عجوزتي الطيبة ، فبحبذا لو يكون لها شكل اكثر وعياً واقل غباوة .

واجابت العجوز ، وهي تضحك من كلام عبيد :

— هكذا خلقنا ، وهكذا ربينا . هل تريد يا عبيد ان تغير

وجه الارض ؟

وقال عبيد بنزق :

— وجه الارض هو هو ، ولا يتغير . ولكن ما يجب تغييره ،

ولا بد ان يتغير ، فهو عقلية البشر . خذي عامر معك ، فليس عنده ما يعمل اليوم . ان عامر بحاجة اكثر مني للترويح عن نفسه . قم يا عامر واذهب مع عمّتنا مريم .

وابى عامر الذهاب الى العيد وقال :

- ليس لي رغبة في الذهاب الى المهرجان . وعلى كل حال ،
لا يليق ان اذهب بهذه الثياب الممزقة والعتيقة . اذهبي يا عمتي ،
وبعد رجوعك تخبرينا . اني اشعر بشيء من التعب ووجع
الرأس .

وانبرت العجوز للقول :

- وجع رأسك من كثرة الشغل والتعب ، وستشفى منه
متى حلت عليك بركة العيد . والمشوار في الهواء يفيدك . اما
ثيابك العتيقة فليس لها اي اهمية . نحن ذاهبون الى بيت الله ، والله
يقبل في بيته الفقراء والاغنياء ، وهو سبحانه تعالى ، لا ينظر الى
الثوب ، بل ينظر الى القلوب .

والحّ عبيد على عامر بمرافقة العجوز . وخلع عنه سترته ،
الاقل عتقاً وقذارة من سترة عامر ، وألبسها لرفيقه ، متمنياً لهما
وقتاً سعيداً .

ومشى الاثنان صوب الساحة ، المكتظة بالخلق ، كأنه يوم
الحشر . وكان رجال الشرطة مصطفىين على طول الشارع وفي
الساحات ، بانتظار الموكب المهيّب .

واطلّ الموكب من بعيد ، وتضاعفت الطلقات النارية ،
واندفعت الحشود في جهة الموكب ، وكانت رجال الشرطة
يزعقون بمطليقي الرصاص ، دون ان يبالي باوامرهم احد . وظهر
في مقدمة الموكب ، الرئيس الاعلى [لجماعة المؤمنين ، بليحيته
الكثة البيضاء ، وصدرة المقوس تحت وقر الثمانين ، وهو متجلبب
حلمته الكهنوتية الارجوانية ، مشكوكاً عليها الاوسمة اللامعة ،

وعلى رأسه تاج من الوزن الثقيل ، من كثرة ما فيه من الحجارة
الكرمية . كان يحف به ليف من الكهنة ، وحملة الصلبان ،
والمشاعل ، والشموع ، والبيارق ، وهو يتهادى في مشيته ،
متوكئاً على عكاز من الذهب الخالص . وكان الرئيس يبارك
الجمهير ، بينما كانت هذه تنحني امامه ، وتهتف « مبارك الآتي
باسم الرب » .

ودخل السيد الاعلى الى الكنيسة ، وسط الهتافات والترايم
ولعلعة الرصاص . وتبعه الى الداخل ، من مسيح لهم بالدخول ،
من رجال رسميين ، واعيان ، وسيّدات مبرّجات ، نفوح
رائحة العطور من اردانهم .

وما لبث حتى وصل موكب ثانٍ من جمهرة الحكام ،
يتقدمهم رئيسهم ، محاطاً بشرذمة من الجند ، مدجّجين
بالاسلحة ، وعلى رأس كل منهم خوذة فولاذية . وكان الصراخ
يتصاعد من حناجر المهوسين . « يعيش . يعيش . يعيش » .
وتلاقى في داخل الكنيسة ، ممثل المسيح على الارض مع ممثل
الشعب . وتصافحت الدنيا مع الدين .

وعندما اقتربت العجوز من البوابة الكبيرة ، المرفوع فوقها
قوس النصر ، وهي بمسكة بيد عامر ، تصدّى لها رجل الشرطة ،
الواقف على حراسة الباب ، وامرها بالعودة من حيث أتت ،
لان في مثل هذا الظرف ، لا محل لها ، ولئن كان على شاكلتها .
فالقداس رسمي وجبّريّ ، وليس فيه متسع للسوقة . وعندما
احتجت العجوز ، بان بيت الله هو للفقراء كما هو للاغنياء ،

دفعها رجل الشرطة بكلمات يديه ، حتى كادت تهوي الى الارض ،
لولا كثرة الزحام . فاخذها عامر بيده واحاطها لكي لا تقع ،
وهو يسبّ رجل الشرطة ، ويلعن الساعة التي قبل فيها دعوتها ،
ونزل على الحاح رفيقه عبيد .

وانتهى القدّاس . وخرج الموكبان ، الروحي والزماني ،
على دويّ الرصاص ، وعلى هتافات المحتشدين : « المسيح قام »
« مبارك الآتي باسم الرب » و « يعيش . يعيش . يعيش . »

وكان محصول المهرجان ، قتيلين وبضعة جرحى ، صرعوا
برصاص العيد ، وفداء له ، وللذين قام من بين الاموات
« ووطيء الموت بالموت ، ليهب الحياة لجميع البشر » .

وعاد عامر والعجوز الى مسكنهما . وعندما عاد عبيد من
عمله ، اخبراه بما حدث . وفيما كانت العجوز تصف روعة المهرجان
وجلال موكب الرئيسين ، وابتهاج الجماهير ، وزغرودة النساء من
على السطوح ، وحماسة الشبان ، دون ان تترك شاردة او واردة ،
وفيما كان عامر ، يستشيط غيظاً بما جرى معه ومسع العجوز ،
ومن غلاظة الشرطة ، ووقوع القتلى والجرحى ، قال عبيد بتهكم :
- والقتلى والجرحى ، ما ذنبهم يا عجوزتي الصالحة وهل المسيح

لا يقوم الاّ على صوت الرصاص ؟ على علمي ان المسيح لم يكن
يلبس الارجوان ، ولم يتوّج بالذهب او الماس ، كهذا الرئيس
الشيخ ، الذي تصفينه ، والذي يمثل المسيح على الارض . لو
كان يمثل المسيح حقيقة ، لمشى حافي القدمين ، ولما قبل بمظاهر
الفخفة التي تتحدثين عنها . اما كان الاجدر بمن يدعون تمثيل

المسيح على الارض ، ان يفعلوا كما كان هو يفعل ؟ هل تعرفين قصة الفريسيين ؟ نعم ... انهم هؤلاء ما غيرهم ، الذين رأيتهم يتبخثون في هذا المهرجان ، والذين تسجدن امامهم ، وتقبلين ايديهم ، وتنفضيهم انت ، كما ينفضهم غيرك بالغرور . اتقولين انه كان يبارك الجماهير ؟ يا لبركة يعطيها لابس الدمقس والحريز ، والمترفه من اموال يجمعها من الفقراء والمساكين الجهلة . المسيح الذي يدعون بانهم يمثلوه ، ويتكلمون باسمه ، لم يضع على رأسه تاجاً من الذهب والجواهر ، بل حمل صليبه بنفسه ، وتوج باكليل من الشوك . المسيح نادى بالمحبة ، فمن هم الذين يحبهم هؤلاء ؟ لم يسمحوا لكما بالدخول الى الكنيسة ؟ ... الكنيسة هي ايضاً للاغنياء والعظماء ، كما هي المسارح والنوادي ؟ ... ترى كم كلف هذا المهرجان ، وكم هو ثمن تاج الرئيس وبدلته الارجوانية ؟ ... اقل من الف ليرة ؟ لربما الفين . كم جائع يُطعم بهذه المبالغ ؟ يا حرام الى اية حالة وصل الدين . بسبب هذه المظاهر والفخفات يكفر الناس بالاديان ، ولا يُلامون اذا كفروا .

وقال عامر :

— والله لو كان معي مسدس ، لما اطلقته في الهواء ، كهؤلاء المهووسين ، بل كنت اطلقته على من هم امكر من الفريسيين ، لكي يتخلص الدين من تدجيلهم ، ويتخلص الناس من شرهم . ورسمت العجوز شارة الصليب على وجهها ، وقطبت حاجبيها استنكاراً لما قاله عبيد وعامر ، وهي تقول « نجنا يا رب من

هذا الكفر في يوم العيد . لا تكفر يا ابني يا عامر ، ولا تجدف
على رجال الله . نحن ما علينا ان نحاسبهم ، بل علينا ان نسمع
تعاليمهم ولا نفعل افعالهم . ان محاسبتهم هي عند الله ، سبحانه
وتعالى . »

وانبرى عبيد وقال بكثير من الحدة :

— لا وربي ، بل يجب علينا نحن ان نحاسبهم ، ولا نترك
كل شيء على الله . يجب ان نحاسبهم ، وهم على الارض ، لانهم
يستغلون الارض ، ويتحكمون بالساكين عليها . وثقي يا عمي
المحوبة اننا سنحاسبهم حساباً عسيراً ، نحن بالذات . »

ما كان للعجوز السبعينية ان تقنع . سبعون سنة عاشتها ،
وهي متكلة على الرحمة تأتي من عند الله . وليس بمقدور عبيد ان
يقنعها بيوم واحد ، بغير ما رسخته فيها السنون الطويلة فارادت
ان تضع حداً لهذا الجدل الكفري ، وقالت لعبيد وعامر :

— دعنا من هذا الحديث الآن . كفانا كفراً . سأمحنا
يا الهي . واغفر لنا ذنوبنا ... ألا تريدان ان تتغديا ؟ »

واجتمع الثلاثة حول علفة العيد . صحن زيتون ، وصحن
برغل مطبوخ ، وثلاث بيضات مسلوقات ، مضافاً اليها رائحة
الطعام الفاتحة من مطبخ القصر المجاور .

كان عامر مطرق الرأس ، لا يتكلم الا قليلاً ، وكان الشحوب
بادياً على وجهه ، وكان جسمه يتقلص من البرد ، مع ان الوقت
ربيع ، وشمس ايار مشرقة وحارة . وخيل لعبيد ، ان رفيقه

عامر ، لا يزال تحت تأثير حوادث المهرجان .
وعرف عبيد عامراً ، نحيف البنية شحيح البصر ، سكوتاً ،
يتكلف الانسراح احياناً ، ولكنه كثير الهواجس والقلق .
وكان عبيد يحار في امر هذا الرفيق العزيز ، ويود لو استطاع ،
ان يسرّي عنه ، ويدخل الراحة الى نفسه . كان يودّ لو استطاع
ان يعمل شيئاً ما ، من اجل تقويته ، صحياً ومغنياً ، وكان
يلوح لعبيد ان هزال رفيقه ، قد يكون مسبباً عن علة ما ورثها
عن أبويه ، اللذين لم يعرفهما عبيد ولا عامر نفسه .

ومنذ الوقت الذي عاد فيه عبيد من قرية عفنيق ، وعرف
ما عرفه من اهلها عن ابويه ، كان دوماً يقول في ذات نفسه
بكثير من الاعتبار والتفاخر : « يجب عليّ ان اكون جديراً
ببنوتي لوالديّ . اهل عفنيق حدثوني كثيراً عن امي ، التي
احبوها لفضيلتها وماتت بينهم ، لانها كانت امرأة شريفة . اما
ابي ، فلا شك انه كان شريفاً هو ايضاً ، كما كان رجل عمل ،
وكبير النفس والقلب . لو لم يكن كذلك ، لما كان ناضل مع
من كانوا يناضلون ، من اجل بلاده ، ولما كان تعرّض للموت
شنعاً . فالسلطات الحاكمة ، كانت دائماً ، ولا تزال ، لا
تحب الوطنيين المناضلين ، بل كانت تحشاهم وتضطهدهم ، وتسخر
قوانينها لمحاكمتهم والقضاء عليهم . هذا ما نراه باعيننا اليوم ،
فكيف كان يوم كانت بلادنا محتلة من الاجانب المغتصبين ؟
من يدري اذا لم يكن والدي اعدم بسبب قوة شكيمته وصلابة
مراسه ؟ لا شك انه كان شجاعاً ومقداماً ومناضلاً . ان اعدامه

من قبل السلطات المستبدّة ، دليل على انه كان كذلك . ان
النتائج تُفصّح عن اسبابها . ربما كان ابي عاملاً ، وعى الغبن الواقع
على العمال وثار على مستثمريهم . ربما كان فلاحاً ، لم يكن رأسه
للاقطاعين . ربما كان طالباً ، حرّمه مجتمعه من التعلّم ، او
تمردّ على السياسة التعليميّة ، التي كان يوحى بها المستعمرون ،
وتخضع لها السلطة المحليّة ، خنق الروح الوطنية في النشء . ربما
كان شيئاً من هذا ، ولكنه بكل تأكيد ، لم يكن قاتلاً ولا
سارقاً ، ولا خسيساً ، بل كان وطنياً شريفاً . من اجل هذا
اعدموه ، ومن اجل هذا ، يضطهدون من يمشي في طريقه . لقد
اورثني والدي الفقر والحُرمان . هذا لا يعيبها ولا يعينني . ان
الفقر والحُرمان والظلم ، لا يقضي عليهم القضاء الاخير ، الا
كفاحنا نحن ، الفقراء والمحرومين والمظلومين . هذه الآفات لا
تزول من تلقاء نفسها ، ولا تزول بالمواعظ والصلاة الى الله .
وليس طبعياً ان يزيلها من كانوا هم بالذات ، مسببها ومستغليها ،
سواءً اكانوا حكماً ، ام اقطاعيين ، ام مستعمرين ، ام عملاء
المستعمرين . ما كان اكبر قلبك يا ابي ، وما كان اشرف
نفسك يا امي . لقد يتّمني الطغيان من يوم ولدت ، وساحارب
الطغيان الى يوم اموت » .

وحانت التفاتة من عبيد نحو عامر . ورآه مستلقياً على وسادة
مهترئة ، وهو يتملّل ، كأن فيه وجعاً ما . فأتته العجوز بكوب
ماء ، فيه نقطتان من ماء الزهر ، وغطّته بغطاء من الخيش
المهلّهل ، وقال لها عبيد :

- اني هلع يا عمتي على عامر . انه نحيف البنية وشحيح البصر .
وهو يتعب من الشغل الذي يشتغل به . واخشى عليه من هذا
الانهك المضي . عندما كنا في دار اليتام كان يمرض كل مدة
بعد مدة ، وكان الطبيب يعطيه دواء . كل عمره عايش على
الدواء ، لا اعلم اذا كان فيه علّة من ابويه . هو مثلي لا يعرف
اباه ولا امّه . انا عرفت شيئاً عن ابي وامي ولكن عامر لا يعرف
عن والديه ايما شيء . ليتنا نستطيع ان نأخذه لطبيب . ثم مدّ عبيد
يده على جبهة عامر وقال للعجوز . ضع يديك عليه ، انه محموم .
اجابت العجوز .

ما عليه شرّ يا ابني يا عبيد . الله لا يقطع بخائفيه . لندعه ينام
قائلاً ، وقد يقوم غداً بخير . وعلى كل حال ، لن اسمح له
بالذهاب الى الورشة غداً ، فلن نموت من الجوع . ان عامر عصبي
المزاج ، واظن ان ما حدث معنا اليوم ، هو سبب وعكته هذه ،
وغداً سيقوم بخير وسلامة ان شاء الله .

وانتحي عبيد والعجوز ، الزاوية المقابلة في الغرفة ، وقضيا
الليلة ساهرين على عامر ، وركعت العجوز وصلت من اجله ،
فما كان هو يسهو الى النوم ، بعد ان رسمت عليه العجوز شارة
الصليب .

٥

كان عبيد شديد القلق على رفيقه عامر ، وكان مضى على
حالته المرضية اسبوع كامل ، كان عامر يئن تحت وطأة الداء ،
دون ان تنفعه بشيء ، حبات الكينا التي كان يتلعه كل صباح ،

ولا المبردات التي تقدمها له العجوز مريم ، ولا شفاعاتها عند
القديسين . وكان عامر يهزل شيئاً فشيئاً ، بينما كانت حرارته
ترتفع باستمرار ، حتى وصلت الى فوق درجة الاربعين . وكان
عميد لا يكاد ينتهي من عمله في النهار ، حتى يسرع الى الغرفة
ويلتزم عامراً . وكانت العجوز لا تفارقه لحظة واحدة . كانت
تسليه احياناً بحكاياتها ، و احياناً تضع على رأسه مكمدات من
الماء والخل ، وتروّح له بخرقه من خرق الغرفة ، لكي تطرد
عنه جيش الذباب المحوّم عليه . وكان عامر يسهو حيناً ، ويهذي
حيناً آخر ، وكان يقول للعجوز بين الفينة والفينة : « لن اقوم من
هذه الوعكة يا عجوزتي الطيبة . اني اشعر بالنار تحرق جسمي ،
ورأسي يكاد ينفجر . كل يوم ارجع الى الورا . لقد مللت هذا
العذاب . ليتني اموت واتخلص مرة واحدة . انك تتعذبين من
اجلي يا امي ، واخشى ان يذهب عذابك سدى . اذا قيض لي
ان اسقى سأكون لك الابن الابن ، واذا قضى علي ، يكافئك
الله عني ولا تنسي عزيزك عامر ، واعطي بالك لحبيب القلب
عميد .

كان عامر يحاول الكلام ، عندما يصحو قليلاً من الغيبوبة ،
ثم لا يلبث حتى يبدأ بالهذيان ، فتنهك العجوز بوضع مكمدات
الماء والخل على رأسه ، وهي تقول له :
- بعيد الشر يا ولدي . الله معك . كم يوم وتشفى . مسألتك
بسيطة . هذا سعر على كل الناس . الله لا يقطع بخائفه . العذراء
تحرسك .

ثم تأتيه بفنجان حليب ، فيهمس عامر بكلمات متقطعة
« والله يا امي الحنون ، ليس عندي قابلية لشرب شيء ، حتى الماء
بالذات . »

ويأخذ جرعة من الحليب ، بناء على الحاح العجوز ، واكراماً
لها . ولا يكاد الحليب يصل الى معدته ، حتى يتقيأه ، ويراجعه
مثل الحُل والحامض .

وقال عبيد للعجوز ذات صباح :

— ان حالة عامر يا اماه ، لم تعد تحتمل الصبر . هل نتركه
يموت امام عيوننا ؟ اليس من سبيل لاستدعاء طبيب ؟ معي
ثلاث ليرات . اتظنين ان طبيباً يقبل بها ، ويعاين عامر ؟
واسرعت العجوز على التوّ الى عيادة الطبيب صادق .
واضطجعت معها بجانبها كريمة . كانت كريمة تسكن مع
وحيدها في نفس الحيّ . وكانت كلما اجتمعت مع مريم ، تخبرها
عن هذا الطبيب ، وتشيد بمهارته وعطفه على الفقراء والمساكين .
واخبرتها كيف انه عالج وحيدها السنة الماضية عندما اصابه ما
يصيب عامر بالتمام ، ولم يتقاض منها شيئاً على انعابه . كانت
كريمة طوال الطريق الى عيادة الدكتور صادق ، لا تنفك عن
الدعاء له ، وتطلب له من صميم قلبها التوفيق ، فوق ما هو موفق ،
وتدعو لولاده بالعمر الطويل . وكانت مريم تردّد مع كريمة
« الله لا يحرمانا من اولاد الحلال »

ولم تخطيء كريمة بما قالته لمريم عن طبيبها صادق . وبادر
هذا فوراً الى حمل حقيبتها ، وأبت مريم الا ان تأخذها منه

وتحملها هي . وهذا اقل ما تستطيع ان تعمله لتظهر شكرها للطبيب .

وعاين الدكتور صادق عامراً ، ودقق في الفحص ، ووزن حرارة المريض ، وسأل عن سير الحرارة من يوم مرض . وكان عبيد والعجوز ينظران الى كل حركة تبدر من الطبيب ، لعلهما يستشفان منها ، ما يدخل عليهما شيئاً من الطمأنينة .
وعندما انهى الطبيب المعاينة ، تطلع الى عبيد والعجوز ، وبدأت عليه دلائل الاهتمام ، وقال لهما :

— تيفوئيد . يجب نقل المريض الى المستشفى في الحال . لا يجوز معالجته في هذه الغرفة الرطبة . انه بأمرس الحاجة الى الاهتمام الجدي ، اذا اردنا ان نبعد عنه خطر الموت . ليتك يا سيدي استدعيتني قبل الآن ، وقبل ان تحصل له مشاركات في صدره . ان الحالة صعبة ، ولكنها غير معدومة الامل .

وصفق عبيد والعجوز من كلام الطبيب ، اذ ما دار في خلد هما ، انهما سيفاجآن بمثل هذه المفاجأة . وكيف لهما ان يقوما بتكاليف المستشفى ، وكيف يحملان مريضها ، وهو لا يستطيع حراكاً .

ولاحظ الطبيب ارتباك عبيد والعجوز ، واشفق على المريض ، وتطوَّع لنقله في سيارته الخاصة ، وتدبير الامر مع المستشفى بنفسه .

ونقل عامر الى مستشفى الامراض السارية ، ووضع في الغرفة العمومية في السرير رقم ٢١ ، وعاد عبيد والعجوز من المستشفى ،

كأن على رأسيهما الطير .

وكانت العجوز مريم تغدو باكراً في كل صباح الى المستشفى
لتسأل عن عامر ، بعد ان تكون مرّت على الكنيسة ، واخذت
معها قطعة من القطن المبلول بالزيت المقدس ، من القنديل
المعلق امام ايقونة العذراء ، فتعطيها للممرضة ، وتوصيها بان
تسمح بها جبين عامر .

وكان عبيد ، هو ايضاً ، يذهب الى المستشفى ، بعد انجاز
عمله ، ويجلس في الغرفة المجاورة للمدخل ، ويتسقط اخبار عامر ،
اذ لم يكن يسمح لذوي المرضى الفقراء المجانين ، ان يدخلوا الى
غرف مرضاهم ، غير مرة واحدة في الاسبوع ، بعد ظهر كل يوم
خميس . ولم يكن عبيد يعود الى مسكنه ، الا في هزيع متأخر
من الليل .

ويوم جاء موعد الزيارة ، وأذن لعبيد ان يدخل على رفيقه
عامر ، خمس دقائق فقط ، صُعق من حالة المريض ، وكاد يسقط
الى الارض ، لو لم تبادر الممرضة الى مساعدته على الخروج من
الغرفة . كانت حرارة عامر إحدى واربعين ، وكان يهذي دونما
وعي ، وما عرف عبيداً ، مع انه كان يشخص اليه بعينين
جامدتين .

وعندما صحا عبيد من ذهوله ، سأل الممرضة ، عما يقوله
الاطباء عن عامر . واجابت الممرضة :

— ان حالته حرجة جداً . ليس المخرج في الحالة هو التيفوئيد
فقط ، بل هو ايضاً المشاركات الرئوية . اننا نحقنه بالبنسلين

كل ثلاث ساعات . والمخرج اكثر واكثر ، هذا الاسهال اللعين الذي لا يريد ان يتوقف .

واراد عبيد ان يستطلع من اختبارات الممرضة ، عما اذا كان هناك ايما امل بالشفاء . كان صوته يتهدج من تأثير ما رآه في عامر . وكانت صورته المرعبة لا تغيب من امام عينيه ، وقال للممرضة :

— اصدقيني الخبر يا ملاك الرحمة ، ماذا يقول الاطباء ؟ هل هناك امل ؟ هل رأيت مرضى مثل عامر ، شفوا ؟ هل هناك ما يستطيع ان اعمله انا ؟ لا ، انا لست اخاه . انا اقرب له من اخيه . عامر انا ، وانا عامر . لا اريد ان يموت عامر . قولي انه لن يموت .

ودمعت عين الممرضة ، وربت على كتف عبيد ، وحاولت تهدئته ما امكن ، وقالت له :

— لم يضع الامل بشفاء عامر . كثيرون يصلون الى حالته ويشفون . ثمانون بالمائة يشفون بدون دواء . العناية وحدها تكفي . وهذه لا تنقص في هذا المستشفى . في الماضي كان خطر التيفوئيد اكثر مما هو اليوم بكثير . مع اكتشاف « الكلوروميسيتين » خفت كثيراً حوادث الموت . ولكن ... وقال عبيد بكثير من الحماسة والانفعال :

— ولكن ماذا ، يا أخت الملائكة ؟ ... قولي بالله عليك . وكشفت الممرضة عن ابتسامة صفراء ، وبدأت عليها علائم التألم وقالت :

— المصيبة ان الكلوروميسيتين دواء جديد وغال جداً . وليس بمقدور الفقراء ان يشتروه ، كما انه ليس بإمكان المستشفى نفسه ان يشتريه من ميزانيته . عندنا هنا خمسون مريضاً مجانياً بالتيفوئيد . لاهم يقدر ان يبتاعوا هذا الدواء ، ولا المستشفى يقدر ايضاً . ان مستشفانا ، ليس عنده دخل ، ما يتبرع له به بعض المحسنين . وهذا لا يكاد يكفي لايواء المرضى ، ومعالجتهم بالطرق الممكنة التي كنا نعالجهم بها بالماضي . المرضى الاغنياء يشترون الكلوروميسيتين من مالهم . تصور لو كنا نريد ان نشترى لخمسين مريضاً من الفقراء ، الذين نعالجهم بالجان . كل المستشفيات ، حتى الخصوصية التي تتقاضى اجوراً محترمة ، تلزم اهل المريض بتدبير هذا الدواء . الكلوروميسيتين اكتشاف جديد ، من بضعة أشهر فقط . من اجل ذلك قلما يوجد في هذه البلاد ، والموجود سعره نار . لا بد وان يرخّص مع الايام عندما يكثر المستورد وتبدأ المزاحمة بين التجار ، كما كان الشأن مع غيره من الادوية ، مثل البنسلين مثلاً . وعلى كل يا صديقي ، فنحن لسنا يائسين من شفاء عامر .

ولاحث على وجه عبيد ابتسامة مريّة وقال :

— اذن كان على التيفوئيد ان تؤجل زيارتها لعامر ، لئلا يكون رخص هذا الدواء . ولا بأس اذا مات في هذه الفترة المرضى الفقراء . قولي لي يا آنسة ، اذا كان هناك أمل بشفاء عامر ، متى اعطي الدواء هذا ، على الرغم من حالته المتأخرة . وكم تظنين انه يكلف ؟

وقالت الممرضة :

- بالطبع يزداد عندئذ الأمل بشفائه . اما ثمة ، فلا اعلم بالضبط . تجار الادوية اخبر مني بذلك . على ان ما اظنه ، ان من الزجاجة الواحدة ، لا يقلّ عن المئة ليرة .
- وكم زجاجة يلزم ؟

- نبدأ بواحدة ، وهي تكفي لمعالجة اربعة ايام ، من بعدها يحكم اذا ما كان يلزم غيرها .

وسمعت الممرضة صوت الجرس يناديا ، فاستأذنت في الذهاب الى واجباتها . وغادر عبيد المستشفى ، وهو يقول في ذات نفسه : « يجب ان احصل على الكلوروميسيتين كيفما كان الامر . سأسرق . سأقتل . ولن اعفّ عن ايا عمل ، اذا كان شفاء عامر متوقفاً على هذا الدواء العجيب . اني تجاه امرين لا ثالث لهما : اما ان اترك عامر يموت ، او اخلق له الكلوروميسيتين . ليس عندي وقت للتفكير بايما شيء آخر . عامر يجب الا يموت . اذا تركته يموت ، وانا عارف اني اقدر انجيه بمئة ليرة ، فجزيمتي عندئذ تكون افطع من ايا جريمة ارتكبتها للحصول على هذه القيمة . ولتذهب قوانين الاخلاقيين الكذبة الى الشيطان .

وعاد عبيد الى غرفته ، وهو لا يفكر الا بالكلوروميسيتين وبالمئة ليرة ، وكيفية الحصول عليها ، وباسرع ما يكون من الوقت ، قبل فوات الاوان .

وكانت العجوز مريم تنتظر عودة عبيد في الزاوب امام الغرفة . وقد اوجست شراً من تأخره الى هذه الساعة ، وخشيت

ان تكون وقعت الفاجعة بعامر . فما ان ابصرته قادماً من بعيد
حتى صاحت به :

— كيف عامر ؟ .

— على حاله .

واعاد عليها عبيد ما قالته له الممرضة عن الدواء العجيب .
فلطمت على وجهها وقالت :

— يا لتعثير الفقراء . هكذا يجب ان يموتوا ، ما دام للصحة
هذا الثمن الباهظ ، وما دامت حياتهم بخسة بهذا المقدار .
وبكت العجوز . وقال عبيد :

— لا بدّ لي ان اخلق الكلوروميستين خلقاً .

وقالت العجوز :

— الكلام سهل يا ابني . والمئة ليرة ليست حبتين . على كل
ليفعل الله ما يشاء . من له عمر لا تقتله شدّة . يجب ان تأخذ
لنفسك شيئاً من الراحة ، ولعلّ الصباح يأتينا بالفرج .
وقال عبيد :

— لا يا اماء . بل عليّ مشوار . يجب ان اذهب ، ثم اعود .
واسرع عبيد في مغادرة الغرفة ، وبقيت العجوز حائرة بما
يجول في خاطر هذا الفتى العجيب .

ومشى عبيد الى مغامرته ، وكان يحتدم بالغيظ على هذا
الواقع الفاسد والنتن . واعتزم تحديده ، ولو تعرّض لاشع
المخاطرات .

لم يكن عند عبید خطة مدبرة . كل ما كان يحول في فكره هذه المئة ليرة الملعونة ، التي بدونها سيموت عامر . وكانت الافكار تتزاحم في رأسه ، بينما كان سائراً على غير هدى . اتكون حياة الانسان بهذا الرخص ؟ انه يعرف اناساً يبذرون المائة ليرة على قدح ويسكي ، او على دقائق يقضونها مع غانية . لهذا الحد تبخس قيمة الانسان عند بعض الناس .

كان عبید يستعرض في مخيلته ما شاهده بالأمس ، عندما دخل الى نادي « الكهامة » ، لبيع الصحف . كان الراقصون والمتنادمون ، يكرعون الشبانيا ، كما يكرعون الماء الزلال ، وكانت الغواني تتسارع الى احضان الشبان المعشاقين والمنافقين المستهترين . وكانت الليرات تتناثر مثل ورق الخريف . ماذا لو وصلت الى يده رقعة واحدة من رقعات المئة ليرة المتناثرة ، فيشتري بها الدواء السحري ، ويشترى معه حياة عامر .. ولكن من يكون عامر ، عند رواد النادي المجانين ؟ يتيم من جملة اليتام ، الذين يقذفهم الشؤم الى هذه الدنيا كل يوم بل كل ساعة . هل صحيح ان كل احدٍ من الناس ، له الحق المطلق ان يبذر امواله على كيفه ؟ .. قد يفهم ، ان يعيش الانسان من امواله ، ويترفه بها ، اذا كانت امواله من تحصيل يده او دماغه . ولكن الاموال التي يهدرها شبان النادي ، اكثرها ، ان لم تكن كلها ، اموال موروثة او مسروقة وغير متعوب بتحصيلها والمال الموروث كالمال المسروق . كل مال لا يحصله صاحبه بتعبه سرقة . التجارة الحرّة ، والربح الحرّ ، والاحتكار الحرّ ،

سرقة . حرية السرقة ، تبيحها القوانين للتاجر ، ليميع الشغيل كيلو الخبز بمقدار ما يجنيه الشغيل كل النهار بعرق جبينه ، وتبيحها ايضاً لمن يحرم الفقير من الدواء الشافي عندما يمرض ويموت . هذا الذي يسمونه العدل بالقانون ، ما ابعده عن العدل الانساني . هذا العدل الكذاب ، وهذه الحرية المجرمة ، يجب ان يُقضى عليهما ، وعلى الذين يشرعنونهما ، وعلى الذين يحافظون عليهما .

وافاق عبيد من افكاره ليجد نفسه في ضاحية مقفرة في آخر المدينة . وابصر من بعيد سيّارة فخمة واقفة الى جانب الطريق ، ولمح شخصين ، رجلاً وامرأة ، ينزلان من السيارة ، وينتحيان بقعة منفردة بين الصخور . وكان كلما اقترب صوبهما ، تزداد دقات قلبه . وكان يتساءل في نفسه ، اذا ما كانت دقت ساعة المغامرة . كان المكان خالياً الا من هذين الشخصين . وبدا لعبيد انهما عاشقان ، اختارا هذه الناحية المهجورة ، هرباً من اعين الرقباء . من يعلم اذا لم يكن الرجل من ابطال المغامرات الغرامية ، واذا لم تكن المرأة ، من بائعات اللذة ، البيتيات الخائئات . لو لم يكونا كذلك ، لما اختارا هذا المكان الموحش ، ولو لم يكن في الامر ما يشين ، ما كان لهما ان يتسللا الى هنا ، في هذه الليلة الموحشة .

وخيل لعبيد ، انه عرف الرجل من رواد نادي الكهامة ، الذي يذهب اليه كل يوم ليميع الصحف ، ولكن المرأة ليست من بنات النادي . يبدو من هيئتها . فهي كثيرة الحذر ، وتهلع

كلما سمعت صوتاً ، او احسّت بخربشة . لا شك انها سارقاً
لذة . اذن لا بدّ وان يكونا من الجبناء . هكذا قال عبيد في
ذات نفسه .

واسرّت لعبيد نفسه « هذا صيد سهل ولو لم تكن من مهرة
الصيادين » .

وحزم عبيد امره ، واطبق من الراء على العاشقين السارقين .
وزعقت المرأة كمن اصابه مسّ . وتصنّع الرجل الشجاعة ، التي
ما لبثت حتى انقلبت الى خسة وجبن ، لدن اول زعقة زعقها به
عبيد . وظهر الفتى ، بمظهر المارد الجبار ، امام هذين الطريدين ،
وصاح بهما عبيد :

— لا تخشيا مني بأساً . اني لا اضمر لكما ايّما شر ، اذا كنتما
لا تريدانه مني . لا يهمني ابدأ ان اعرف من انتما . لست سارقاً
انا ، ولا مجرمأ ، ولا قاطع طرق . على ان لي حاجة ملحة الى
مبلغ من المال ، خرجت للحصول عليه ، ديناً او اسعافاً ، او ايما شيء
آخر . ان عندي رفيقأ ، احبه اكثر من نفسي ، وهو يصارع
الموت ، والموت يصارعه ، وحياته وموته ، رهن بمئة ليرة ،
لاشتري بها دواء له ، واشتري بهذا الدواء حياته . فاذا اعطيناني
اياها ، عطاء او سلفة ، لا تخشيا مني ايما شرّ .

وهزّ العاشق رأسه باستخفاف وقال لعبيد :

— هذه هي دوماً حجة من يتعاطي السلب .

وانتفض عبيد من الغيظ وقال للرجل :

— احذرک من التماذي بكلامٍ بشع كهذا . اني اؤكد لك

ان المئة ليرة ، التي انا بأمس الحاجة اليها ، ولست قادراً على ان احصل عليها ، هي لقضاء حاجة شريفة . ومن نكد الدنيا ، ان اضطر لأخذها ، من اناس مثلك . ولكن لا بد لي ان آخذها كيفما كان الامر .

وحملق عبيد بعينه الاثنتين ، ليوهم الطريدين بانه جادّ فيما يقول . واستحوذ على الطريدين جبن الاغنياء . وعلا الاصفرار وجهيهما . وعندما رأت المرأة تردّد خليلها عن الدفع ، ملتجئاً الى المساومة التي تعودها في السوق ، املاً بانقاص المبلغ المطلوب ، قذفته بشتيمة من جرابها العفن ، وقالت له :

— ادفع يا ابن الكلب . هل ترغب في تشنيع سمعة بنات الاوادم ، من اجل مئة ليرة ؟

واختطف عبيد الرقعة ، وهو يقول في ذات نفسه : « ليس عليّ ان احاسب الناس على ما يعملون . دع الموتى يدفنون موتاهم . المهم اني حصلت على مبتغاي . والمهم اكثر ان عامراً ميشفى . هل يعد عملي سرقة ؟ هل يعدّ الناس جريمة ؟ ليكن . سرقة السارق ، ليست عاراً ولا حراماً . النبي داود ، عندما جاع أكل خبز التقدمة . ماذا يصير اذا اقتنصت المئة ليرة ، بمن يسرقون اموال الناس ، ويتآعون بها لذة جنسيّة خسيصة ؟ اقتنصت المئة ليرة لاخلص بها حياة انسان ، وانسان شريف . اذا كان عملي هذا خرقاً للقانون ، فليتدبّر واضعو القوانين امرهم ، ويضعوا قوانينهم من اجل العدل الانساني ، وليس من اجل العدل الكذاب . لن اترك عامراً يموت ، من

اجل حرمة قوانين ، لا هي جديرة بالاحترام ، ولا واضعوها
المنافقون جديرون به . لا . لست انا سارقاً ولا مجرمًا . انما
هؤلاء هم السارقون والمجرمون . اذا كانت هذه المنة ليوة تنجني
عامراً من الموت ، فلتأخذ العفاريت كل القوانين . واذا عدّ عملي
هذا جريمة ، فلن انوء بوزرها . اذا كان عملي سرقة ، فماذا
تكون اعمال ناهبي اموال الناس بالجملة ، وماذا يكون القانون
الذي يحمي هؤلاء السارقين ؟ ساحاسب نفسي على هذا العمل بعد
ان يُشفى عامر ، ويوضع الحساب في ايدي محاسبين عادلين
وانسانيين . ومن الان الى ذلك الحين ، ليكن ما يكون .
وابصرت العجوز عبيداً مهرولاً ، وهو يلث من التعب ،
وانبرت تقول له :

— تكفيننا مصيبتنا بمرض عامر . اين غبت كل هالغيبه ؟
تسألني لماذا مانمت ؟ كيف تريد ان يأتيني النوم ، بعد ان رحت
مشهـارحت ، « لا شور ولا دستور ولا كلمة » . المشغول
فكره كيف ينام . الا يكفيني همّ عامر ؟ ياربي كنت مرتاحة
البال في عيشتي لوحدي . صار عندي الف همّ . مكتوب لي
العذاب في آخر حياتي . قل هل عرفت شيئاً عن عامر ؟
— لا . لا اعرف اكثر مما قلته لك بعد عودتي من المستشفى .
ولكن أبشري يا امي . ساحصل على الدواء العجيب .
ودهشت العجوز لهذه البشرى وقالت لعبيد :
— والمنة ليوة ؟
— هي معي . ها كها .

— ومن اين حصلت عليها يا شيطان ؟

— من الشيطان بالذات .

ولم تزد العجوز مريم . وبقي الاثنان يتسامران الى ما قبل الفجر بقليل ، اذ ان قلقهما على عامر طلق النوم من اعينهما . وكانت العجوز تلمح على محيا عبيد شيئاً من دلائل الارتياح . ولكن لا هي اخرجته بالاسئلة ، ولا هو رأى ميلاً في نفسه ، للتحدث عن مغامرته .

وبكر عبيد في الصباح . وغادر الغرفة مع العجوز . هي في زيارتها الصباحية الى الكنيسة ، ثم الى المستشفى ، وهو الى بائع الكلوروميسيتين .

وما كادت العجوز تصل الى المستشفى ، حتى وصل عبيد في اثرها . كان قابضاً بكلتا يديه على الدواء السحري ، وكان يلح في طلب الممرضة . وعندما رآها لوّح لها بعلبة الدواء . ولم يكن سرور الممرضة اقل من سرور عبيد وسألها عن عامر ، فاجابت : — كما كان بالامس . اننا بانتظار الطبيب ، وهو لن يلبث حتى يطلّ . هذه هي سيارته على ما اظن .

ودفع عبيد علبة الكلوروميسيتين الى الممرضة ، وألح عليها ان تسرع باعطاء عامر الدواء على الفور . ولما سألتها الممرضة ، وهي تكاد تجن من الفرح كيف تمكن من الحصول على الدواء ، قال لها :

— ما عليك ايتها الصديقة الطيبة . المهم انني حصلت عليه . ور كضت الممرضة ، لكي ترافق الطبيب في دورته الصباحية ،

ولم تنس العجوز مريم ان تناولها مصباح القطن المبلول بالزيت المقدس .

واخذت حالة عامر تميل الى التحسن يوماً عن يوم . وكانت عبيد والعجوز يعودان يومياً من المستشفى مزودين بالاخبار المطمئنة عن عامر . وبدأ الصفاء يعود الى جوّ الغرفة التي كان يسكنها عبيد والعجوز .

وفيما كانت العجوز مريم ، تتحدث الى عبيد ، في امسيات الاسبوع ، عن عجائب السيدة العذراء ، ومفعول الزيت المقدس في شفاء المرضى ، وتروي له حوادث الشفاء العجائبية التي كانت تسردها عليه ، كان عبيد يقرّها على ايمانها بسحر الزيت المقدس ، وهو يقول في ذات نفسه : « ليس لي ايما فائدة ، من زعزعة ايمان عجوزتنا الطيبة . ان ما ركزته عوامل التجهيل فيها ، طوال السنوات السبعين التي عاشتها . لن استطيع ازالته منها ، في الايام القليلة الباقية من حياتها . فلأدعها تقضي هذه الايام ، مرتاحة في جهلها ، من ايما قلق فكري ، قد يقرب ساعتها الاخيرة . المهم ان يزول الجهل من عقول ابناء الجيل الجديد الناشيء ، جيل المستقبل . هذا ما سأنذر حياتي من اجله . تبارك العلم ، الذي فتح الاعين ، واناثر البصائر ، واخرج الناس من ظلمات الجهل . يا لحقارة الملوك والامراء والحكام والزعماء ، امام عظمة العلم والعلماء ، ويا لنذالتهم عندما يسخرون العلم والعلماء ، لاغراضهم الذميمة ، جراً لمغنم خسيس ، او توطيداً لسلطان قهار وغشوم .

يالذاتهم ، عندما يتحكمون في مكتشفات العلم الانسانية ،
 من اجل اشباع جشعهم وشهواتهم الشريرة . هل يعتقد هؤلاء
 الانذال ، ان الذي اكتشف الكلوروميسيتين ، لم يرهق دماغه
 بهذا الاكتشاف العجيب ، الا من اجلهم فقط ؟ هل يزعم هؤلاء
 الانذال ، ان حياتهم اغلى من حياة عامر ، ومئات الآلاف من
 امثال عامر ؟ هل يزعمون ، ان مكتشفي الجرائم القتالة للحياة ،
 ومكتشفي الاسلحة الواقية منها ، ومكتشفي القوة العجيبة ،
 التي يسمونها الذرة ، هل يزعم هؤلاء الانذال ، ان هؤلاء
 الانسانيين كلهم ، هم عبيد عندهم ، يجندونهم عندما يريدون اباد
 حياة الانسان ، بينما هم في الاصل جنود في معركة انتصار الحياة
 على الموت . معاذ الله ان ينحط العلم الى هذه الدرجة ، ويفرق
 الناس ، الى ابناء ست وابناء جارية . يا للحقيقة ، التي يعمل اشرار
 الناس على اخفائها عن اعين البسطاء . يا لدنيا الناس ، كم هي بحاجة
 الى نضال اشراف الناس .

ومرت الايام . وكان عامر يتقدّم الى العافية يوماً عن يوم .
 وكان نهار الخميس . وأذن لعبيد والعجوز ان يدخلوا على عامر في
 المستشفى . واقترب عبيد من سرير رفيقه المحبوب . وجعل
 يقبله بشوق . وكان عامر يحاول ان يحدث رفيقه بعبارات
 متقطعة ، من كثرة التعب وشدة الضعف . ووقفت الممرضة
 تجاه هذا المنظر ، المؤلم والمفرح معاً ، دون ان تستطيع ان تحبس
 الدمع في عينيها . وكانت تجذب عبيد ، خشية ان يتأثر المريض

بهذا الموقف . ور كعت العجوز مريم امام السرير . وقبلت
ارض الغرفة ، شكراً لله . ومسحت بيدها جبين عامر بالقطنة
المبلولة بالزيت المقدس .

وعادت العجوز الى غرفتها متلهلة . ولم يرجع عبيد الى
الغرفة ، الا بعد ان ذهب الى الطبيب صادق ، وطمأنه عن عامر .
ولم يكن سرور الطبيب اقلّ من سرور عبيد ، وهنأه بالنتيجة
الناجحة ، التي لم يكن يأملها . وجعل يوصي عبيد بضرورة
الاعتناء بالمريض الناقه ، تجنباً لا يما نكسة ، هي من شرور حمى
التيفوئيد ، ووعدته بزيارته عندما يعود عامر الى البيت ، ويأخذ
على نفسه امر العناية به ، لعله يستطيع ان يعمل شيئاً ، لاعادة
الحركة الى رجليه ، اللتين شلها هذا المرض اللعين .
فقال له عبيد :

— لا يهمني ابداً ان يبقى عامر كسيحاً . المهم انه لم يمت .

كان الدكتور صادق ، يعلم من قصة حياة عبيد ورفيقه
عامر ، ما كانت تطلعه عليه العجوز مريم . كانت مريم تتردد
على الطبيب ، اثناء وجود عامر في المستشفى ، لكي تستفسر منه
عن حالة المريض ، وتخبره عما يقوله عنها اطباء المستشفى . وكان
صادق يزور عامر هناك ، ويشارك الاطباء رأيهم فيه . واحبّ
صادق عبيد لما لمس فيه من الذكاء والنخوة . واستبشر فيه خيراً .
كان صادق ، في اثناء اشتغاله بالطبابة مدة ربع قرن ، قد خبر ما
تقاسيه عامة الشعب من حياة البؤس والذلّ والشقاء ; وكان

يتألم من ميوعة شبّان العصر ، وانصرفهم عن الشؤون الاجتماعية العامة ، وتركهم هذه الشؤون ، لمن يشتغلون بها احترافاً ، ويعالجونها كما تقضي به مصالحهم الشخصية . ولطالما كان يثور على الظلم ، الذي تهدده قوانين المجتمع واوضاعه ، دون ان تعمل شيئاً ايجابياً لازالته . كان يشعر مع ابناء العامة الفقراء ، لانه هو نفسه ابتداء حياته فقيراً مثلهم . وما كانت تقوى عوامل الاكتفاء ، التي كفلها له عمله المهني طوال السنوات ، ان تحو من ذهنه ذكريات ماضيه ، لانه كان يراها كل يوم ، بحسّدة في العامة التي يختلط بها ، ويشار كها الشعور بآسيتها . هذا ما جعله يحب عبيد ، ويود ان يساعده ما استطاع ، لعل هذا الشاب النشيط ، يكون نواة لعمل ما يكون منه الخير ، لابناء الشعب المعذبين والمستذلين . لقد بدا للدكتور صادق ، انه وجد شاباً ، طالما كان يرجو ان يجد كثيرين مثله من شباب بلاده .

بعد ان شفي عامر من التيفوئيد ، قيل لعبيد ، ان بوسعه نقل الناقه الى البيت ، على ان يعامله معاملة الناقهين مدةً قد تمتد الى شهر او شهرين . وقال عبيد للممرضة « بل سنة او سنتين . تكفيني هذه النعمة ان عامراً لم يميت . الف الف شكر ، يا ملائكة الرحمة الحقيقيين . »

وانشغلت العجوز مريم في تهيئة الغرفة وتنظيفها ، يوم عودة عامر من المستشفى . وأعدّ له عبيد سريراً ، من الواح الخشب ، مرفوعة على أربع سحاخير . لقد قيل له ان التيفوئيد لا يؤمن

شرها ، حتى بعد الشفاء منها ، وعامر بحاجة الى العناية الزائدة
بعد هذا الداء الحثيث . وهذه العناية سيكفلها له عبيد ، مها
كلفه الامر .

وكانت الفرحة في اوجها ، ساعة وصل عامر من المستشفى ،
وحمله عبيد على ظهره من السيارة الى السرير في الغرفة . واطلقت
العجوز مريم زغرودة من صميم قلبها ، فرحاً بعودة عامر ، بينما
كانت تقبل الارض ، شكرياً لله ولستنا العذراء .

٦

كان عبيد يتردد بين وقت وآخر على المطابع التي تطبع
فيها الصحف ، لكي يستلم ما يعوزها منها ، او لكي يعطي حساباً
عمماً باعه في النهار . فاستهوته حرفة الطباعة ، ورأى فيها ما يشبع
رغائب نفسه ، التواقة الى العمل والى المزيد من المعرفة . ولقد طالما
وقف الى جانب العمال . وهو يتفرس في ايديهم ووجوههم
والبستهم الملوثة بالخبر الاحمر والاسود والازرق ، وينبسطهم على
مهارتهم في العمل . كان يعجب عندما يراهم يتناولون القطع
الرصاصية الصغيرة ، المختلفة الاشكال والاحجام ، بسرعة البرق
وبدون ايما تعسر ، ويصفونها صفوفاً صفوفاً ، مرتبة ومنمقة ،
ويضعونها تحت المكبس ، فيقذفها هذا ، صفحة مطبوعة ، تحمل
الى الناس اخبار العالم كله ، من اقاص الى اقاص ، وكان يطوف
في ارجاء المطبعة ، ويحدق بالكتب المرصوفة على رفوفها ، كان
بعضها مجلداً ، وبعضها برسم التجليد . كانت اسعد اوقات فراغه
هذه الساعات التي يقضيها ، وهو يشاهد كيف توزع كنوز المعرفة

من هذا المكان المحشور تحت الارض . كانت همدة الآلات الطابعة ، تشنف سمعه ، كما لو كانت سيمفونية موسيقية ، او لحناً من الحان عبد الوهاب او فريد الاطرش او فيروز . وكان عبيد يقول في ذات نفسه « ما اعظم هذه الآلة ، وما اشرف هذا العمل ، الذي لولاه لما ادرك البشر حقيقة الحياة ، ولما خرج الانسان من حالة البداوة والجهل ، ولما تيسر له استكشاف نواميس الطبيعة ، واستطلاع اسرارها والتحكم بها . »

كان عبيد على الرغم من صغر سنه ، ولم يكن تجاوز السابعة عشرة بعد ، شديد الميل للمطالعة والدروس . واذ لم يكن لديه مال يشتري به الكتب ، فقد اغراه العمل في الطباعة ، ووجد فيه ضالته المنشودة ، فضلاً عما يحصل عليه من زيادة الكسب ، مما يساعده على اعالة نفسه ، واعالة رفيقه عامر ، بعد ان خرج هذا كسيحاً من حمى التيفوئيد . وعندما قيل له ، ان صاحب المطبعة وافق على اخذه بين العمال ، وباجر يبلغ الثلاث ليرات باليوم ، استحوذت عليه نوبة من جنون الفرح ، وبداله ان السعادة بدأت تطل عليه ، وما عليه الا ان يتلقفها بكل ما لديه من امكانيات . وخيل لعبيد ، انه بهذه الوسيلة ، سيتمكن من ايفاء ما نذر له حياته ، وهو مصارعة الشؤم ، عدوه الالد ، الذي طالما ذكرته له مديرة الميتم ، العجوز المحدودة ، والذي حدثه عنه كاهن قرية عفتيق والقابلة التي قبلته الى الدنيا ، يتيماً من الاب والام .

وانتقل عبيد من بائع صحف الى عامل مطبعة . وكان اكثر

العمال مواظبة على الشغل ، وادقهم في مزاولته . كان القادم الاول في الصباح ، والمغادر الاخير في المساء . ولقد طالما تطوع من تلقاء نفسه الى ساعة متأخرة من الليل ، عندما كانت تقضي ظروف العمل . كان شغوفاً بمهنته الجديدة ، وكان يكبّ على إنجاز الاشغال ، دونما تدمر ، ولا مطالبة باجر زائد . كان يرى في مطالعته الكتب والصحف والمنشورات ، التي تخرج من المطبعة كسباً هو احوج اليه ، من قروش يحصل عليها ، زيادة على يوميته البالغة ثلاث ليرات . وكان صاحب المطبعة يحسد نفسه على عامل نشيط كهبيد ، يعطيه اكثر مما يأخذ منه .

ولم يلبث عبيد حتى اصبح العامل المفضل عند صاحب المطبعة فهو يشتغل اكثر من غيره ، ولا يتبرم بايما عمل ، وهو في نفس الوقت قانع بالاجر العادي . ولم يكن لعبيد الا مطلب واحد وهو ان يسمح له باخذ نسخة واحدة من كل كتاب ، او صحيفة او نشرة تخرج من المطبعة . كان يأخذ ما يسمح له به الى غرفته ويطالعه مع رفيقه الكسيح ، ويتزودان منه غذاء لعقليهما ، هو بنظره احوج لهما من غذاء الجسد . وما عثم حتى اصبح في حوزة الرفيقين ، مجموعة من المنشورات والمطبوعات ، اوسعها لها محلاً في خزانة ، صنعها عبيد من سحاحير الكاز ، التي كانت تصل الى يده .

ولم يكن اغتباط عامر بهذه المطبوعات ، يقل عن اغتباط عبيد بها . فقد وجد فيها المقعد الكسيح ، ما يسليّه عن قعوده المضني في الغرفة الموحشة ، ويلهيه عن ثروة عجوزه الطيبة ،

عندما يكون عبيد غائباً في الشغل . كان عامر يقرأ هذه المطبوعات بصوت عال ، لكي يحسن تفهّمها ، ولكي يمنع عن العجوز فرصة التحدث ، فيما لا كثير فائدة منه . ولم تلبث العجوز نفسها ، حتى صارت تغتبط هي ايضاً ، بما كان يقرأه عليها عامر . وكاد المسكن الحقيير ، يتحوّل الى غرفة قراءة وجدل ، لا سيّما عندما كان عبيد يدعوا نقرأ من رفاقه ، لقضاء الامسيات في الغرفة المتواضعة .

كان مدعوو عبيد يزدادون مع الايام ، وكانوا كلّهم من العمال والعاملات . وكان يأتي معهم احياناً من هم متعطّلون عن العمل . وكان الذين يشتغلون ، يحملون معهم ما يشترونه من الطعام بمحصول نهارهم ، ويجلس الرفاق الى علفّة اليوم ، حول بساط من الخيش ، تصفّ عليه العجوز مريم ، صحنون الزيتون ، والبطاطا المسلوقة ، والبندورة ، والبصل ، وما تيسر من فاكهة الموسم الرخيصة الثمن ، فيلتهمون عشاءهم بشهية ، يسعروها فيهم تعب النهار ، وحماسة الجدل والنقاش .

وكانت العجوز تجد لذة لا تفوقها لذة ، كلما رمقت بعينها العطوفتين ، هذا الشباب المتحمس المحبوب . وكانت تدور حولهم وتربّت على كتف كل منهم بيديها المخشوشنتين ، وترسم عليهم اشارة الصليب ، وتقول لهم « صحتين » فاذا انتهوا من الطعام ، بادرت الى رفع ما يتبقى من الزاد ، ونادراً ما كان يتبقى منه شيء ، ثم تذهب الى غسل الصحنون الفارغة بينما يكون الرفاق ،

مشغولين عنها بالجدل والنقاش والعريضة .

ولاحظت العجوز ، في احدى الامسيات ، ان احدهم حسن ، وهو اصغر الرفاق سنّاً ، يكتفي بالقدر القليل من الطعام — واحتست بان هذا الصغير خجلٌ من ان يتناول ما يشبعه ، ذلك لانه لم يحمل معه شيئاً طوال الاسبوع . كان حسن يشتغل في مصنع للسجاير تابع لشركة حصر الدخان ، لقاء نصف ليرة باليوم ، وهي اجرة لا بأس بها بنظر الشركة لولد عمره احدى عشرة سنة فقط ، وليس عنده كبير خبرة في الشغل . وكان مضى اسبوع على حسن ، لم يشتغل فيه ، بحجة ان لدى الشركة طلبات عمل كثيرة من فتيان وفتيات مثل حسن ، وعليها ان تشغل هؤلاء كلهم ، بالمناوبة الاسبوعية ، وهذا ما جعل شعور النقص والضعف ، يستحوذ على حسن الصغير والجميل ، تجاه رفاقه في الامسيات حاسباً نفسه عالة عليهم . كان حسن ، عندما يلحّ عليه احدهم بالأكل ينتحل الاعذار ، لكي يلهيه عنه ، ويقوم قبل كل احد ، متظاهراً بالاكتفاء ، ويجلس الى جانب فراش عامر ، ويفوص معه باحاديث مختلفة ومؤنسة . وكانت العجوز تحنو على حسن . ولطالما اجتزأت من حصتها ، وأرغمته على اكلها . وكان الرفاق عندما يرون تمنع حسن عن الاكل ، يهوتون عليه بقولهم « من يعلم ايها الرفيق ، فقد نتعطّل نحن عن العمل غداً ، وتعمل انت وتطعمنا . فلننش اذن عيشة الجماعة ، سراءً بسراء ، وضراءً بضراء . »

كانت اجتماعات « الشلّة » اكثر ما تكون في السهرات ،

بعد عودة افرادها من اشغالهم . كان منهم من يعمل في المطبعة مع عبيد ، ومن يشتغل في مصنع الدخان ، التابع لشركة الحصر الاجنبية ، ومن يشتغل خادماً في مطعم او مقهى ، ومن يبيع الصحف ، او العلكة الاميركية ، او يجرّ بسطة عليها زجاجات الكوكاكولا . كان بينهم من يكسب ليرة باليوم ، ومن يكسب ليرتين ، ومن لا يكسب اكثر من ربع ليرة . كانوا يغدون الى غرفة عبيد وعامر ، فرادى او اثنين اثنين ، بعضهم حفاة الاقدام ، وبعضهم مكشوفو الصدور ، وبعضهم من لم يلبس الصابون جسمه وثيابه منذ ايام واسابيع . كانت رائحة العرق ، المتصّبب من اجسامهم ، تملأ جوّ الغرفة ، ذات الجوّ المتعفن في الاصل . وكان بينهم فتاة ، هزيلة الجسم ، شاحبة اللون ، ذابلة العينين ، ومنتهضة البطن ، تبدو عليها علامات الهّم والحزن ، وقلّما كانت تفارق الدمعة عينيها . كانت الفتاة ، بعد ان يغادر الرفاق الغرفة ، تلتحي زاوية قرب الباب ، وتطوي رجليها على بطنها ، كما تفعل الكلاب الاليفة الوداعة ، فيخيّل للعجوز انها نائمة ، مع انها قلّما عرفت طعم الرقاد .

وكانت العجوز تسأل نفسها ، عما يكون من امر هذه الفتاة ، وعن علاقة عبيد بها . ولم تكن العجوز تتطرق الى سؤال عبيد عن امرها . فالعجوز تعرف عبيداً ، عميقاً في اسراره ، ولا يحبّ كثرة الاسئلة . لقد كتم عنها مغامرته ، عندما حصل على المئة ليرة ، التي ابتاع بها الكلورميسيتين لعامر ، وقد يكون امر هذه الفتاة اخرج من تلك المغامرة .

وكانت الايام تتلو الايام . . وكانت اجتماعات الشلة تتوالى
ليلياً . وكانت احاديثها تدور حول كل الموضوعات ، هزلاً
وجداً وعريضة . ولطالما علا صياح الشلة ، وشملت احاديثها اخبار
الدنيا كلها ، من شرقها الى غربها ، ومن شمالها الى جنوبها ، من
اخبار الحرب في الشرق الاقصى ، الى اخبار التفطيع الذي يجري
في تونس ومراكش وبلاد الماوماو ، وفي اقاصي البلدان
المستعمرة . كانت الشلة ، تتندّر فيما تذيعه من الاخبار عن
مباحثات هيئة الامم المتحدة ، ومهاترات اعضائها ، وتصبّ
اللغات على من يهينون حرب عالمية ثالثة ، كما تصب جام غضبها
وحقدّها ، على من يخضعون لهؤلاء ، من سياسيين البلاد وزعمائها
واقطاعيينها ، ولا تغفّ عن اتهمهم بالحيانة . على ان اكثر
احاديث الشلة ، كانت تدور حول ضعف المعيشة ، وتقاع البطالة ،
وغلاء اسعار الحاجيات ، وفساد الحكم ، وتقشي الفوضى .
كانت الحكومات ، الهدف الدائم للتجريح والسباب ، لانها بنظر
الشلة ، تستهتر بمصالح الشعب ، ولا تهتم إلا بمصالحها الخاصة ،
ومصالح الطبقات الفوقية ، وتستأسد في معاملتها الكادحين
والبسطاء والعمال والفلاحين ، بينما هي تجبن امام الزعماء واصحاب
الاعمال الكبيرة ، وتطلق مجال الاستشارة للشركات الاجنبية ،
وتحني رأسها امام الدول الاستعمارية الاجنبية ، وتطيع ممثليها طاعة
عمياء ، كما لو كانت تابعة لهم ، او وكيلة عنهم . كانت الشلة
تسبّ وتشكو وتعربد ، حتى اذا بلغ الرفاق درجة الحدة ،
واخذوا بزخ الشتام ، وخشي ان يدبّ بينهم الخصام ، فتسح

عامر كتاباً ، او صحيفة ، بما كان يعطيه اياه عبيد ، وجعل يقرأ
 عليهم خبراً او قصة ، عن جناية وقعت ، او خيانة زوجية حدثت
 او عن مهارة سارق سرق ولم يعتقل ، او عن ظهور مشعوذ
 جديد ، او يقرأ عليهم خطاباً القاه زعيم ، او مقالاً كتبه كاتب ،
 يحث فيه الناس على التؤدة والصبر والايمان بالغيب والاستسلام
 للاقدار . وكثيراً ما كان عامر يخفف من حدة الشلة ، بقراءة
 مغامرة بوليسية ، او قصة جنسية خلّاعية ، او حكاية خيالية ،
 تصرف اذهان الشلة عن واقعها المزري ، فيتغير الجو ، وترتفع
 اصوات الفقهة والتنكيت ، وتنتهي السهرة بمزيج من المرح
 والعريضة والسباب . وكان عبيد في الاجتماعات الاخيرة ، على
 غير عادته ، كثير التفكير والهجس ، وقليل الكلام ، لا يضحك
 ولا يهزل ، ولا يشترك مع الرفاق في العريضة . وكانت الفتاة ،
 المنفخة البطن ، تخلق الاعذار لكي تنزوي بعيداً عن الشلة .
 كانت احياناً تنصّع المرض ، وحياناً تشغل نفسها بقضاء حاجات
 عامر ، وغسل ثيابه الوسخة . كانت تخشى ان يلاحظها الرفاق تنفخ
 يوماً عن يوم ، وكانت تتجنب التحدث الى العجوز وجهاً لوجه .
 لقد بدأت تشعر ، ان مريم ترمقها بعين التساؤل والاستغراب
 والريبة . كانت لا تخشى رفاق الشلة ، كما كانت تخشى هذه العجوز
 التي عرّكتها الايام ، وعلمتها السنون مالم تعلمه لهؤلاء الشبان
 بعد . كان عبيد موضع سرها الوحيد ، واملها في الخروج من
 الضائقة التي هي فيها ، كانت كلما وجدت معه ، في غفلة عن
 الرقباء ، أطلقت لنفسها عنان التفجّع ، لما اصببت به . ولطالما

تمت على عبيد ، ان يدعها تذهب ، الى حيث تفتش عن الموت .
وكان عبيد يلاطفها احياناً ، ويؤنبها احياناً اخرى ، لكي يطرد
من رأسها ، ما كان يحول فيه من افكار . كان عبيد ينسب
اليها الجبن وقلة الفهم ، وما كان يهدأ روعها قليلاً ، إلا بعد هذه
الجلسات ، بينه وبينها ، ثم لا تلبث حتى تعود اليها هواجسها ،
ويستحوذ عليها القلق والاضطراب .

وكان عبيد يقول في ذات نفسه : ما اسخفنا نحن البسطاء ،
والكادحين والمعذبين ! اننا نكدح طوال النهار ، حتى نتهالك
من التعب ، ثم يأتي المساء ، فنأكل لقمته المغموسة بدماء قلوبنا ،
ونقضي اوقاتنا باللهو والعريضة والاحاديث الجوفاء ، بينما
نترك للجماعات الفوقية ، ان تتحكم بشؤوننا ، وتعمل على حل
مشاكلنا وتسويتها كما يحلو لها . اننا لا نعمل شيئاً الا الصباح
والتشكي وتضييع الوقت بالكلام الفارغ ، الذي لا يفيدنا بشيء .
وقال عبيد لعامر ذات يوم :

— لقد اخطأت بتزويدك بهذه المطبوعات التي تقرأها على الرفاق .
اني قصدت ان اسليك عن قعودك في الفراش وابعد عنك ضنى
الوحشة . وما كانت تصل الى يدي غير هذه الكتب والصحف .
ان المطبعة التي اشتغل فيها ، لا تطبع إلا مثل هذه المنشورات .
فهي تتقاضى عليها اجوراً غرارة ، على الرغم من ان اصحابها
يوزعونها بالمجان ، او بما يقرب المجان . وغايتهم من ذلك ، تخدير
عقولنا نحن العامة ، والهاؤنا عن واقعنا التعس . انه فتح نصبونه
لنا ، والمؤسف ، اننا نقع في فخهم بسهولة . انهم يرغبون في

تسليتنا بالقصص الجنسية والبوليسية والخيالية؛ وما يسمونه ثقافة
حرّة ، لكي يلهونا عن التفكير بمشاكلنا ووسائل حلّها بانفسنا .
بغيتهم ان لا نعي واقعنا الخزي ونشور عليه . هم يخافون ثورة
العامّة ، اذا هي تبّهت الى حالتها الراهنة ، فيصورون لها في
هذه المطبوعات ، ان الاستقرار مجلبة لراحة النفس ، وان الصبر
فضيلة ، والاحسان انسانية ، والاستسلام لمشيئة الاقدار منّة
من العناية الالهية على الانسان . يجب ان احصل بعد الآن ، على
منشورات من غير هذا النوع الالهائي ، تقرأها لتستفيد منها ، لا
لتتسلّى بها فقط ، حتى اذا قرأتم على الرفاق ، او حدثتم بها
فيها ، تعلّموا شيئاً عن مشاكل العامّة ، التي نحن منها . ان
التسلية واللهو واطاعة الوقت بمثل هذه المطبوعات المنمّقة ،
والمشحوطة بالخدرات والسموم ، ليس ما نحتاجه ، نحن ابناء عامة
الشعب الكادحين . ان في واقعنا ما يجب ان نعتبر به ونستلهم من
مصائبه ، ما يهيّب بنا الى العمل على تغييره . والواقع هذا ، لن
يتغيّر من نفسه ، ولن يغيّره من يفيدون منه . انه لن يتغيّر اذا
لم نغيّره نحن بالذات .

كانت تجول في رأس عبيد افكار وافكار . فهو من جهة ،
بحاجة ماسّة الى الشغل ، وكسب ما يمكنه من اعالة نفسه واعالة
رفيقه الكسيح . ومن جهة ثانية ، لم يعد يستهويه الشغل في
المطبعة ، مع شدّة شغفه بشؤون الطباعة والنشر . كان مرتبكاً
كل الوقت ، وكان يذهب الى شغله في المدة الاخيرة غائب الذهن .
كانت تصارعه هواجس ، لم تكن تصارعه في الاشهر الماضية .

وكان يتساءل في دخيلته ، اذا ما كانت حرفة الطباعة ، وقفاً على نشر المطبوعات الغائية ، لقتل النفوس ، وتحديد العقول ، وتسميم الافكار . كان يتساءل اذا كانت من اجل هذه الغاية ، اختراع الحرف ، وانشئت المطابع . انه قرأ في يوم من الايام ، ان اختراع الطباعة ، من شأنه ان يكون مشعلاً يهدي الناس الى النور ، نور الحقيقة ، واذا بالجماعات التي الفت التحكم برقاب الناس ، تحفّ لجعله شعلة محرقة ، لصب النار على الجماعات الكاسحة من الشعوب ، بغية قتل نفوسها ، وحرمانها من هدي مشعله الوضاء ، وابقائها في الظلمة ، التي يصطنعها له المتحكمون والاقوياء والمتفوقون .

كان عبيد يسير في الشارع عندما غادر محلّ عمله . فصادف مروره بمكتبة ، معروض في واجهتها كتب لم يكن يعرفها من قبل . وقرأ على غلاف واحد منها ، عنواناً بخطّ احمر عريض « من هو الانسان » وتحت العنوان عبارة باحرف اصغر تقول « ليس المهم ان نعيش ، بل المهم ان نعرف كيف نعيش » . فاستهواه هذا الكتاب ، واشتراه بأخر ليرة في جيبه .

كانت اجتماعات الشلّة في كل المدة الماضية ، معربة وصاخبة . كانت تبدأ بالمرح ، وتنتهي بالسباب ، وترفضّ بالتشكي والاستسلام . فاذا بها ، بعد ان قرأ عبيد كتابه الجديد ، وبعد ان قرأه عامر نفسه ، واعاد قراءته اكثر من مرّة على الشلّة ، تنقلب الى اجتماعات اهدأ واجدى . كان افراد الشلّة ، يتباحثون

ويتجادلون، فيما يُقرأ عليهم من هذا الكتاب الساحر، والمكتوب بلغة يسهل عليهم فهمها. كانوا يرون في كل عبارة من عباراته، وصفاً يطابق حالتهم. كان الكتاب يعبر عما يجيش في صدور الجماعات العامة من تفجّع والم. ففيه وصف دقيق لواقعهم الاجتماعي والمعيشي، وواقع بلادهم السياسي والاداري. كان في الكتاب وصف لفساد الحكم، وفوضى المجتمع، وجرائم الاقطاعيين، والتجارة بالطائفة والدين، واستئثار الطبقة الخاصة للطبقات العامة، وامتيازات الاجانب وشركاتهم وممثليهم، الرسميين وغير الرسميين. كان الكتاب، شرحاً صريحاً وجريئاً، للسياسة التي تنهجها الحكومات، لغير مصلحة الشعب، ولتغلغل النفوذ الاجنبي في اقتصادياتها وثقافتها ومصارفها. لقد قرأت الشلّة في هذا الكتاب، كيف يُذلّ الشعب، ولا سيما عامته الساحقة، وكيف تُجرّ البلاد الى المزالق التي يحفرها لها الاستعمار، لكي يجعلها ركيزة له، في تنفيذ خططه الحربية والعسكرية. كانت الشلّة تقرأ في الكتاب، كيف تُتهب ثروات بلادها، وكيف تُضحّى مصالح شعبها من اجل المحافظة على مصلحة الدول التي استعمرتها واستعبدت اهلها، طوال الاجيال الماضية. وفضلاً عن ذلك، لقد وجدت الشلّة في «من هو الانسان» مصباحاً ينير امامها الطريق، التي يجب ان تسلكها، لتبديد الظلمة التي يسطنعاها المتحكمون بعامّة الشعب: لقد علمها «من هو الانسان» كيف يجب ان تعيش؛ ودلها على الطريق التي عليها ان تمشيها، لكي تعيش كما يجب ان تعيش. وادركت الشلّة،

بعد استيعابها ما جاء في « من هو الانسان » انها مع جميع الذين يعيشون عيشتها ، ناسٌ مثل كل الناس ، ولهم حقوق طبيعية ، هي من حق كل انسان ، الذي وصفه الكتاب ، بانه الكائن الاعلى بين الاحياء ، لافرق بين من وُلد يتيماً في كوخ او ولد محظوظاً في قصر .

وكان عبيد ، على اكثر ما يكون من البهجة ، لانقلاب جو الاجتماعات ، التي كانت تعقدّها الشلة في الامسيات . وكان يبدو له ، انه اكتشف السبيل ، للاضطراع مع الشؤم ، غريمه الالذ ، والانقراض عليه . وكان عامر يشعر بالقوة تعود اليه . ولطالما همّ الكسيح بالوقوف على رجليه الضعيفتين ، بقامتته المديدة ، ممسكاً بطرف سريره الخشبي ، وهو يهتف « ليس المهم ان نعيش ، بل المهم ان نعرف كيف نعيش ، ونعمل لكي نعيش كما يجب ان نعيش » .

وقال عبيد للرفاق اثناء الاجتماع الاخير :

— لنكن منذ الساعة ايها الرفاق ، نواة ليقظة شعبية ، وللنضال من اجل حياة احسن وافضل . إننا ابناء العامة ، فلنعمل بعد الآن من اجل العامة .

وطغت على الشلة موجة من الامل ، في مستقبل سعيد وشريف . وكان يمازج هذه الموجة ، موجة من الكراهية والحقد ، على من يقف بوجه هذا المستقبل المنشود .

وقال عبيد لرفاقه قبل مغادرتهم الغرفة :

— اما الامل ، فيجب ان نغذيه بالمعرفة والوعي ، واما الحقد

فيجب ان يكون منظماً ومقدساً ، بحيث لا يكون باعثاً على الشر ، بل باعثاً على الخير ، وملهماً للنضال من اجل الخير .

٧

كانت امسية ١٥ نيسان عام ١٩٥٠ ، نقطة انطلاق لحركة عمالية شعبية ، ما لبثت أن اخذت بالاتساع شيئاً فشيئاً . وكان عبيد لولب الحركة ، ومنظمها ونافع الروح النضالية فيها . كان عبيد يقول لرفاقه دائماً : « يجب اول كل شيء ، ان نبني حركتنا على الوعي الشعبي ، ونغذيها بالثقافة الوطنية الشعبية . اننا لا نريدها حركة فوضوية ، ولا حركة هوسية ، فنحن العمال الكادحين علينا قبل ان نخطو خطوة واحدة ، ان نتفهم حقيقتنا ، وندرك شؤوننا ، ونعلم بالضبط ما هي حقوقنا ، قبل ان نطالب بها . علينا ان نتق بانفسنا ، ونعلم ما نريد ، ولا ندخل في صفوفنا الا كل صاحب ايمان ، وصاحب ارادة ، لا تتزعزع ، ولا تلين ولا تخاف . يجب ان نعد انفسنا لآيما مقاومة ، ولا نؤخذ بالتملق والخداع ، لان الذين سيقاوموننا كثيرون ، والذين سيخادعوننا اكثر واكثر . ان لنا اصدقاء من الناس الطيبين ، فعلينا ان نفتش عنهم ، ونوطد صداقتنا معهم ، ولا نخدع بصداقات زائفة وكاذبة . يجب ان نتكل على انفسنا قبل الاتكال على أيّ كان ، ونهتدي بتعاليم المعلمين الشرفاء ، ونرذل تعاليم المعلمين الكذبة والمرائين والمصلحيين . يجب ان يكون شعارنا الدائم : « ليس المهم ان نعيش ، بل المهم ان نعرف كيف نعيش ، ونعمل لكي نعيش ، كما يجب ان نعيش . »

كان الرفاق مأخوذين بكلام عبيد ، وقد شعروا منذ البدء
انهم امام شخصية تفرض زعامتها عليهم . على ان احدهم «حاشد»
المعروف بتسرّعه ، وحدة طباعه ، وميله الى اعمال العنف ، انبرى
الى القول بشيء من الحماسة والتصميم :

— بل يجب ، ان نقيم القيامة على هؤلاء الاسباد ، الذين
ياكلون اتعابنا ، ويضحكون علينا ، ويجوّعون عائلاتنا . يجب
ان ننتقم منهم ، وننتزع حقوقنا منهم انتزاعاً . هؤلاء لا يقتنعون
بالكلام الطيب والملاينة ، ولا يتنازلون بسهولة عن امتيازاتهم
واقطاعيتهم وزعاماتهم ، وبغير العنف ، لن نستطيع ان نحصل على
شيء منهم ، انا لا اؤمن بغير القوة . الحق مع القوة في هذه
الايام . واذا شئتم قولاً صريحاً ، فانا اقول انه بغير الثورة ، ليس
لنا ايما امل بالخلاص من هذا الجحيم .

واجابه عبيد بكثير من الحزم ، دون ان تفارقه الابتسامة :
— هذا خطأ يا حاشد . ان الثورة ليست بما يلعب به . منصل
الى مرحلتها في يوم من الايام ، اذا اقتضى الامر . ولكن قبل
ذلك ، يجب ان نهىء لها بالتنظيم وتغذية العامة بالوعي ، لكي
لا تكون الثورة مجرد انتفاضة جنونية ، ويتخذها من مميتهم
اسياداً ، حجة على فوضويتنا ، ونخسر بدلاً من ان نكسب .
المثل يقول : « من استعجل الشيء قبل اوانه ، عوقب بحرمانه » .
ألم تسمع هذا المثل ؟ انه حكمة اكثر من مثل . اذن علينا ان
نثبت للشعب صواب قضيتنا ونحصل على ثقته بنا وبالقضية نفسها
وننتزع من « الاسباد » حجتهم التقليدية ، أن كل من يطالب

بحقه مشاغب وفوضوي وهدام . وبعد ذلك يكون لكل حادث حديث . يجب ان تتعلم من ماضيك ، وتعلم منه نحن ايضاً . انك سبجت اكثر من مرة ، عندما كنت تأتي عملاً غنياً ، سواء كنت مظلوماً ام على حق . وما استطعت في ايما حالة من الاثنين ان تحصل على عطف الرأي العام . كنت تدخل السجن مجرمًا ، وتخرج منه مدموغاً بدمغة الاجرام . نحن نريد اولاً ، ان نبرهن للرأي العام ، ان قضيتنا قضية حق ، حتى اذا اعتقل أحدنا منا بسببها ، يكون للرأي العام ايضاً كلمته في الحكم معه لا عليه ، ولا يستطيع لا القاضي ولا موظف الامن عندئذ ، ان يستأثر وحده بالحكم ، ويتجاهل تأثير الرأي العام . فقبل ان يتفهم الشعب مثل هذه الشؤون تفهماً واعياً ، يكون المحبوس بنظره دائماً مجرمًا ، ولا يستحق ان يهتم به ويُعطف عليه . اذن علينا اولاً ان نفهم الشعب قضيتنا ، لكي نهيب به الى مشاركة القضاء في الحكم معنا او علينا وكل عمل تأتبه انت ، وانا ، او اي كان ، قبل ذلك ، ليس فيه ايما نفع ، بل يعود بنا الى الوراء . ان قضيتنا اوسع كثيراً من اغتيال ظالم او مستبد ، او الانقضاء على مستثمر او مستعبد . هذه اعمال فردية لا تفيد ، ولربما يكون لها رد فعل ، هو اقرب لمصلحة « الاسباد » انفسهم . وماذا نجني نحن ، اذا قتلنا طاغياً ، ليقوم بعده مئة طاغٍ ، يجب ان نكسب ثقة الرأي العام وعطفه على قضيتنا ، ويكون عملنا فيها عملاً جماعياً ومنظماً ، ومرتكزاً على اسس ثابتة . وهذا لن يكون الا اذا وعت عامة الشعب شؤونها ، على الاقل كما يعي « الاسباد » شؤونهم الخاصة . ان

نضالنا يجب ان يكون من بدايته ، نضالاً واعياً ، لكي تأتي ثورتنا ، متى اتى حينها ، ثورة واعية ، ولا يكون وقتئذٍ بمقدور « الاسياد » وحليفهم الطبيعي الاستعمار ، ان يشتتوها شذر مذر ، كما كانوا يفعلون حتى الآن . ان المرحلة الاولى من نضالنا يجب ان توصلنا الى معرفة « كيف يجب ان نعيش » وبعدها تأتي المرحلة الثانية ، للتوصل الى « ان نعيش كما يجب ان نعيش » .

كان كلام عبيد القول الفصل . واقتنع به الرفاق ، ما عدا حاشد ، الذي لم يقتنع كل الاقتناع ، ولكنه لم يجب باي شيء . لقد الف حاشد حياة الهوس في ماضيه ، بما جعله ينزل ضيفاً على السجون مرات عدة . على ان شخصية عبيد كانت قيمة بترويضه ان لم يكن اليوم فغداً .

واحسّ عبيد ، بان تغييراً حاسماً طرأ عليه في مجرى حياته ، وعزم عزماً عنيداً ، على المضي في الحطة التي رسمها في فكره في تلك الامة . وبادر في صباح اليوم التالي الى تنفيذها . وكان عليه قبل كل شيء ، ان ينهي علاقته مع صاحب المطبعة التي يشتغل فيها . كان يشعر في قرارة نفسه ، ان حرفة الطباعة ، على شدة شغفه بها ، لن تنيله رغائبه ، اذا لم يقرنها بحرفة ثانية ، هي حرفة النضال ، لتغذية الطبقة العاملة بالوعي ، لكي تدرك ماهيتها ، وتعرف واجباتها ، تجاه نفسها ، وتجاه مجتمعها ايضاً ، وتدرك ايضاً حقوقها عليه ، فلا تستهتر بها ، ولا تتنازل عنها ، بل تحصل عليها بالحسن اذا امكن ، وبالقوة اذا بقيت « الخاصة » مصمة آذانها عن الاخذ بالحسن .

*

كان صاحب المطبعة ، حماد ، في الخمسين من عمره ، طويل القامة ، بهي الطلعة ، طلق الحياء ، وحليق الشاربين ، لا يعرف الكلال ولا الملل . كان يشرف بذاته على اعمال المطبعة كلها ، ولا يدع كتاباً او نشرة تخرج منها ، قبل ان يطلع عليها ، ويؤثر بالجر الا حمر ، علامة وجوب اصدارها او عدمه . وكان في نفس الوقت ، يصدر جريدة يومية سياسية ، تحمل اسم « الزوبعة » . كان حماد كاتباً قديراً ، وصحافياً لبقاً ، وادارياً من الطراز الاول . وكانت جريدته من اكثر الجرائد انتشاراً . كان الناس يتلقفونها كل صباح ، ليقرأوا مقاله الافتتاحي . وقد اشتهر حماد بانه يحمل قلماً اشبه بحد السيف ، اذا ضرب اوجع ، واذا رغب في تأييد سياسة ما ، يطبعه القلم ، ويتلاعب بالاسلوب ، بحيث يستهوي القاري ، ويجتذبه به الى رأيه ، إن بالنقد اللاذع ، او بالنكتة المرحية ، او بالصياغة التي يصوغ بها مقالاته . كان حماد صادقاً مع نفسه ، اكثر مما هو صادق مع الناس ، او مع رسالته الصحفية والادبية . ولطالما اعترف فيما بينه وبين اصحابه الاقربين ، انه يحترف الصحافة والطباعة والادب ، من اجل الشهرة وكسب المال والنفوذ ، على عكس ما كان يظهره في جريدته من الاخلاص في المبدأ والعقيدة ، ومن غلو في الوطنية . كان مكتبه مرجعاً لاصحاب المصالح ، يتوافدون عليه ، لاخذ رأيه في امر ما ، او ليطلبوا مساعدته في قضاء حاجة لهم مع الحكام . كانت الاشغال تتدفق عليه من كل جانب ، لا سيما من الاوساط البورجوازية ، والاطراف ذات العلاقة مع المراجع العالية ، الوطنية والاجنبية .

كان يحسن اللغتين الانكليزية والفرنسية ، ويتكلمها بنفس الطلاقة
 التي يتكلم بها لغته العربية . كان وثيق الصلة بالسفارات الاجنبية
 كلها ، بحكم المجاملة الصحفية والسياسية ، على انه كان اكثر اتصالاً
 مع السفير الاميركي ، من ايما سفير آخر . كان معجباً بالسياسة
 الاميركية ، والحرية الاميركية وبنمط الحياة في الولايات
 المتحدة . هذا على الاقل ما كان يظهره في جريدته الزوبعة .
 كانت مطبعته تخرج تسعين بالمئة من منشورات الدعاية عن فضائل
 « العالم الحر » وصداقته للعرب ، وحاجة العرب الى صداقته
 ومساعداته . وكانت جريدة الزوبعة ، الى جانب منشورات
 المطبعة ، تدعو الى التقارب بين العرب ودول « العالم الحر »
 والابتعاد عن العالم الاشتراكي الجديد ، وتخوِّف الناس من الخطر
 الشيوعي ، على الدين والعائلة والثقافة والحرية . كان في كل ما
 ما يكتبه ، او فيما يصدر عن مطبعته ، يدعو الى استقرار
 الاوضاع ، وعدم الاخذ بمشاغبات الشارع وجماعات الشباب ،
 والطلاب ، وغلاة الوطنيين ، والانقلابيين ، والشيوعيين ، وانصار
 السلم . كانت مطبعة حماد ، هي المختارة لايخراج نماذج الادب
 الالهائي ، والتخديري ، والاستقراري ، والنعاسي ، وقصص اهل
 الغرام ، وابطال الحروب ، واعلانات الشركات الكبرى
 وجمعيات الاسعاف . كانت شركات النفط الاجنبية تطبع مجلاتها
 في مطبعة حماد ، وتوزعها بالمجان ، على الرغم من تكاليفها الباهظة ،
 وضخامة الرواتب التي تعطىها لحررِّيها ، ولمن يساعدونهم من
 الكتاب ، المختارين من هذه الشركات ، الذين يبيعون بضاعتهم

لمن يدفع الثمن الاغلى . وكان حماد حائزاً على رضى دوائر السياسة
الاجنبية ، وناظراً عند السلطات الحكومية . كانت الاولى تسايرو
لتفيد من خدماته لها ، والثانية تحشاه ، لاتساع نفوذه وشهرته ،
واجتناب حملاته الصحفية القاسية عليها . حتى الاوساط الشعبية ،
البسيطة القلب ، والسطحية التفكير ، كانت تنخدع احياناً بمهارته
في تغليف مراميه ، باسلوبه الأخاذ ، وقلمه المطواع ، وحديثه
الساحر . كان بمقدوره ، ان يلبس الكذب ثوب الصدق ، عندما
يشاء اقناع احد ، ويخفف من حدة غضب ، بابتسامته الجذابة ،
ونكاتة المرحه ، بحيث لا يخرج من عنده جليس ، إلا راضياً
مطمئناً . وفوق كل ذلك ، كان كريماً في العطاء اذا استجدي ،
وسخياً في الوعود ، لمن يطلب منه خدمة ما ، او حل مشكلة
استعصى حلها على غيره . كان حماد ، يكسب كثيراً وينفق
كثيراً ، ليس على نفسه وعائلته فقط ، بل على من هم من أزمه
وأتباعه ، والمصفقين له ، والمشيدين بكرمه وعلمه وافضاله .
كانت زعامته في اوساطه ، زعامة تهرجية ، اكثر مما هي حقيقية ،
ولكنها على كل حال ، كانت ذات اثر محسوس في السياسة
المحلية ، وفي السياسة التوجيهية ، التي كان يصفها هو ، بانها سياسة
وطنية وقومية ، وانسانية ايضاً .

وفوجيء حماد ، ذات صباح ، عندما دخل عليه عبيد ، وأعلمه
بانه لم يعد راغباً في مواصلة الشغل عنده . وآلمه ان يفقد هذا
العامل النشط . واراد ان يستبقه ، محاولا اغراءه بزيادة الاجرة .

كان يلاطف عبيداً ، كما لو كان خديناً له ، لكي يستطلع منه سبب استقالته من العمل ، وكان يستعمل كل بلاغته الكلامية ، لكي يقنعه بالرجوع عن هذه الاستقالة . ولكن عبيد كان يأبى الرجوع عن فكرته بغناد ادهش حماد . وعندما ألح حماد على معرفة السبب ، اجابه عبيد بصراحة ، هي اقرب الى القطة :

— لست طامعاً بزيادة الاجرة يا سيدي . ولكني اريد ان اقتش عن عمل ، لا اكون فيه مساهماً في تضليل الناس ، وتسميمهم بالسموم ، كالتي تسممهم بها المطبوعات التي نطبعها هنا ، واشترك انا في طبعها . قبل ان اجيء الى هنا ، كنت ابيع الناس كذباً مع بيعهم الصحف ؛ ولا اريد ان اكون اليوم مستخدماً في تجارة المخدرات والسموم .

وقطب حماد حاجبيه ، وقال لعبيد :

— وماذا تعني بهذا القول ؟

— اعني ما قلته بالضبط .

ونظر حماد الى عبيد نظرة ، فيها شيء من الغضب وقال :

— بل يجب ان تقصص عما تعنيه . هذه اهانة لا يسعني

السكوت عليها .

وقال عبيد :

— وانا لا يسعني الاستمرار بالعمل . معاذ الله ان اوجه اليك

يا سيدي ايما اهانة . اعفني من الشغل ، ووزقي على الله .

وقال حماد :

— وماذا في مطبوعاتنا من سموم ؟

وانطلق عبيد ، عندما رأى ان حماد يلجّ عليه بالافصاح .
 - برأى يا سيدي ، ان المطبوعات التي نضعها بين ايدي القراء
 محشوة بالسموم . انها تخدر عقولهم لكي لا يفكروا ، وتجمّل
 في اعينهم الحياة التي يعيشونها ، لكي لا يعملوا على تغييرها . ان
 الذين يكتبون هذه الكتب والمنشورات والذين يوحون بنشرها
 والذين يسهمون فيها ، انما يقصدون رشّ الماء البارد على الاذهان
 المتوقّدة ، خشية التهامهم بلهبها . انهم يرغبون من ذلك ، إلهاء
 عامّة الشعب عن الاشتغال بشؤونها ومشاكلها ، لكي يتوكّل لهم
 دون سواهم تديروا مشا كل الناس . انهم يجهدون انفسهم ،
 ويسخرون الحرف ، ويستأجرون الاقلام والمطابع ، لنشر
 المطبوعات ، من النوع الذي نطبعه ونوزعه نحن ، بقصد تسليّة
 العامة بالغراميات ، والحلايات ، والقصص البوليسية والكتابات
 الاستقرارية والانحذالية ، فيصفو لهم الجوّ ، لتديروا مؤامراتهم
 الرامية الى الابقاء على سيادتهم . انهم يصوِّرون الحرب شيئاً
 محتوماً ، ويسمّون التقتيل والتشريد عملاً بطولياً . انهم لا يرغبون
 اكثر من نشر الذعر بين الناس وتعميم البؤس في عامّة الشعب ،
 لكي يرفهوا عن انفسهم هم . لا يا سيدي ، لم اعد راغباً في مداومة
 العمل ، ولا المساهمة في خدمة هذه المآرب . اني اريد عملاً يخدم
 الشعب ، الذي انا من افقر عامته ، ولا يخدم من يريدون ان
 يبقوا اسياداً على الشعب ، ويستغلّوا اتعابه ، ويرقصوا على
 قبوره .

وفي قهقهة ساخرة ، قال حماد :

— اراك تذهب بعيداً في الفلسفة المثالية يا بني . الفلسفة هذه
لا تطعم خبزاً ، ولا تغني احداً . انا كنت مثلك بالماضي ، الى
ان علمني الدهر . لن تقوى انت ولا غيرك على معاندة الواقع .
عندما تتزوج وتركبك العيل ، تنوء تحت وطأتها ، وتندم على
فوات الوقت عندما لا يعود الندم ينفعك . النصيحة كانت بجمل
على ما يقول المثل ، وانا اقدمها لك لوجه الله الكريم ، لما كنته
لك من المحبة والعطف . انا بقيت عشر سنوات ، عاملاً مثلك ،
أشتهي العضة بالرغيف . ولكن عندما صرت افهم الحياة على
حقيقتها ، انفتحت قدامي ابواب الرزق ، واصبحت محسوداً بعد
ان كنت حاسداً . يجب ان تكون واقعياً اذا اردت ان تنجح
وتتزوج وتبني عائلة .

وهمهم عبيد قائلاً :

— سأكون رجلاً يا سيدي . وليس لي ايما حاجة بالزواج .
كان عبيد ذاهلاً عندما كان حماد ينثر عليه النصائح . وكان
مطرق الرأس ، عندما قرع الباب ودخلت سيدة عليها كل مظاهر
النعمة . كانت السيدة على اكثر ما تكون من الاناقة ، يزين
معصمها سوارٌ من الماس والاحجار الكريمة ، ويتدلى على
صدرها العامر بنهدين مكوزين ، عقد من اللؤلؤ البراق .
وكان يقفز حولها كلب ، ابيض الشعر ، حاد العينين ، يطوق
عنقه طوق من الذهب ، مربوط بسلسلة من الذهب ايضاً . فما ان
وطئت ارض الغرفة حتى عبق الجوّ برائحة العطر . واذ عرف
عبيد انها زوجة حماد ، همّ بمغادرة المكتب ، لو لم يستوقفه المدير

فانتحى زاوية من زوايا الغرفة ، وشغل نفسه بالتطلع الى الافق البعيد ، من خلال النافذة ، لكي لا يفسد على الزوجين خلوتهما . كانت زوجة حماد ، منى ، جميلة الملامح ، وكثيرة الدلال ، تبدو كأنها ابنة عشرين ، مع أن سنهما لم تكن تقلّ عن الخامسة والثلاثين . كانت تتكلم كمن له سلطان ، بينما كانت تداعب قلبها المحبوب « بوبي » . كانت تحدّث زوجها عن حفلة الغد ، التي سيقامها احتفالاً بمرور ست سنوات على زواجهما . كان الزوجان يعدّان قائمة المدعوين الى الحفلة ، من وزراء ، ونواب ، وسفراء اجانب ، واعيان المدينة ، وكانت الزوجة تلحّ على زوجها ، بان تكون حفلتها ابهج حفلات الموسم ، وتكون لائقة بمرکزها الاجتماعي ، وتستطيع ان تفاخر بها سيدات البيوتات الكبيرة . ان اشغاله والحمد لله ، تدرّ عليه ارباحاً تحزي العين . وفضلاً عن ذلك ، فالحفلة نفسها ، ستكون وسيلة لاستدراار المزيد من الارباح وازدياد الشغل ، واجتذاب الزبائن . كانت تقول لزوجها : الا تعلم ان المثل يقول « اطعم الفم تستحي العين ؟ » كلما انفقنا على مثل هذه الولائم ، نزداد كبراً في اعين الناس . اذا رجت زبوناً واحداً من المدعوين ، يغطي تكاليف عشرين حفلة . الذي يتدخل مع الكبار يكبر يا عزيزي .

كانت زوجة حماد تغريه بمعسول الكلام ، الممزوج بالغفجج احياناً ، وبالاقناع احياناً اخرى . كانت حجتها ان التقرب من طبقة الكبار ضروري للحفاظ على مركزهما في الاوساط الراقية ، وفي نفس الوقت ، لخدمة مصالحه ، وتأمين مستقبل بناته . كانت

الزوجة المغناجة، ترغب في ان تظهر للسيدات الارستقراطيات، انها اكثر منهن وجاهة ، وتفرك انوفهن ، ولا تعود احداهن « الفيرا » وارثة القصر الكوكبي ، تنظر اليها من علٍ لانها ليست بالأصل من العائلات الكبيرة . هي تريد ان تكون الفيرا من جملة المدعوين ، لكي ترى بعينها من هي منى ، ولا تلفظ بعد الآن كلمة بحقها ، كالكمة التي ترددها دائماً عندما يؤتى على ذكر منى وزوجها ، اذ تطلق عليها لفظ (نوفو ريش) nouveau riche يجب ان تذلل الفيرا هذه ، وحضورها في الحفلة ، ومشاهدتها كبار القوم ، يحوّمون حول سيدة الحفلة ، هو السبيل الوحيد لاذلالها . هي تريد ان تنتصر على الفيرا ومثيلاتها من النساء اللواتي يعتقدن ان الله خلقهنّ وكسر القالب . انها اجمل من كل هؤلاء ، وحماد اغنى من ازواجهن ، وكلمته مسموعة اكثر من كلمة اي منهم . والمرأة ربّة الكيد ، فلماذا لا تفيد من كل ذلك ؟

وكان حماد يستمع الى بلاغه زوجته ، ولا يقول ايّما كلمة ، يخشى منها تعكير مزاجها . وكان « بوي » الجميل ، يقفز من زاوية الى زاوية ، ويحدّق تارة بحماد وتارة بالزوجة ، حتى اذا تطلّع الى صوب عبيد تحفز للهجوم عليه ، فتنتهره منى ، كما تنتهر الام ولدها ، وتداعبه باصابعها ، وتقبله في جبينه المهفّف .

كان عبيد ، يخلّص النظرات الى الزوجين ، بطريقة من عينه ، بين الفينة والفينة ، وهو غارق في حلم عميق وبعيد الغور، تراءى له فيه ، ان فتاته المنتفخة البطن ، جائئة في الزاوية وراء باب المكتب . كان يرى ، ان الفتاة ، تفر في وحدتها وتتألم في مصيبتها ،

وليس لها ايّاماً معين وتنتفض انتفاضة المحموم ، وتمشي حوله متهادية .
ثم لا تلبث حتى تهوي على الارض ، بشوبها المهلهل ، وسخنتها
الشاحبة ، وعينيهما الباكيتين . وفيما كان يرن في مسمعه جرس
الزوجة « منى » وهي تركز على زوجها المواعظ ، بدلال بمزوج
بكبرياء ، كان يطرق مسمعه ايضاً ، جرس خافت ومقطع ،
يستجيب بالمجهول ، على ضائقة ، كادت تقطع عليه الانفاس . وخيل
الى عبيد في تلك اللحظة بالذات ، وهو غارق في حلمه ، ان الفتاة
تدخل عليه ، متلوّية بين يدي العجوز مريم ، وتنبطح بين رجلي
السيدة المتعجرفة . وفي لحظة من لحظات الغيبوبة ارتعش كمن
اصابه مسّ ، وقذف بنفسه ، دونما وعي ، الى جهة الباب ،
متلهساً الاشباح القابعة فيه . وكانت مفاجأة ، صعد لها الزوجان
المتنادمان واستوقفه حماد بربطة على كتفه ، ايقظته من الحلم
المزعج .

وهلعت الست منى لما يجري امام عينها . واصطبغ وجهها
باللون الاصفر الباهت . وتبرّمت بالمسلك الوقح الذي سلّكه
عبيد . وجعلت تطالب زوجها بصرف هذا الصعلوك من الغرفة
ريثما تكون انجزت مهمتها التي لم يعد يسمح الوقت بتأخير انجازها .
ولم تتورّع عن كيل الشتائم لعبيد الصعلوك ، دون ان يردّ عبيد
بأيّام كلمة . وبينما كان حماد وعبيد يتجادبان الاخذ والردّ ، كانت
الزوجة الغاضبة تصطارع في دخيلتها مع نفسها ، وسط هذه الازمة
التي فوجئت بها ، وكان « بوبي » يزجر ويهدر ويهيب ، على
الغريب القذر ، ويهجم عليه هجوم المستميت ، للدفاع عن سيّده

لان « بوبي » لم يألف رؤية مثل هذا الصعلوك في بيت سيّديه ،
ولا في البيوت التي كانا يأخذانه معها اليها .

وغادر عبيد مكتب حماد ، عائداً الى غرفته الخفية في
الزاروب الضيق ، دون ان يمرّ على المطبعة ، وهو مصمّم على الا
يعود الى عمله فيها ، مهما كانت العاقبة . وبقيت ذكريات هذه
الجلسة تصارعه في نهاراته ولياليه ، وتستحوذ على مشاعره في
رواحه وحبيئه ، وفي اثناء اجتماعاته مع رفاقه الصعاليك . وكان
عبيد يردد في ذات نفسه : « علينا بعد الآن ، ان نغيّر مناهج اعمالنا
نحن الكادحين ، ولا نترك للواقع ان يسيّرنا ، ما دام هذا الواقع
مسيّراً برغائب غيرنا ، ومحروساً من « الاسياد » ، مستغلي
اتعابنا ، والمتنعّمين من عرق جباهنا ، والمتاجرين بشقائنا وسذاجتنا
وجهلنا ، اذ ليس المهم ان نعيش ، بل المهم ان نعرف كيف
نعيش ، ونعمل لكي نعيش كما يجب ان نعيش . »



حملت العجوز مريم ، كل ما تجمع عندها من الجراة والدهاء
في حياتها السبعينيّة ، وقالت لعبيد ذات يوم :

- يجب ان نجلو مسألة حنيفة الغامضة . عجيب منك فراغ
البال هذا ، وعدم المبالاة بها ، كأن الامر لا يعنينا . ان ما
كتمته عني حتى الآن ، لم يعد يجوز كتمانها . لقد كنت اتجاهل
امرها امامك ، على الرغم من عدم جهلي به من يوم اتت ، لكي
لا اخرجك واحرجها . غير ان حالتها ، ليست من الحالات التي
بالامكان اخفاؤها الى الابد . ان حنيفة على وشك الوضع ، وعلينا

ان نتدبر امرها بطريقة ما . انها مصيبة هذه التي اوقعتنا فيها ،
ويجب ان نخرج منها بل يجب عليك ان تخرجنا منها .
وقال عبيد بجرس عادي ، كأنما لم يكن في الامر ، ما
يستحق ايما تفكير :

— اين هي المصيبة؟ حنيفة اصببت بما تصاب به كثيرات مثلها ،
وخروجها منها ، يجب ان يكون كخروج غيرها . اذا كانت ،
كما تقولين على وشك الوضع ، فاسرعي الى تدبير المسألة مع احدي
القاتلات . لا شك انك تعرفين قابلة ما . خذي المسألة بالروية ،
ولا يربكك امر كهذا . على علمي انك « مضروبة على الخُلّ
والحامض » . اما كنت دائماً تقولين كذلك ؟ فأين هو هذا الخُلّ
والحامض يا عجوزتي الطيبة ؟

واجابت العجوز ، وقد ادهشها استخفاف عبيد بالأمر :
— المسألة ليس في تدبير قابلة ، بل هي في الفضيحة التي
سينتشر خبرها بين الناس . هذه مسائل لا تمشي على السر
والساكت . وماذا سيكون امر الطفل الذي سيحيي ، وماذا
نعمل به ، ومن هو ابوه ، ومن سيربيه ، اذا ولد حياً ، وماذا
سيكون شأن حنيفة في هذا البيت . عشت عمري كله ، ولم يحك
عني احد كلمة . بماذا سنردّ على كلام الناس ، وكيف سينظر
الناس الينا ؟ يا لطيف على هالوقعة التي وقعنا فيها .
وقال عبيد :

— خلّ عنك هذه الثثرة ، ودعك من هذه الاسئلة الفارغة .
سمعة البيت كانت شريفة وما زالت شريفة ، وستبقى كذلك ، بل

ستكون اشرف واشرف . لا تعطي اذنك لكلام الناس وثرثرتهم ،
ولا تكوني مثلهم . هؤلاء عقولهم على أطراف السنتهم ، ومن
كان عقله على طرف لسانه ، لا قيمة لما يقوله . كل ما اطلبه منك ،
ان تدبري الامر مع قابلة ما ، ولتكن عنايتك بحنيئة والطفل
الذي سيولد ، كما لو كانت حنيئة ابنتك والطفل حفيدك .
وظهرت على وجه العجوز ابتسامة تنم عن شيء من الحب
وقالت لعبيد :

- انها فعلتك يا ملعون . ماذا كان صار لو قلتها لي من الاول ؟
كانت المسألة ايسر بكثير . وكنا عملنا شيئاً استر عليها وعلينا .
اما الآن فلا اعرف كيف سنتخلص من هذه الورطة التي
وقعنا فيها .

وقال عبيد :

- قلت لك لا تكثري من الثروة . ليس لدي وقت للأخذ
والرد . لقد عرفتك عجوزاً طيبة ، فلا تبدلي طيبتك بخبث .
ان حنيئة بنت شريفة ، وستعرفين هذا بنفسك ، وستجدينها
اكثر فاكثراً .

ورسمت العجوز على صدرها اشارة الصليب وقالت لعبيد :

- لكنها على كل حال مصيبة . ان حنيئة بنت طيبة . هذا
ما لا اشك فيه . ومحبتي لها وشفتي عليها ، لا تسمحان لي
بتركها . الله يساعدني عليك يا عبيد . الالباء يأكلون الحصرم
والأبناء يضرسون .

وشرعت العجوز منذ الساعة التي غادر فيها عبيد الغرفة ،

بتنفيذ ما طلبه منها . كانت تولي حنيفة المزيد من الاهتمام والعناية .
انها امرأة ، وتشعر شعور النساء تجاه هذا الحدث المنتظر ، ولولم
يقدّر لها ان تمرّ بمثله . هي تعرف قابلية عجوزاً مثلها ، وستستعين
بها عندما تدعو الحاجة . على أن ما كان يثير فضولها ، هو معرفة
حكاية حنيفة .

وقصت حنيفة على العجوز ، في احدى الامسيات التي كانت
فيها عبيد غائباً في اجتماع عند احد الرفاق ، وفيما كان عامراً نائماً ،
قصتها تلك . قالت :

— لا تهمني بالزنا يا عمي الطيبة ، فما انا زانية ولا فاحشة ،
وحق المسيح وجميع القديسين ، اني لست كذلك . انا ابنة منكودة
ما عرفت لي اباً ولا امّاً ، لانها ماتا من الجوع قبل ان اكحل
عيني برويتها . ربيت منذ صغري عند احدى نسيبات امي ،
كانت تخدم في بيوت الناس ، وتطعمني من الزاد القليل الذي
كانت تحصل عليه من تعبها ، وبالدرهمات القليلة التي كانت تتقاضاها
من شغلها . كانت تحبني كما لو كنت ابنتها ، نازلة عن قلبها ،
ولطالما جوعت نفسها لتوفر لي اللقمة . كانت تأخذني عندما
تذهب الى الشغل ، وكنت لا اتركها دقيقة واحدة . حيثما كانت
كنت ادور حولها مثل فراشة القنديل . كانت ضعيفة الجسم ،
وتشكو من اوجاع تسميها هي « عصبي » . ولكنها كانت
مضطرة الى الشغل رغم اوجاعها . كانت تتحمل الاوجاع بصبر
وجلد ، لكي تكسب عيشي وعيشها . مرضت مرة بالحمى ،

فكانت تشخذ من الناس لتشتري لي الدواء . كنت انا سلواها الوحيدة ، وكانت هي حارسي الوحيد . كنا مبسوطتين رغم فقرنا . كنت عندما اراها تضحك اضحك معها ، وعندما تبكي ، كانت تدير لي ظهرها ، او تهرب مني في حاجة ما ، لكي لا اراها . يا ما كان احلاها تلك الايام التي عشتها مع امي هذه في صغري ، ما كنت اعرف ابدأ انها لم تكن امي الحقيقية . ما عرفت هذا الا عندما كبرت . عرفته من كلام الناس وليس منها . ولكن التعاسة التي ولدت فيها ، بقيت تلاحقني في حياتي . وعندما صار عمري عشر سنوات ماتت هذه الام الحنون ، التي لم يكن في الدنيا احسن منها . ماتت من الفقر والتعب ، والمرض الذي كانت تسميه عصبي ، ماتت وعيناها مقززتان بي . يا ليتها اخذتني معها يوم ماتت . بكيتها من صميم قلبي ، وما زلت الى الآن ابكيها وابكي حظي المنحوس .

لم تتالك حنيفة وهي تسرد قصتها ، من البكاء . واحسنت بان قواها تخور . فأسرعت العجوز الى بيت الجيران ، وجلبت لها فنجاناً من ماء الزهر . ومددتها مريم على الارض ورشقتها بالماء البارد ، لكي تصحو . وكانت العجوز تهوّن على حنيفة ، بكلمات العطف المألوفة . على ان فضول العجائز كان مستحوذاً على مريم . فهي تريد ان تعرف حكاية حنيفة كلها ، ولا سيما علاقة عبيد بها . وعندما عادت الفتاة الى روعها ، تابعت سرد حكايتها .

— وهكذا يا عمي ، لم يبق لي بعد موت امي ، من ينظر الي ، او من التجيء اليه . همت على وجهي اكثر من شهرين ، كنت

اشحذ لقمة الخبز اليابس لكي اعيش . كنت انام في الطريق ، و كنت ارى نفسي سعيدة ؛ عندما كان يتيسر لي ان اضطجع في مدخل بوابة من بوابات الابنية في الشارع . كان صبية الحي يلاحقوني وهزأون بي . ولطالما تحرّش بي قليلو الحياء منهم . كنت اهرب واتخفى في زاوية موحشة ، لكي لا يراني احد . حتى رجال البوليس كانوا يطاردوني ، ويقولون اني من عصابة اللصوص . ومرة جرتني هؤلاء الى النظارة ، ولكنهم عادوا وتركوني في سبيلي ، واي سبيل كان سبيلي . كان البرد يقرصني ، والمطر ينفذ الى جسمي ، من خلال لباسي الوحيد ، المرقع والمبلل . كنت ابقى يوماً على يوم لا اذوق لقمة الخبز ، و كنت اقرف من رائحة ثيابي ، التي ما غسلتها كل تلك المدة . كان بدني مكاناً للبراغيث . ورأسي عشاءً للقمل . كنت افتش في القاذورات ، على فضلات الاكل ، كما تفعل الكلاب ، عندما لا اجد من يشحذني رغيفاً او قرشاً . عشت شهرين على هذه الحالة ، تصوّري كيف كانت حالتي .. وفي يوم من الايام ، وجدني رجل ، تدلّ هيئته على انه غنيّ وآدمي ، وادخلني في خدمة بيته ، فشكرت ربّي على هذه النعمة . كنت اشتغل من الصبح الى نصف الليل ، مقابل اكلي ونومي . لا انا طالبت باجرة ، ولا مخدومي عرض عليّ شيئاً من ذلك . ولكن التعيس تعيس يا عمي . واسترسلت خفيفة بالبكاء ثم تابعت .

— كانت زوجة معلمي امرأة فظة ومتعجرفة . كانت لا تدعني ارتاح دقيقة من الشغل . ومع هذا كنت راضية شاكرة .

لم يكن يمضي يوم واحد ، دون ان تضربني فيه معلمي ، عدا عن الشتاء التي كانت تصبها علي . حتى اولادها الصغار كانوا يضربوني ويتسلون بتعذيبي ، على الرغم من خدمتي لهم . والله يا عمتي ، لم اكن خادمة بل عبدة . كنت اظن ان معاملة الست لي ستتغير مع الايام ، ولكن لم يتغير علي شيء كل المدة التي قضيتها عندها . خمس سنوات ، كلها على هذه الصورة . كنت اشتغل شغل البقر والحمير . حتى السيارة ، كنت اغسلها اكثر الايام عن السائق : من هنا ابتداء تعتيري ، الذي ما بعده تعتير .

وغاصت حنيفة في تفكير عميق . وبدأت العجوز تمسك «بطرف الشموط» ولكنها ارادت ان تمسك باطرافه كلها . وانحنت على حنيفة وقبلتها لكي تشجعها على متابعة الحكاية . فتابعته حنيفة .

— كان السائق هذا ، شاباً جميلاً ، وكان يتصرف في البيت كأنه من اهله . كانت معلمي تعطف عليه كما تعطف على عائلتها . كان زوجها لا يجراً ان يقول له كلمة اذا اتى ايّما عمل ، او اذا تدخل بما لا يعنيه ، او اذا غاب عن الشغل بغير سبب . وبعد ما كبرت وصرت افهم ، بدأت الاحظ منه بعض علامات العطف علي . كنت اتعزّي عن حالتي التعسة ، عندما وجدت في البيت انساناً واحداً على الاقل لا يضربني ولا يهزأ بي . وما لاحظت ابداً ، ان ذلك الشاب يخفي نية شريرة وراء معاملته لي . وحق المسيح يا عمتي ، اني لا اقول غير الصدق . كان السائق يغريني بانه في يوم ما سيأخذني زوجة له . صدقت كلامه وآمنت به . انه من

جهة عامل بسيط ، ومن جهة ثانية ، ابن عائلة فقيرة ووضيعة ،
 احسب انها مثل عائلتي . صحيح انا لا اعرف عائلتي ، ولكنها
 بدون شك من العيل الفقيرة جداً . وهكذا كنت اعيش مع
 الالم ، اصبر على شقائي بانتظار مجيء اليوم الذي كان يعدني به
 واعيش بعده كما يعيش الناس . كنت اعمل كل جهدي لكي
 ارضيه وارضي مخدومي . و كنت اشعر بالسعادة تطلّ عليّ
 كلما لمحته يمرّ امام عيني . كان يحدّق اليّ بنظرات كلها عطف ومحبة
 وهو داخل الى البيت او خارج منه . كنت أنتظره ساعات
 وساعات ، لاراه ، عندما يكون خارجاً من عند سيدتي ،
 فارافقه بعينيّ الى آخر حديقة البيت . كنت اعلّق كل آمالي على
 نظراته اليّ ، فانسى العذاب الذي كنت اتحمّله . ظننت اني
 سأجد في هذا الشاب امنيّتي ، و كنت مستعدة ان اكون له
 زوجة امينة ومخلصة ، وأطوع له من اصابعه . كانت معاملته لي ،
 مرفوقة بجذر وخوف ، ولكنها على كل حال ، كانت معاملة
 صادقة . هكذا كان يبدو لي . ما شككت ابداً في براءة نيته في
 يوم من الايام ، ولا دخل في فكري ، انه كان يطمع فقط
 باشباع لذته مني . وحق الله والمسيح وستنا العذراء يا عمتي ، اني
 كنت بريئة وبسيطة القلب عندما استسلمت له غضباً عن ارادتي .
 كانت ساعة شؤم ، تلك الساعة التي وجدت فيها وحدي في البيت ،
 عندما دخل علي ، بحجة انه جاء يأخذ غرضاً ما للمعلمي الموجود
 في محل اعماله . كانت وعوده الجذابة تخفي عني نياته مني . كلما
 فكرت بتلك الدقيقة يطير عقلي . ماذا فعلت بنفسني يا الهي ؟ على

ان مرادة السائق لي وحنانه علي ، ومواصلة وعوده لي ، كل الايام التي اعقبت تلك الساعة المشؤومة ، جعلتني اتعافل عمّا جرى لي . امنت قلبي بساطتي وقلة عقلي ، فكنت ضحية جهلي وعمادة قلبي . ثم مضى شهر اول وشهر ثانٍ ، واقلقتني عدم حدوث ما كان يحدث لي كل شهر . حتى كان الشهر الثالث ، وبدأت اشعر باختلاج في داخلي . كدت اجنّ بما قد يكون اصابني . كنت ابقى الليالي الطويلة ، دون ان يغمض لي جفن ، وانا منتظرة حدثي الشهري ، فيذهب انتظاري عبثاً . كنت اخشى ان يعرف بامري احد في البيت ، وكنت أجتنب على قدر امكاني اخفاء مصيبي . وكانت سيدتي ، وكأنها تنبّهت على ما كان يظهره السائق نحوي من علامات العطف ، تتأدى في خشونتها معي . وازدادت عنفاً في معاملتي ، واشتدت رقابتها على السائق ، وسمعتها في ذات خلوة معه ، توجه بكلام قاسٍ ، مزوج بالغضب احياناً ، وبالليونة احياناً . ومن بعدها ، صار السائق نفسه يتهرب مني . وعندما افضيت له بامري ، تنكّر لي ، واصبح هو ايضاً من جملة من كانوا يهزأون بي ويشتمونني . كرهت الناس كلهم ، ولكني كرهت نفسي اكثر . حاولت اكثر من مرة ان اهرب من البيت او اقتل نفسي . ولكن الى اين اذهب . كنت اخاف الشارع ، واخاف صبية الحيّ ، الذين كانوا يلاحقونني ويتحرشون بي . كنت اصلي الى الله ، لكي يخطف روحي مني ، واتخلص من حياتي ..

وصمت حنيقة دقيقتين ثم عادت الى تكملة حكايتها .

- وكان يتروّد على بيت سيدي كاهن ، ويتقبل الاعتراف
 من سيدي كل يوم . كان الكاهن شاباً ، ولكنه كان يبدو تقياً
 وورعاً . هممت مرة بأن افضي اليه بمصيبي واطلب اليه ان
 يساعدني . كان الكاهن يبتسم لي بخنان ، كلما قلت له « صباح
 الخير » وقبلت يده . وكنت اعتقد ، ان لا بد لرجل الله ، ان
 يقف بجانبني في محنتي . كنت آمل ان يتخذ من نفوذه الروحي
 على العائلة ، وعلى السائق ايضاً ما يساعده على تسوية امري . كنت
 اظن ان الكاهن باستطاعته ان يجبر السائق على الزواج مني كما
 كان يعدني . وكنت ارى في هذا الكاهن ، الانسان الوحيد ،
 الذي بإمكانه التأثير على العائلة كلها ، وعلى الاخص على سيدي ،
 التي يتقبل اعترافاتها اليومية ، ويمنحها الغفران الكامل . وكنت
 آمل ايضاً ، ان تعود سيدي ، عن قسوتها علي ، وتتساعد مع
 الكاهن ، على اقناع السائق بالحق الذي يفرضه الدين والايمان
 والوجدان . ولكن كل آمالي هذه خابت ، عندما لاحظت ان
 الكاهن نفسه ، بدأ يغير نظرته اليّ بما اوقعني في حيرة من هذا
 التغير . كان الكاهن يتمتع بعطف سيدي عليه ، وكانت سيدي
 تناوله قطعة من النقود ، وهو يغادر البيت كل يوم . وصرت
 اسأل نفسي ، اذا كان رجل الله ، يهمله امري اكثر مما يهمله امر
 العائلة وكسب رضاها . وفي ذات يوم ، قررت ان افاتحه بمصيبي ،
 فرأيت غير الكاهن الذي كنت اعرفه من قبل . قلت له صباح
 الخير فما اعاد علي السلام . سارعت لاقبل يده فأسرع هو ، ودخل
 البيت ، دون ان يمدّ يده لي . وفي اليوم التالي ، كان يبتعد عني

أكثر من اليوم الاول . قلت في نفسي ، انه لاشك ان تكون
سيدتي المحت له بشيء ، حتى صار يتجنبني . بعد هذا لم يبق لي
أمل ، ما دام رجل الله لا يهتم بي . صرت اشعر انهم يريدون
التخلص مني . وبالفعل بعد اسبوع ، طردتني سيدتي من البيت .
وعندما وجدت نفسي في الشارع ، ضاقت الدنيا في عيني ،
وصارت تراودني فكرة الانتحار ، وكدت انفذ فكري ، ولم
يردعني عن تنفيذها ، صوت خيّل الي اني سمعته ، من هذا الذي
يتحرك في بطني .

وبعد ان مسحت خنيفة دموعها الهائلة على خديها ، وشربت
جرعة من ماء الفنجان ، عادت الى الكمال حكايتها بينما كانت العجوز
تتابع كل خطوة منها :

— بعد ان طردتني سيدتي من خدمتها ، واصبحت في الشارع
اسودّت الدنيا في عيني . وكانت العودة الى حياة التشرّد ،
ومطاردة صبية الازقة . وفي امسية باردة وممطرة ، فيما كنت
منتحية زاوية مقفرة وراء احد الارصفة ، مرّ بي ، شاب شعرت
بانه يطيل النظر الي . ظننت به نية شر ، مثل سائر الشبان الذين
كانوا يلاحقونني ، وادرت وجهي صوب الحائط ، لكي اجعله
يتجاهلني . كنت اخاف شباب الحي كلهم ، خوفاً من الشيطان
بالذات . ثم سمعت وطأ قدميه عندما اقترب مني ، وازدادت
دقات قلبي ، واحسست بمصيبة اخرى تنتظرني . حبست انفاسي
وصليت الى الله ، لكي يبعد هذه الكأس عني . وما
لبثت حتى سمعت صوتاً يناديني ، فما اجبت ولا تحركت . وبقي

الصوت يناديني دون ان يمسنني صاحب الصوت . عندها هدا روعي قليلا ، وادرت نظري الى هذا الشاب . وبدأ لي من هيئته وكلامه ، انه ليس مثل الذين كانوا يطاردونني . احسست في لهجته رنة غير الرنة التي كنت اسمعها من هؤلاء الذين اخبرتك عنهم ، ورأيت في وجهه دلائل العطف والتهديب . فاطمأنت اليه بعض الشيء . ولما سألتني مرة ثانية عن أمري ، اجبته بحياء ، وبصوت يكاد لا يسمع من شدة الفزع . كان مهذباً ولطيفاً ذلك الشاب فادخل عليّ الثقة به . لم اخبره بكل مصيبتني ، ولم يتوسع هو بالاسئلة . كنت لازال اذكر ذلك الشاب الذي كان سائقاً في بيت مخدومي ، وخشيت ان يكون هذا مثله . على اني لا اعلم لماذا كنت مطمئنة اليه . وعندما طلب مني اللحاق به . ووعدني بانّه سيجد لي مأوى وعملاً قمت على الفور ومشيت معه ، كما لو كنت عرفته من قبل . ثم سرنا في الطريق اكثر من ساعة دون ان ينطق احداً بكلمة طوال الطريق ، حتى وصلنا في تلك الليلة الممطرة الى هذه الغرفة . كان ذلك الشاب هو عبيد . اما تكلمة الحكاية ، فتعرفينها .

كانت العجوز مريم تصغي الى حكاية حنيقة وهي صامته . كانت تبدو عليها علائم الشفقة على هذه الفتاة المنكودة ، كما كانت تبدو عليها ايضاً علائم السخط على من كانوا سبب مصيبتها وتشريدتها وشقاقها . وتدفقت الدموع من عيني حنيقة ، عندما اخذتها العجوز بين ذراعيها ، وضمتها الى صدرها بحنان . وكانت العجوز تقول لها :

— الله يلعن اولاد الحرام يا بني . اعترف اني ظننت بك

السوء يا حنيئتي المحبوبة . اعذريني اذا كان بدر مني ايما اساءة اليك
ولو كانت اساءة فكرية فقط . واعلمي منذ الآن ، انك ابنتي ،
كما ان عبيد وعامر ولداي : ان الايام ملاثة بالمصائب ، وعلينا
ان نتحملها بصبر وايمان . الاشرار كثيرون في هذه الدنيا . الله
ينجيّنا منهم . لا اعلم لماذا انقلبت الدنيا هكذا . اخلاق الناس
تغيّرت ، والاوادم قلّوا عن الماضي . اشكري ربك يا حنيئة
لانه اوقعك بيد عبيد . هذا الانسان الذي لا يوجد مثله بين كل
الناس . كانت ساعة سعد وبركة حين التقاك عبيد في الطريق . الله
كريم ورحوم يا بنتي . ستكونين عندنا مثل بنتنا وستكون غرقتنا
الحقيرة بيتاً لك ، ولا بدّ ان يفرجها ربنا عليك وعلينا . اما
الآن فيجب ان تنامي وتأخذي لنفسك شيئاً من الراحة ، لان
قدّامك حدثاً غير يسير ولكننا سنجعله يسيراً بعون الله .

وقبلت العجوز حنيئة ، وكفكت لها دموعها ، واثت لها
بفنجان ماء مع نقطتين من ماء الزهر ، وهي تردّد عليها « لا بدّ
ان يفرجها ربّنا . الله كريم يا بنتي » .

ولم تنم العجوز تلك الليلة ، بل بقيت تفكر بحنيئة ، بماضيها
وحاضرها ومستقبلها . وتسليحت بقلبها الكبير ، وبالتجارب
التي مرت عليها في حياتها الطويلة ، وبما علمته اياها الايام
والمصائب . وكانها جسد الاكبر ، مواجهة الحدث المنتظر .

وفي تلك الليلة بالذات ، سمعت العجوز اينناً يتصاعد من
الزاوية الممدّدة فيها حنيئة . كانت الفتاة تحنق انفاسها ، لكي لا

تسمع العجوز صوتها ، ولا يصل انينها الى اذني عامر . غير ان العجوز التي لم تكن نائمة ، سمعت أنات حنيفة .. فقامت من توها وجلست الى جانب الفتاة المتوجعة . واذا ايقنت ان وقت الوضع يقترب ، سارعت الى استدعاء القابلة التي كانت اتفقت معها ثم احكمت تعليق الشرشف بين شقتي الغرفة ، لكي تخفي عن نظر عامر ، ما هو حاصل الحنيفة . كان عامر يعلم بعض الشيء من امر حنيفة ويرتقب الحدث المنتظر . ولكنه ما ذكر شيئاً ، ولا فاه بايما كلمة عنه . كان الشاب الكسيع يحب حنيفة ، ويحنو عليها . ولطالما شوهد يتجاذب الحديث معها . وكان عبيد يغتبط كلما شاهد هذين الرفيقين يتسامران بتحاب ، على ما كان يبدو له . وكانت حنيفة تبذل كل ما في وسعها ، لخدمة هذا الرفيق المعقد . ولطالما كان عامر يقول في ذات نفسه : « ترى ماذا يحول في خاطر حنيفة ، وماذا سيكون مصيرها ؟ هل تحب عبيد ؟ ليس عجباً ان تحبه ، ومن لا يحبه ؟ هل يحبها هو ؟ هو يحبها بالطبع ، ولكن لماذا يغتبط كلما رأيته يتحدث معها ؟ ربما عبيد لا يغار مني وانا في الحالة التي انا فيها . وقد تكون محبة حنيفة لي مجرد شفقة ، لا اكثر . اني احب حنيفة بكل جوارحي ، ومن صميم قلبي ، ولكن عبيد احق مني بها . ليس ما يهمني اكثر من ان اراها سعيدة في هذا البيت . ان سعادتها تسعدني ، كما ان سعادة عبيد تسعدني اكثر .

كان انين حنيفة يتصاعد اكثر فأكثر ، ويتحول الى صراخ شيئاً فشيئاً ، عندما يداهمها الخاض المؤلم . وكان عامر يسمع

صراخها من وراء الستار الفاصل بينه وبين الماخضة ، فيشعر كأن
نياط قلبه تتقطع ، من الخوف عليها . واكثر من مرة ،
هم بان يقفز الى الجانب الآخر ، لولم تخنه رجلاه الضعيفتان .
واذ بدا له ان الخطر يحدق بالفتاة ، صاح بالعجوز والقابلة ، ان
تستدعيا طبيباً لمعاونتهما . والحج على العجوز ، ان تذهب
وتستدعي الطبيب صادق ، هذا الوجه النبيل ، كما كان يقول عنه
عامر ، او على الاقل تستشيريه في ما يجب ان تفعل . كانت
حنيفة تستغيث بالقابلة والعجوز ، وبجميع القديسين . كانت
تنادي امها من وراء القبر ، وهي تتوجع وتبكي . وكانت
القابلة تلقي على الماخضة كلمات التشجيع المألوفة في مثل هذه الحالة
والتي تجيد ترديدها القابلات العجائز . وكان تؤملها بقرب الخلاص
لذن كل طلقة موجهة . كان الارتباك مستحوذاً على القابلة والعجوز
وعامر ، وبدا لهم في تلك الساعة الحرجة ، ان حنيفة لن تنجو من
الولادة . على ان العناية رفقت بالماخضة التعسة ، فما كادت تظهر
خيوط الفجر ، حتى دوت منها صرخة كصرخة النمر المجروح ،
اعقبها عويل المولود ، مختلطاً بزغردة العجوز . وحملته هذه بين
ذراعيها ، وذهبت به تواء الى شقة عامر ، بينما كانت القابلة تتابع
شغلها مع الفتاة الام .

وكانت الكلمة الاولى التي نطقت بها حنيفة بعد الوضع
« ارونني ولدي . انه قطعة من كبدي ، وعزائي في وحدتي
وشقائي . اذا كنت حبلى به بالاثم ، فساكرس له حياتي ،
واربيه على مكافحة الاثم والحق على الآثمين .

وبكى جميع من في الغرفة لدن سماعهم كلمة حنيقة . كان هذا البكاء بكاء فرح ، للخلاص من حدث كان مخفواً بالخطر . ولم يعد يجول في فكر العجوز ، ايا خاطر ، عما قد يقوله الناس . وعاد عبيد الى الغرفة في الصباح . ورخصت العجوز الى الزاروب ، وبشرته بولادة الطفل . واطلق عليه عبيد منذ اللحظة الاولى اسم « بشير » ، كأنما رأى في ولادة هذا الطفل ، بشيراً بالخلص من فجور الايام وظلم الظالمين . وقال حنيقة : « ان بشيرك هذا سيكون جندياً من جنود الخلاص » وقبل حنيقة في جبينها لأول مرة . ثم التفت الى العجوز مريم وقال لها :

— اما الان ، وقد تم الحدث السعيد ، بسلامة حنيقة وطفلها ، فلم يبق ايا لزوم لكتان ما كنت اشعر به ، ولربما كنت انت ايضاً تشعرين به . ان عامر يحب حنيقة ، وحنيقة تحبه . فلتكن هذه اللحظة سعيدة ختاماً لهذا الكتان . ارفعي يدك يا عمّتي المحبوبة ، وباركي زواج عامر وحنيقة ، وباركي بشيراً ابناً لهما . وقالت العجوز :

— ما هي قيمة بركتي ، انا الخاطئة يا عبيد . غداً ندعو الكاهن ، فيبارك زواجهما ، الذي كنت ارتقب منك كلمة تشجيع لاتمامه . وبعد ذلك يبارك بشير ببركة المعمودية المقدسة .

وقال عبيد وقد بدت عليه علامات الازدراء بما قالت له العجوز مريم .

— الكاهن ؟ وايهم ستستدعين ؟ هذا الذي تنكّر حنيقة يوم

ارادت ان تستجير به على مصيبتها ؟ ام احد هؤلاء الذين
 حدثني عنهم في يوم العيد ، عندما ذهبت مع عامر الى الكنيسة ؟
 انا اعرفك عجوزاً طيبة ، تصلين دائماً وتعملين الخير على قدر
 امكانك . ولكني اعرف ايضاً ، ان معظم الذين يصلون
 ويعترفون ، ويتناولون القربان المقدس من ايدي الكهنة ،
 يعملون « السبعة وذمتها » ويعملون من المنكرات ، ما لا يعمله
 اكثر الناس كفراً بالاديان . من ايام جدنا آدم الى اليوم ،
 والناس يصلون ، ويتعمدون ، ويعترفون للكهنة بخطاياهم ،
 ويتناولون منهم القربان ، ويعملون بمواعظهم ، ويصومون ،
 ويضرعون الى الله ، دون ان يتوصل الفقراء الى الخلاص من
 الجوع ، ودون ان يتخلص المظلومون من الظلم ، ودون ان
 ينتشر العدل بين البشر ، ودون ان يعم السلام العالم . لماذا يصم
 الله اذنيه عن صلواتك ، وتبقيين كما انت ، ويفتح اذنيه الاثنتين
 لصلوات الاغنياء والظُّلّام ، فيزداد غنى هؤلاء ، وظلم اولئك ؟
 لا يا عمي الطيبة ، ليست الصلوات ، ولا المعمودية ، ولا العبادة ،
 ولا الصوم ، ما ينقي النفس ، إنما تنقيها انسانية الانسان ،
 وادراكه الحق ، واتباعه في تعامله مع الآخرين . ما
 رأيك يا عجوزتي المحبوبة ، بمن يعظون بالسلام ، ويصلون
 من اجله ، وهم يحملون في ايديهم سيف النقمة على الغير ؟
 ما رأيك بمن يتعمدون ويعمدون بالماء والروح ، ويظلمون
 من يعمدونهم ، مثلما تعمدوا هم بنفس الماء والروح ؟ ما قولك
 بمن يعظون الفقراء والمساكين بسعادة « الآخرة » ، وهم اكثر

ما يكون استمتاعاً بسعادة « الحاضرة » ضاربين عرض الحائط
 بسعادة الآخرة التي يعظون بها ؟ ما قولك بمن يتناولون القربان
 المقدس ، من نفس الكأس التي تتناولين منها انت ، كما تتناول
 منها الجماعات المحرومة ، بينما هم يجرمون ، بالقوة او بالحيلة ، هذه
 الجماعات من أسباب معيشتها ؟ ان المواعظ والصلوات والمعمودية
 وبركة كهانك « الابرار » لا تطعم خبزاً ، عمرها ما رفعت ظمأً
 ولا اعطت جائعاً رغيفاً ، ولا شفت مريضاً . « كهانك الابرار »
 انفسهم جعلوا من كل هذه الطقوس تجارة ، يربحون منها هم ،
 ويربح منها معهم ، شركاؤهم في تجهيل عامة الشعب . اسمعي يا
 عمتي المحبوبة ، بالامس كنا في جلسة . وكان معنا شاب من الهند
 وكان يتحدث عن جماعة المصلين والمتعبدين والمتعبدين .
 احزري ما كان يقوله هذا الشاب ، عن لسان فيلسوف الهند
 الكبير ... اسمه ... اسمه ... اسمه طاغور . كان يقول : « كل
 صلوات البشر كذب ورياء ما دام المال هو الاله المعبود . » هذا
 فيلسوف ، وليس هؤلاء الذين يخللون لانفسهم ما لا يخللون له
 لغيرهم ، ويعظون الناس ، بما يعملون هم بعكسه على طول الخط .
 قسماً بمن تعبدن يا عمتي ، ان بركتك تسوي الف بركة من بركات
 هذه الطغمة ، المتاجرة بالدين والصلوات والعبادة والمعمودية .
 دعي هذه الطغمة توزع بركاتها على المأفونين بها ، والذين تسحرهم
 شعوذاتها وقديسية تعاويذها . لا عامر ، ولا خنيقة ، ولا بشير ،
 بحاجة الى استمداد البركة عليهم من افراد هذه الطغمة . دعي
 هؤلاء وشأنهم ، ودعينا نحن نهتم بشؤوننا . فاذا كان هؤلاء

يعظون جهلة الناس ، بمواعظ مستوحاة من غاياتهم الدنيوية ،
ويصبغونها بصباغ الروح والرحمة والرفق والمحبة ، ويعمدونهم
بسعادة أبدية في الآخرة ، لكي يحتكروا هم سعادة الدنيا
ورفاهيتها ، فالويل لجهلة الناس ، اذا صدّقوا ما يقولونه لهم .
ان هؤلاء الوعاظ ينعمون بخيرات الدنيا كلها ومكارمها ،
ويحلبون التمتع بها لمن يشاءونهم هم ، ويختارونهم هم ، والذين
يطمئنونهم الى سيادتهم على الناس . انهم يتساعدون وشركاءهم ،
في توزيع السعادة على البشر ، حسبما تقضي موازينهم ومقاييسهم .
ويقضون في الناس على سنة الغيب المجهول ، لا على سنة العقل
والحق . فاذا صدّقهم جهلة الناس ، فما اغني من لهم عقول ، عن
تعاليمهم ومواعظهم ومراسيمهم الدينية . لنُدع هذه كلها لهؤلاء
واولئك ولنسع لاخراج جهلة الناس من جهلهم ، ونفضح
مجهليهم . لنعمل في دنيانا من اجل سعادة دنيانا ، ونترك الآخرة
لأهلها ، اذا كان فيها اهل ، او للذين يحملون بان يصيروا من
اهلها . ان الدين هو الصدق والمعاملة الحسنة ، ومحبة الفقير كما
تحببته انت لا كما يحبّه هؤلاء الوعاظ بالكلام الفارغ ، والصلاة
من شفاههم لا من قلوبهم . انك بنظري اقدس من الف كاهن ،
والبركة منك تسوى كل بركات هؤلاء ، لانها على عكس تلك
بركة طاهرة . من اجل هذا يا عمتي المحبوبة ، طلبت منك ان تباركي
زواج عامر وحنيفة ، وتعمدي بشيرنا الحبيب ببركتك انت . اما
الرسميات التي تسألين عنها ، فاتركيها علي . في هذين اليومين ،
يكون الزواج مسجلاً حسب الاصول .

وسألت العجوز على ذكر التسجيل :

— من سيسجل لك زواجاً لم يتم على يد رجل دين ؟

— خلّ عنك . ليس من يملك حق عدم الاعتراف بزواج زوجين ، هما اراداه . حتى القوانين نفسها لا تستطيع ذلك . هذه الدولة التي نعيش تحت نظامها ليست دولة دينيّة ، ولا يحكمها اساقفة ورهبان . »

— ولكن هو النظام ، شئنا ام ابينا .

وقال عبيد بحزم :

— ولكنه سيتغير ، ولا بد ان يتغير . والذي سيغيره هو نحن . اذا كان النظام يتحكم بمعيشتنا ومصائرنا فليس له ان يتحكم بقلوبنا . ستزين بعينيك الاثنين ، تسجيل زواج عامر وحنيفة . لم تقو العجوز على معاندة عبيد . ولم يكن بمقدورها ان تقابل منطقه بمنطق مثله . ان تجارب الايام التي مرت عليها والمصائب التي حلت بها في حياتها ، والتعاسة التي عاشتها ، على الرغم من تعبدها السنوات الطويلة ، وتمسكها بمواعظ الوعاظ ، الذين ذكروهم عبيد ، ومشاهدتها عيشة الشقاء والحاجة والعبث ، التي تعيشها الجماعات المتعبدة والمستسلمة ، وفوق كل ذلك ، ايمانها الذي لا حد له ، بذكاء عبيد ، وعبقريته وبعد نظره ، كل ذلك جعلها تبدأ تغير نظرتها الى الحقيقة ، ولو تغيراً محفوفاً بالابهام ، كما جعلها تميل ، بعض الشيء ، الى التطلع للحياة ، بالمنظار الذي يتطلع منه عبيد ، هذا الشاب الجبار ، والساحر معاً . وقطعت العجوز الحديث ، وعادت الى اعمالها البيتية ، دون

ان تتأدى في الاخذ والردّ . وراحت تلهي نفسها ، بمنأغة ،
بشير ، والعناية بجنيفة .

وازيح الستار الفاصل بين الشقة التي يضطجع فيها عامر ،
والشقة الممدّدة فيها حنيفة . وجلست العائلة جلسة سادها
الهرج والمرج .

٩

لم يبق لدى عبيد ، بعد زواج عامر وحنيفة ، ما يعوقه عن
الانصراف بكلّيته الى الاشتغال بحركته العامة الشعبية وتقويتها ،
وتنظيمها على اسس ثابتة وقوية . ولم يكن في نية عبيد ، ان
تكون هذه الحركة ، حركة هوسية ، يسهل على خصومها ، من
الطبقات الفوقية ، والطبقات الحاكمة ، الطعن بها ، او شلّ
نشاطها ، او القضاء عليها . كان عبيد يدرك ، ان حركته لن
يكتب لها النجاح ، ما لم تتركز على مباديء ثلاثة ، هي العلم ،
والعمل ، والنظام . كانت هذه المباديء الثلاثة شعار عبيد ،
وكانت الكلمات الثلاث على لسانه دائماً ، في ايّما اجتماع عقد بين
الرفاق . كان يقول : « اننا نبني مستقبلاً ، وهذا يفرض علينا
التضحيات ، ولا بأس الانحني نحن ثمار تضحياتنا . يكفيننا ان
نعدّ هذا المستقبل لمن يأتي بعدنا ، حتى اذا ذهبنا نحن يعيش
اولادنا واولاد اولادنا » . وكان يقول لعامر : « ما دامت حالتك
المرضية ، لا تسمح لك بمشاركتي في ناحيتي العمل والتنظيم ،
فسأعهد اليك بقسط من المهمة الاولى . سأزودك بعد الآن ،
بكل ما يصلني من الكتب والكراريس والمنشورات والبحوث ،
ذات الصلة بعملنا ، واتفعاون معك في تفهم الاسس ، التي يجب ان

تقوم عليها الحركة ، والطرق التي يجب ان نسلكها للسير بها سيراً واعياً اولاً ، ونضالياً او ثورياً ، عندما تقضي الحاجة . ان الكثيرين من رفاقنا ، يجهلون حقيقة الحركة ، بل كثيرون منهم يجهلون حقيقة انفسهم بالذات ، ولا يدركون اكثر من كونهم ناساً ، يشتغلون او لا يشتغلون ، ويعيشون دون ان يكون عندهم ايما فكرة ، في كيف يجب ان يعيشوا . لنجعلن بعد الآن ، من هذه الغرفة الحظيرة ، نواة لمدرسة ، تتدارس فيها العامة شؤون حياتها ، وتستوحي منها السبل القمينة بان توصلها الى حياة افضل واسعد . ان طريقنا شاقة وطويلة ، وسنلاقي فيها كثيراً من الصعوبات والعراقيل ، التي سيضعها امامنا اعداء العامة ، ولكننا لا شك واصلون الى نهاية الطريق ، اذا صمّمنا على ان نصل . »

كان عدد المنضمين الى حركة عبيد ، يتزايد يوماً عن يوم . وكان هؤلاء يجردون في عبيد ، الزعيم والمدير والقائد . كان عبيد اقل الرفاق كلاماً . ولكنه عندما يتكلم ، ينصت الجميع . كانوا يصغون الى ما يزودهم به من النصائح والآراء ، التي يحصل عليها ، في مطالعاته ومطالعات عامر ، عن سير الحركات المماثلة لحركته في البلدان المتقدمة . كان عبيد يضيفي على الاجتماعات جواً من المهابة والجد ، وكان الاخوان يفتنون بهذا الفتى الغريب العجيب ، والساحر ايضاً . ولطالما شوهدوا يتطلعون اليه ، كما يتطلع التلاميذ الى معلمهم ، او الجنود الى قائدهم . كان محبوباً

ومحترماً في نفس الوقت ، وكانت النكتة على طرف لسانه ،
يطلقها عفواً ، فيشيع جواً من المرح ، ثم يعقبها بقول حازم
وحاسم ، ينهي به ايّما جدل او نقاش ، ويكون قوله القول
الفصل .

كانت اجتماعات الرفاق المتزايدين ، تعقد في بيت هذا او ذاك
منهم ، واحياناً في خلوات ليلية ، في اماكن بعيدة عن ضجة
المدينة . كان الرفاق يتجادلون ويتشاحنون ، وفي بعض الاحيان
يختصمون ، فيبادر عبيد الى غربة اقوالهم ومشاحناتهم ، والتفريق
بين قبحها وزوائها ، ويعيد الجو الى جده وهدوئه ، ويتلاقى
الرفاق ، بعد ان يكون خيل للمتجددين في الحركة ، انهم لن
يتلاقوا ابداً . كانوا يأتون الاجتماعات مختلفين ، ولكنهم كانوا
يخرجون منها متفقين ومتضامنين . وعندما كان عبيد يعود الى
مسكنه ، في ساعة متأخرة من الليل ، كان يقص على عامر
وحنيئة والعجوز ، ما جرى في الاجتماعات ، وما سيجري في
الاجتماعات الالية . ثم يجلس الى جانب عامر ، ويبحث معه عما
يكون طالعه في السهرة والنهار . وقلم غط عبيد في النوم اكثر
من اربع ساعات في اليوم .

كان اهمّ ما يشغل عبيد ، ويسعى اليه ، ان تدرك الطبقة
العامة العاملة ، ادراكاً واعياً ، ما هي حقيقتها ، وما هو مركزها
في المجتمع ، وما هو حقها عليه ، وما هي واجباتها نحوه ، فلا
تغمض عينها عن حقيقتها ، ولا تنازل عن حقها ، ولا تتقاعس
عن واجبها . كان يقول لرفاقه ، ان الطبقات الفوقية ، التي

تنبثق منها الحكومات دائماً ، ما زالت تعير الطبقة العامة بالجهل ، وفي نفس الوقت تحرص على تجهيلها ، لكي تبقى هي متفوقة وحاكمة . فاذا اردنا ان نقضح رياءها ، ونحد من ظلمها على الجماهير ، علينا ان نتقف انفسنا اولاً ، ونقابل وعيها على مصلحتها الخاصة ، بوعينا نحن على مصلحة العامة ، التي هي بالضبط مصلحة بلادنا ، بل مصلحة شعبنا ، الذي تشكل طبقتنا غالبية الساحقة .

كان رفاق عبيد ، قبل الانضمام الى حر كته ، يقضون فراغ اوقاتهم باللهو والعبث والمجون . كان العاطلون عن العمل منهم ، يعيشون عيشة التشرد ، لا يردعهم عن عمل الشرّ ايا رادع . كان منهم الذي يسرق ، والذي يجرم ، والذي يقضي اكثر ايامه في السجون ، والذي يختلس مال الغير . وكان الذين يمرّ عليهم السعد بين حين وآخر ، ويجدون لهم عملاً ، يكسبون فيه بضع ليرات او بضعة قروش ، يبتاعون من كسبهم ما يقتاتون به ، ويصرفون الباقي ، عندما يبقى شيء ، في السينما ، او في بيوت المقامرة ، او في المقاهي ، او في سوق الدعارة القذرة ، او ايا طريقة اخرى من طرق اللهو والعبث . كانوا قطيعاً من البشر ، تسيره اهواؤه في يومه ، ويسيره رعاته ، الى المصير الذي يبغيه له هؤلاء الرعاة ، القساة القلوب في الغالب . ولطالما ساءل عبيد نفسه ، ما اذا كانت هذه الجماعات البسيطة والغفيرة ، هي من فضيلة الانسان ، ام من فضيلة الحيوان ، الذي لا يفرق عن سائر الحيوانات ، التي تدب

على الاربع ، الا بالنطق .

واخذ عبيد يلاحظ في الرفاق ، مع مرور الايام ، تغيّراً
ظاهراً ومحسوساً . وما عاد يسمع منهم احاديث القمار والبغي
والسبق الجنسي ، ولا وصف افلام هوليوود الخلاعية ، ولا
الاشادة بزعامة الاقطاعيين والرجعيين ، ولا مديح ابطال الجرائم
واللصوصية ، ولا التجادل في موضوعات دينية وطائفية . كانوا
يتحدثون عن اسباب معيشتهم ، وكيف يجدونها ، وماذا يجب
عليهم ان يعملوا ، لكي يعاملوا معاملة الانسان ، ولكي
يتحرّروا من مر كب النقص والخوف . وادرك عبيد ، ان هذه
الطبقة من البشر ، لا ينقصها العقل ، كما يقول عنها مستثمروها
ومستعبدوها الا فتاكون ، بل ما ينقصها ، هو التشقيف والتنوير
والتنظيم . وجعل يزداد حقه اكثر فاكثر ، على مستعبي
العامة ، ومجهليها ، ومستغلي جهلها . وشعر عبيد ، بان حقه
هذا ، المتغلغل في داخله ، الذي كان هو يصفه بالحق المقدس
والخلاّق ، بدأ يتسلّل الى نفوس رفاقه ايضاً ، وبان له شعاع
من الامل ، بتطور خطير وقريب ، يؤمل معه بتبدّل الواقع
المزري ، الذي تعيشه عامة الشعب ، الساحقة الكاسحة .

وقال عبيد لعامر في ذات يوم :

— اسمع يا عامر . يخطر في بالي خاطر ، ارجب في ان اعرف
رأيك فيه . يخيّل اليّ ، ان الطريق انفتحت امامنا لكي نعمل
شيئاً اوسع واكثر نفعاً ، من الاجتماعات التي نعقدّها مع

الرفاق . ان هذه الاجتماعات ، مهما تكاثرت عدد الذين يحضرونها ، تبقى محدودة الاثر ، اذا بقيت اجتماعات وحسب ، بين من يتاح لهم المجيء اليها . ان هناك جمهرة كبيرة من امثالنا ، نحن ابناء العامة ، عمالاً وفلاحين ومهنيين ، لا هي تصل اليها ، ولا باستطاعتنا نحن ان نصل اليها ونجمعها معنا . وليس من الانسانية في شيء ، ان نعنى بانفسنا فقط ، ونترك هذه الجمهرة ، في حالتها الراهنة من الجهل والضعة ، والظلم والامتهان . اما الفكرة التي تخطر في بالي ، وتراودني دائماً ، فاحسب انها ، ابعد اثراً من اجتماعات ، بين عدد من الرفاق ، في غرفتنا او في بيوت رفاقنا . ان هذه الاجتماعات بالذات ، هي التي اوحى لي الفكرة ، والروح الجديدة ، التي ألمسها في المجتمعين ، هي التي تدفعني الى السعي من اجل تنفيذها . ما قولك يا عامر ، في اصدار نشرة دورية ، او جريدة ، اذا شئت ان تسميها كذلك ، نعمتها على اكثر من الرفاق الذين يجتمع بهم . ان القرى ، القرية والبعيدة ، تغص بالكادحين والمعذبين ، ومن الحيف ان نهمل امر هؤلاء كلهم ، ونقصر عملنا في نطاق ضيق ، وعلى حفنة صغيرة منهم .

لماذا لا نسعى لايصال الصوت الذي نرفعه هنا ، الى ابعد من هذه الحفنة ؟ يجب ان نفعل ذلك ، اذا كنا مخلصين لعامة شعبنا كلها . فنحن لسنا وحدنا تحت النير . فاذا اكتفين برفعه عن رقابنا وحدنا ، وتركناه فوق رقاب الكثرة ، لا نكون فعلنا شيئاً ابداً ابداً .

وانفرت اسارير عامر عن ابتسامة ، فيها دلائل العزم من

جهة ، ودلائل تقدير صعوبة تنفيذ الفكرة من جهة ثانية ، وقال لعبيد :

- ما كل ما يتمنى المرء يدركه يا عبيد ، ليس هناك احسن من فكرة مثل هذه . ولكن كيف السبيل الى تحقيقها ، وليس منا من يملك مالاً ، ولا من يحصل على اكثر من قوت يومه ، وهذا بعد شق النفس . وفضلاً عن ذلك ، من هم الذين سيكتبون فيها ، واين نطبعها ، وكيف نوزعها ؟ وهل تظن ان السلطة تسمح لنا بها ؟ هذه امورٌ يجب الى تفكر بها ، قبل اياما شيء آخر . وقال عبيد :

- المال ، ليس لنا حاجة في مبلغ كبير منه . ماعون واحد ، او ماعونان ، من الورق الرخيص ، نحشوه باحرف صغيرة ، نوروا ثلاثة . والمطبعة ، نستأجرها بضع ساعات في احدى ليالي الاسبوع ، عندما تكون متبطلّة ، واشتغل عليها انا والرفيقان الطبّاعان ، نديم ومصطفى . من يكتب في النشرة ؟ اولاً انت ، وثانياً انا ، وليس عندي ايّما شك ، بانه يوجد بين المثقفين التقدميين ، من يمدّنا بالمساعدة ، من وقت الى آخر . هل تظن ان هؤلاء الكتاب احسن حالاً منا . انهم منا وفينا . ليس لنا حاجة بمن ينظم القصائد العشاء ، ولا بمن يدبج مقالات طنانة وجوفاء ، بلغة سيبويه الفصحى والمعقدة ، بل حاجتنا الى من يكتب حياتنا ، ويبسط امانتنا وآمالنا ، بلغة بسيطة وسهلة الفهم . ان المثقفين الاشراف سيكونون عوناً لنا في عملنا . هذا او كده لك كما او كد ان الشمس مشرقة ، او كما او كد ، انه ليس في جيبك

قرش واحد . والاجازة من السلطة ليس لها ايما لزوم ، لان
نشرتنا هذه ستكون نشرة دورية وليس جريدة ممتازة ، يومية
او اسبوعية ، وسياسية ما شاء الله . المسألة ليست من الصعوبة
بقدر ما تتوهم . ربع ليرة او نصف ليرة من كل رقيق في الاسبوع .
هذا كفاية . متى وجدت الارادة يهون الامر . غداً سأعرض
فكرتي على الرفاق ونرى .

ودبت الحماسة في حنيفة . وحملت بعينها الحلوتين ، لدن
اصفاها الى الحديث ، وصاحت :

— هلا . هلا . أنا من جهتي لا اقرأ ولا اكتب ، ولم اتعلم في
حياتي حرفاً . فاذا كنت حرمت نعمة العلم ، باستطاعتي ان
اساعدكم بشيء ما باللف والتوزيع على الاقل . ان اعز شيء على
قلبي ، ان اعلم ابني بشير ، لكي لا يكون مثلي جاهلاً .
وهرولت العجوز من وراء الباب ، حيث كانت تغسل خرق
بشير ، وقالت :

— احسبوا حسابي أنا ايضاً . باستطاعتي ، ولو كنت عجوزاً ،
ان اعمل شيئاً ما ، حتى اذا مت تترحمون علي وتذكرونني بالخير .
وكاد عامر ان يقفز من فراشه ، لو لم تخنه رجلاه ، وشد
بيده الضعيفة على يد عبيد ، وتلاصق الرفيقان ، على قبلات الفرح
والامل . وقال لعبيد :

— اذا استطعنا تنفيذ الفكرة ، لن تبقى حالتني المرضية
هاجسي الوحيد ، ولن اعيش عمري كله دونما نفع . انك جبار يا
عزيزي عبيد ، والجبايرة لا تقف بوجههم صعوبات . ليتني اقدر

اعمل نصف ما تعمله انت . ولكن على كل حال ، سأعمل ما وسعني
العمل ، لكي اكون شيئاً ما ، واسهم في الحركة الشريفة التي
تقودها انت . اذا فعلت اكون وفيت قسطاً متواضعاً فيها ،
ولا احسب نفسي عندئذٍ ، كما احسب الآن ، طفيلياً .
وعادت حنيقة الى مناغاة بشيرها ، وهي تمني نفسها ، بان
الزمان الذي سيعيشه ابنها ، سيكون احسن من الزمان الذي
عاشته هي ، ما دام هناك رواد افذاذ ، مثل عبيد وعامر
ورفاقهم ، يعملون لقلب الزمان الى الاحسن .

كان اجتماع الغد في بيت العم بو محمود . وكان بو محمود ارملاً ،
منذ صرعت امرأته ورضيعها عصام ، في تظاهرة تموز ، قبل ثلاث
سنوات . كانت ام محمود حاملة طفلاً عصام بين ذراعيها ،
وزاهبة الى السوق ، عندما صادف مرور مظاهرة العمال والطلاب ،
ضد الغلاء والبطالة ، وضد مشروع الحلف ، الذي تقترحه الدول
الغربية ، بحجة تنظيم الدفاع عن البلاد العربية . وكان البوليس
يطلق الرصاص على المتظاهرين ، فأصابته رصاصة طائشة ، خرقت
صدرها وقتلتها مع رضيعها عصام . وأبى بو محمود ان يتزوج مرة
ثانية ، وانكر نفسه ، لكي ينصرف الى تربية وحيدته الباقي
محمود . كان بو محمود لا يثق كثيراً بالنساء ، وهو لا يريد ان
يدخل على بيته « خالة » لمحمود . كان يخشى ان يتزوج ، ويضع
ابنه في يد امرأة غريبة ، لا يمكن ان تعني به كما كانت تعني به
امه . وبو محمود يعرف نفسه نتوجاً الى درجة لا يحدها عقل .

فهو يستولد ايما امرأة اذا اقترب منها مرة واحدة . وهناك المصيبة ، اذا استولد زوجته الثانية اولاداً ، سيكونون مع امهم حزمة واحدة ضد محمود . مسألة زواج ثان ، ليست ذات موضوع عند بو محمود . كل ما يتمناه ان يكبر محمود ويتزوج . وهو يقسم انه سينزوجه عندما يصير عمره خمس عشرة سنة ، ليس اكثر .

وكان بو محمود يخاف على وحيدته ، ان تلفح الشمس اذا خرج في النهار ، وان يصاب بركام اذا بلل جسمه المطر . كان يرافقه اينما ذهب ، ويوصله بنفسه كل صباح الى دكان الفوال « سعدون » حيث كان يشتغل ، ثم يعود ويصطحبه الى البيت في المساء . كان بيت بو محمود غرفة واحدة ، في ضاحية المدينة الغربية ، ولم يكن في هذه الغرفة شيء من اسباب الدفء . كان الاب يطبخ الطعام بنفسه ، ويغسل ثيابه و ثياب ابنه بيديه . وكان ينتظر ذلك اليوم السعيد ، عندما يشب محمود ، ويجد له ابنة ، يزوجه اياها ، ويصير في البيت امرأة ، تعزيه عن موت امراته المرحومة ، وتلد له حفيداً ، يعزيه عن خسارته عصاماً . كان من يرى بو محمود ، يظن ان سنّه لا تقل عن السبعين ، مع انه كان ابن ستين . منذ قتلت ام محمود وابنها عصام ، على الشكل الذي قتلا فيه ، هرم بو محمود . وبلغ به العجز حداً افقده نصف قواه وثلاثة ارباع بصره . على انه كان يتصنع القوة من اجل وحيدته محمود . وعندما انخرط محمود في حركة عبيد ، ازدادت مخاوف ابيه عليه .

كان محمود شغياً ناهياً ومجتهداً ، وكان عارفوه يقولون انه

« يظلمط » من الزرد المثلث . ولطالما تضايق من شدة خوف ابيه عليه . فهو لا يريد ان يعامل معاملة الاطفال ولكنه في نفس الوقت ، لا يريد ان يكسر خاطر هذا الأب المحزون ، بايما كلمة تأفف . كان الأب يحب ابنه حتى العبادة ، وكان الابن يحب اياه بالمثل ، ولا يخرج عن رأيه بايما شيء . وعندما كان محمود يدعو رفاقه للاجتماع عنده ، كان بو محمود يعمل كل ما بامكانه ، لارضاء ابنه وضيوفه . كان يكدّس الغرفة قبل ان يحضروا ثم يعود ويكدسها بعد انصرافهم ، وكان يوفّر شيئاً من مصروف الاسبوع ، ويشترى به نصف اوقية بن ليقدم لهم قهوة في زيارتهم الاسبوعية لوحده . وبعد ان تكرّرت اجتماعات الرفاق في بيت بو محمود ، نمت فيه عاطفة حب لهؤلاء الفتيان والشباب المتحمسين ، وبدأ يشعر بشيء من الاطمئنان ، على ما كان يخاف عليه من لفح الريح . وكان بو محمود ، كلما رأى رفاق ابنه يحادثونه او يصغون الى حديثه ، يمتلي زهواً بالشأن الذي صار لابنه عند هؤلاء الناس . ولكنه لم يكن يتمكن من اخفاء تخوفه ممّا قد يحصل ، اذا لم يتروّ هؤلاء الشبان فيما يعملونه او يعزمون عليه .

كانت دهشة المجتمعين بالغة كل البلوغ ، عندما فاجأهم عبيد بفكرته الجريئة . وجعلوا يتساءلون ممّا يجول في رأس هذا المغامر . وبعد ان شرح لهم فكرته ، مرّت خمس دقائق صمت ووجوم ، قطعها العم بو محمود بصوته الابهج ، من كثرة ما انصبّ في خياشيمه ، من دخان التبغ الرخيص ، طوال اربعين

سنة ، وقال موجهاً كلامه لعبيد :

— انك تذهب بعيداً يا ولدي ، وحماستك تسبق تفكيرك .
أيوه . هل تظن ان اصدار جريدة امر سهل ؟ أيوه ، من اين المال
ورأس المال . هل حسبت حساب هذا أيوه ؟ من هم الذين
سيملاؤن جريدتك بالكتابات والافكار ، ومن يطبعها لك ،
واية حكومة تعطيك رخصة بها أيوه ، هذا ايضاً لم تحسب حسابه
على ما ارى . الجريدة يلزمها رجال مال ، ورجال قلم ، ورجال
نفوذ ، أيوه ، وهؤلاء ليس عندنا ولا واحد ، ولا واحد ، أيوه
والجرائد عندنا اكثر من الهم على القلب ، واصحابها ، يا لطيف ،
ينفقون ذنب العصفور ، ويأكلون البيضة بقشرها . أيوه . طلوع
الدرج درجة درجة يا ابني . أيوه . لا تهوّر يا عبيد ، ولا تهوّرنا
مهلك . حماسة الشباب شيء ظريف ، ولكن الحكمة تقضي بان
لا ندعها تهوّرنا . عدم المؤاخذه أيوه . اسمع من هذه الذقن
يا ولدي . الدهر علمني ، والمصائب قلّعت اسناني ، والدهر
غدّار يا عبيد ، والايام اغدر واغدر . أيوه . يا ما مرّ عليّ من
ضربات ، وانا اخاف عليكم من اولاد الحرام . اسمع مني ولا
تؤاخذني . أيوه .

وانتصب عبيد واقفاً ، كأنما كان يبدو له ، ان الوقوف
يعطيه قوة اكثر للاقناع ، واجاب على نصائح العم بو محمود ،
بمثل ما اجاب عامر ، ولكن باسهاب اكثر .

— ليس في الامر ايّما تهوّر يا عم بو محمود . وهو ليس صعباً
بقدر ما تظن . انا ما جمّعتكم بهذا الاقتراح ، الا بعد ان فكرت

فيه كثيراً ، وضربت كل الحسابات . المال القليل الذي نحتاجه
نجمعه بالليرة والقرش ، نجمله من فلس الارملة . والمقالات
نكتبها نحن ، ويساعدنا اصدقاء لنا ، وهم اكثر كثيراً مما تظن
او بما نعرف . اكثر الذين يكتبون هم مثلنا تماماً . لا يخدمك
ما تراه من دلائل النعمة عند البعض منهم . هؤلاء قليلون ، وهم
يرجون من كتاباتهم ، لانهم يبيعونها ببيع السلع في سوق المزاد ،
ويبيعون معها ضمائرهم ، ووطنيتهم ايضاً . اما الكتاب الشرفاء ،
فكلهم معنا ، لانهم كلهم مثلنا . اني اؤكد لك هذا يا عم بو محمود
ان جريدتنا لن تكون مثل بقية الجرائد ، ولا يهمنا ابداً ان
تكون منمقة وبليغة ومزوقة ، ولا يهمنا ان يكون فيها مقالات
فلسفية ، من المتفلسفين ، ولن نجعلها صحائف مملوءة باعلانات من
اجل الربح . اما النفوذ الحكومي او غير الحكومي ، فليس لنا
ايما حاجة به ، لكي يشدّ ازرنا . نحن نريد ان تصدر هذه النشرة
ليس لان علينا ان نكتب ، بل لان في حياتنا ومشاعرنا ، ما لا
يجوز ان يبقى مطموساً . كل ما نرمي اليه ، ان نسمع صوتنا
الى الشعب البسيط ، الذي نحن منه ، ونبرهن على اننا نحن ابناء
العامة ، لسنا نباحين كالكلاب ، كما قال عنا بوقاحة وقلة ادب ،
احد وزراء الدولة الاميركية ، قبل اسبوع فقط . الم يصلك
يا عم بو محمود ، ما قاله هذا الوزير المأفون ؟ وما قاله ذلك الوزير
تقوله هنا كل يوم ، ولو بصراحة اقل ، جماعات من الحكام
والوزراء والكبار . فهل ترضى يا عمنا العزيز ، ان يقال عنا ،
نحن ابناء العامة ، عامة هذا الشعب الطيب ، اننا

كلاب نبّاحون . هل ابنك محمود كاب ؟ انا لا ادّعي ان حماسة الشباب تكفي وحدها . نحن بحاجة ماسة الى حكمة الشيوخ . ولكن حكمة الشيوخ ، اذا لم تقترن بحماسة الشباب ، لا يكون منها كبير نفع في حياة البشر ، ويبقى الناس كما هم ، الكبير يأكل الصغير ، والعبد يبقى عبداً ، ولا يولد غير العبيد . ليتك رأيت العجوز مريم بالامس ، عندما كنا نتحدّث في غرفتنا عن الجريفة فهي لم تجبّد الفكرة فقط ، بل تطوّعت لايمّا خدّمة بامكانها ان تساعدنا بها . ومريم على ما تعلم ، نطّت عن السبعين واني على اكثر من اليقين ، انك انت ايضاً ، ستمدنا بالرأي ، ولن تحرّمننا من مساعدتك لنا .

وقال بو محمود وهو يبتسم :

— تعني مريمك العجوز ؟ هه ... هه عدم المؤاخذه وهل تظن يا عبيد ، انه مخطيء او حمار ، من يقول ان المرأة بنصف عقل ؟ آيوه المرأة تسكر من زبينة ، وبقدر ما يكون عقلها صغيراً ، تزداد حماسها لكل شيء . اذا كنت ستعوم على جراب مريم ، انخلي يا ليلي آيوه .

وفيا كان الرفاق غارقين في الضحك ، انبرى حسن الصغير ، مدلل العمة مريم ، منذ دخل في حلبة الجماعة ، وقال وهو على اشد ما يكون من الانفعال :

— دعنا من الهذر يا عم بو محمود . مالك وللعمة مريم ، هذه العجوز الطيبة الى آخر حدود الطيبة . اننا لا نطيع ان يقال عن مريم شيء مثل الذي قلته . انها امنّا كلنا . يا ليت كل الكبار

مثلها . الرفاق كلهم من رأي عبيد . اسألهم واحداً واحداً ، ولا تنسَ ان تسأل ابنك محمود بالذات . ليس منا من يفهم اكثر من عبيد . انا من جهتي ، اذا قال عبيد ان ماء البحر حلو ، أشرب منه واستحليه ، كما لو كان ماء السكر ؟

وحانت التفاتة من حنيقة الى حسن ، وابتسمت لكلماته البريئة ، الصادرة عن قلب ابيض كالثلج ، وغمزته غمزة ، تعني انها معه في كل ما قاله عن مريم وعبيد .

ووافق نديم ومصطفى على ان يتعهدا طبع النشرة اثناء الليل ولو اضطرا لسهر ليلة كاملة كل اسبوع .

واوما محمود لأبيه ، انه من مجبذي رأي عبيد ، وأشار اليه ان لا يمانع فيه ، لان ليس في المسألة ما يدعو الى التخوف . واخذ سليم كوب الماء ، وشرب سرّ نجاح المشروع . وبادر كل من الرفاق الى تأييد عبيد .

كان حاشد صامتاً عندما كان الرفاق يتناوبون الحديث ، ويدي كل منهم برأيه .

واختلطت الاصوات ، بين اكثرية تطالب بان يبدأ العمل فوراً ، واقلية ترى ان تعدّ له الاستعدادات الضرورية ، لكي لا يفشل المشروع في اول الطريق .

وكاد عبيد يطلب الى المجتمعين ، ان يصوتوا على اقتراحه ، فاما قبوله والمباشرة في العمل ، او تأجيله الى وقت آخر . وفيما كان عبيد يهّم بطلب التصويت ، خرج حاشد عن صمته ، واندفع في الكلام ، وكان يوزّع نظراته على المجتمعين ، ويصوّبها بالاكثر

على العم بو محمود ، ومن كان يطالبون بالتأجيل ، بقصد التهيئة
وأخذ الاستعدادات الضرورية .

-- ليس من بينكم ايها الاخوان ، من قاسى في حياته مثلما
قاسيت انا . وليس من بينكم من مرّ عليه ، مثلما مرّ على هذا
الرأس (وضرب بيده على رأسه) . عشت عمري كله ، وانا
اليوم ابن ثلاثين سنة ، او خمس وعشرين اذا اردتم ، عيشة الفقر
والتشرد . ابي وامى ماتا من الهم والقلة . اخي الوحيدة ، لا
اعرف عنها شيئاً . قد تكون هي ايضاً ماتت ، بل اكثر ما
اقناه ان تكون ماتت لكي لا تعيش عيشة البنات المشردات
التاعسات ، من حضن رجل فاسق ، الى حضن رجل اكثر فسقاً
من الاول . الجوع كافر يا جماعة الخير ، وهو سبب كل تقيصة .
خمس مرات دخلت السجن . مرة لاني رددت بوجه معلمي في
الشغل ، الذي طردني لغير سبب . اى والله ، لغير سبب . ومرة
لاني ضربت رجلاً سكيناً في بطنه ، لانه تحرّش باختي ، قبل ان
تذهب الى حيث لا اعلم . وثلاث مرات لاني سرقت ما اسد به
جوعي . تعودت على السرقة والكذب وضرب السكاكين
والتشليح ، وكل ما انزل الله ، او الشيطان ، من رذالات . كل
هذا تعودت عليه ، لاني ما كنت اجد عملاً يقيني شر الشقاوة ،
واعيش منه بشرف . ما كنت اجد احداً يهتمّ امري . كنت
استجير بالختار فلا يجيرني . استنجدت بأكثر من انسان ، فلم
ينجدني احد . كاهن ضيعتي بالذات ، قلب وجهه عني ، كأن
وظيفته هي اقامة الصلوات والقاء المواعظ والارشادات . عارف

بك نائب منطقتنا ، دبر لي شغلة ، عندما كان مرشحاً للنياابة
وبحاجة الى اصوات ، وبالفعل اعطيته صوتي واصوات من أمون
عليهم . وبعد ان وصل الى الكرسي ، نسيني وافلنت الشغلة مني
بعد اسبوعين فقط . اي والله اسبوعين ، لا اكثر ولا اقل .
ايام وليالي نمتها بدون أكل . كنت اركض وراء الشغل ،
والشغل يهرب مني . كنت احياناً ارتكب الجريمة ، لكي
يسجنوني . الحكومة مجبورة ان تطعم المحبوس ، ولكن ليس
من يجبرها ، على توفير الشغل للناس ، لكي يأكلوا لقمتهم بشرف .
الجمعية الخيرية لا تساعد الا من كان عاجزاً او مريضاً او من
كان معه ورقة توصية من احد الكبار ، وانا والحمد لله صحي مثل
الحديد ، وليس عندي من الكبار احد يتطلع الي . كنت مجرمًا
غصباً عني ، ومنبوذاً غصباً عني ، ومتشرداً غصباً عن دين
ارادتي . خذوها مني نصيحة يا اخوان ، ولو قلتم اني اخوت .
ليس بين الحكام والكبار والاعنياء والزعماء ، من يسأل عنا نحن
الكادحين ، ما دمننا نحن لا نسأل عن انفسنا . الحكمة يا عم بو
محمود مليحة ، ولكنها لا تطعم لقمة خبز ، اذا اتكلنا عليها
وحدها . يجب ان نقلع شو كنا بأيدينا ، اذا اردنا ان نعيش
عيشة البشر . خل الحكمة وفضائلها للمبسوطين في حياتهم ،
الحكمة توافق هؤلاء ولكنها لا توافقنا نحن . نحن لازمنا حدة ،
لازمنا هوس ، لازمنا حماسة ، لازمنا ثورة .

وقعد حاشد ، ومسح العرق عن وجهه بكم قميصه المهلهل .

وسمع صوت يقول :

- يظهر ان حاشد اشتاق الى ايام الجلس .

وعاد حاشد الى القول ، وهو ينتفض من السم :

- اي والله ، استقت الى الجلس . على اني اذا دخلته هذه

هذه المرة ، ادخله شريفاً ، ومن اجل غاية شريفة ، وسيكون ورائي من يسأل عني ، ما دمتم انتم موجودين يا اخوان ، وليس كالمرات السابقة ، التي كنت أرمى فيها بالجلس مثل الكلب الاجرب ، واخرج منه مثل الكلب « الكلبان » بانتظار العودة اليه مرة ثانية .

وساد الوجوم على المجتمعين بعد خطبة حاشد الموفقة . وظهرت دمعة في عين العم بو محمود .

كان عبيد يصغي باغتباط الى حديث الجماعة . وكان يرى في مناقشاتها ومشاحناتها ، تحولاً محسوساً ، في طريقة تفكير الرفاق ونظرتهم الى شؤونهم . وكانت تبدو له تباشير الامل بنجاح الخطة التي تشغله في نهاراته ولياليه . وكان محصول الجلسة ان تغلبت الحماسة على الحكمة ، والاقدام على التروي والتردد . وما كاد عبيد يطلب الى المجتمعين ، ان يتعهد من يرغب منهم في المساهمة بالمشروع ، كل على قدر امكاناته ، حتى بدأ نوع من السباق بينهم . حاشد وحنيفة ومحمود وسليم وحسن ، يأخذون على عاتقهم ، ايصال الجريدة ، الى جميع الاحياء والقرى والمصانع . نديم ومصطفى ، يطبعانها في الليل . حنيفة تقول ، ان العمة مريم تلف اعداد الجريدة رزماً رزماً ، وعامر يسهر على ترتيبها ، ويكتب فيها بقدر ما يستطيع . العم بو محمود

بالذات ، تحمّس وتطوع بجمع ثمن الورق من معارفه وجيرانه ،
وافتح قائمة التبرع بليوتين . عبيد يشرف على الجريدة ،
ويكتب هو وعامر فيها ، ويستكتب الاصدقاء الذين يثق بغيرتهم
على الحركة وعلى الطبقات العامة الكادحة .

وكانت الحماسة على أشدها ، عندما قال عبيد :

- اذن بقي علينا ان نختار اسماً لجريدتنا ، او نشرتنا على
الاصح . ما قولكم اذا سميناها « صوت الشعب » ؟
وانبرى حاشد الى القول :

- ولماذا لا نسميها « ثورة الشعب » ؟

واجابت الحكمة على لسان العم بو محمود :

- لا تستعجل يا ابني ، يا حاشد . في العجلة ندامة . لا نريد
ان نبدأ عملنا بالتحدي .

وقال حاشد مبتسماً ، وكأنه اراد ان « ينكرز » :

- عدنا الى الحكمة ، يا عم بو محمود ؟

وقال نديم ومصطفى :

- لنسميها جريدة العمال .

وسمعت اصوات تقول :

- بل يجب الا تكون جريدتنا محصورة بالعمال . ان في

الشعب من هم مثلنا واسوأ حالاً منا . ولا يجوز ان نتجاهلهم .

العمال ليسوا وحدهم ابناء العامة المظلومة . تسعون بالمئة من

الشعب ، عامة ومظلومة .

ووضع عبيد حداً للمناقشة وقال :

— ليس المهم هو الاسم ، بل المهم هو العمل .
واتفق الجميع على ان يكون الاسم « صوت الشعب »
وبعد اسبوع صدر العدد الاول من « صوت الشعب » .
كان ذلك في صبيحة اول ايار .

١٠

كان عبيد يسهر على ان تكون « صوت الشعب » جريدة
شعبية حقاً وصدقاً ، تكتب للشعب ، ولا تستوحي ما تكتبه الا
من حقيقته ، ومن حياته اليومية والمعيشية . كان يريد لها تعبيراً
عن آلام الشعب وآماله ، ومدرسة توجهه الى مصيره . كان عبيد
لا يترك مقالاً او سطرأ ، يُكتب فيها ، قبل ان يطلع عليه
بنفسه . كان يخشى ان يدس بين سطورها ، ما لا يكون متفقاً
مع التوجيه الذي من اجله عمل ما عمله لاصدارها . كان يستشيط
غضباً ، كلما قرأ خبراً في جريدة ، او مقالاً في مجلة ، او فقرة في
كتاب ، من شأنها اشاعة روح الهزيمة والاستسلام ، وتخدير
الشعب بوعود خيالية ، او مساعدات احسانية ، او « انسانيات »
اذلالية . كان يدرك اهمية الصحافة والنشرة وخطورة الكلمة
المكتوبة ، وفعاليتها في الرأي العام ، وتسييره الى الامام او
الى الوراء ، او تجميده في الحالة التي هو فيها . كان يرفض ان
ينشر في صوت الشعب ، اي اعلان لشركة استثمارية ، مهما
عرض عليه من أجر عنها . وكان يرفض قبول ايما تبرع ، ممن تعودوا
اغداق التبرعات على الصحف ، طمعاً بكسب رضاها عنهم ، او
على الاقل ، بسكوتهما عن مخالقاتهم واساءاتهم . كانت « صوت
الشعب » نقادة لكل عمل ، حكومي او غير حكومي ، فيه

حيف على مصلحة الشعب ، وكانت كشافة لكل عيب ، تأتية
 دائرة حكومية ، او مؤسسة عامة او حزب سياسي ، او منظمة
 طائفية . كانت افتتاحياتها تشریحاً لما تعانیه عامة الشعب ، وتصميماً
 تضعة امام عينها ، للعمل على خلاصها بما تعانیه . كانت نذيراً
 للحكام المستهترين ، ومن يدور في فلکهم ، ومن يضرب بسيفهم
 ومن يسندهم في الخفاء او الجهر ، من دول استعمارية ، ومصالح
 اجنبية ، ومراجع طائفية رجعية ، هي بالضبط ، السبب الاول
 والاهم ، فيما تقاسيه العامة من فقر ، وجهل ، وذل ، وحرمان
 مادي ومعنوي . وكانت « صوت الشعب » فضاحة لنيات
 الاستعمار ، وهدامة لمشاريعه العسكرية والحربية والاستعبادية
 كما كانت عنيدة في مقاومتها له ، واطهار أكاذيب دعاواته
 واذاليه . وفيما كانت اكثرية الصحف ، نهادن قوى الرجعية ،
 وتهاود الاستعمار ، وتلهي قراءها عن هاتين الآفتين ، بصحائف ،
 تحشوها بحوث فلسفية نعاسية ، ومناقشات بيزنطية ، وروايات
 بوليسية وغرامية ، وصور الغانيات ومشاهير اللصوص والجرمين
 وطغاة الحكم ، واخبار المناورات بين محترفي السياسة ، وفيما كان
 بعض هذه الصحف ، لا يتورّع ، ولا يخجل ، من بث الدعاية
 السافرة للآفتين معاً ، اما طمعاً في مكسب ، أو تظاهراً بالغيرة
 على ما يسميه هذا البعض استقراراً ، او حكمة ، او تؤدة ، او
 سياسة واقعية ، كانت « صوت الشعب » تشن حملات لا
 هوادة فيها ، على الرجعيين والطائفيين ، والمستعمرين ، ودعاتهم ،
 وعملاتهم ، أو مأجوريهم ، لا تشفق ، ولا تسامر في نقله كائن من

كان ، مهما عظم شأنه وعلا مقامه . وعندما كان الغيارى على
الاستقرار والحكمة والتؤدة يتهمون « صوت الشعب » بالهدم ،
كان عبيد يقول لهم مفاخرأ « لن يسقط المعول من ايدينا ، قبل
ان يهدم اخر معقل للرجعية والاستعمار في البلاد ، حتى اذا
انهدت هياكل الرجس على كهانها ، وحراسها ، وعبدة اصنامها ،
وتحرر الشعب من اغلال يُغله بها هؤلاء ، هبّ الشعب المتحرر
الى العمل ، في بناء لا يتهدى مع الارياع والاطماع . ان الهدم
هو أولى مراحل البناء . »

كانت « صوت الشعب » مرآة ، ترى فيها العامة نفسها .
وكان في كل سطر من سطورها ، وكل خبر ، وكل نكتة
فكاهية ، وكل بيت من الشعر الفصيح او العالي ، ما يعبر تعبيراً
صادقاً ، عن واقع هذه العامة ، وعما تقاسيه من محن الحياة ،
وعما يجيش في صدرها من غليان ، وعما يحاك لها من مؤامرات
وما يبيت لها اعداؤها واعداء بلادها ، من نوايا عدوانية خبيثة
ومجرمة . وكانت « صوت الشعب » هادياً للعامة ، تهديها الى ما
يجب ان تعمله ، لكي تعيش كما يجب ان تعيش .

وكانت الجماهير ، في المدن والقرى والداكر ، والمصانع
والحقول ، تتهافت على قراءة هذه الجريدة ، لانها جريدتها . كان
كلما وصل منها عدد الى قرية او مصنع او حيّ يجتمع المستمعون
حول القارىء كما يجتمع العطاش امام نبع المياه في وهج الصيف .
كانت الايدي تتناقل العدد طوال الاسبوع ، حتى اذا وصل
العدد التالي ، كان العدد الاول قد طاف على مئات القراء ، او

المقروء عليهم من الاميين بحيث يصبح ورقة مهترئة ، من كثرة ما تتناولها الايدي الخشوشنة ، ومن تراكم الاوساخ عليها ، من الجيوب المملوطة بالزيت والعرق والتراب . ثم يأخذ العدد الجديد نفس الدورة ، التي دارها العدد القديم ، ويزداد تعلق القراء والمستمعين بها كما لو كانت انجيلاً يسدّد خطواتهم .

كان عبيد يمتلي غبطة وانشراحاً كلما مرّت الايام ، ولمس شعور الجماهير تجاه عمله هذا . وكان لا يتملّل من اياما عناء يصيبه منه . وكان يضاعف جهوده ، لكي يكون سير العمل ، من احسن الى احسن . كانت الجماهير تبعث اليه برسائل التأييد والتقدير والتشجيع ، وتبعث اليه بين حين وآخر ، تبرعات مالية ، لم تزد واحدة منها عن الليرة الواحدة . كانت هذه التبرعات الزهيدة ، تثير الحماسة في نفسه ، وتزيد في عزيمته على مواصلة عمله الجبار والمضني معاً . وعندما كان يجتمع لديه من اوراق الخمسة قروش والعشرة قروش والربع ليرة والنصف ليرة والليرة ، ما يزيد عن تكاليف العدد ، كان عبيد يضيف عليه ملحقات او منشوراً ، يحمل لربائنه المحبوبين ، من نفس البضاعة التي يحملها اليهم العدد الاسبوعي .

واخذت تنطلق اصوات من ارجاء البلاد كلها ، تنادي بما تنادي به « صوت الشعب » . وبدأت تظهر حركات ، موحى بها بما كان يصدر فيها . ودهشت الجماعات المفضلة والمخطوطة والمتفوقة ، من هذا التحوّل الحاصل في الجماعات العامة الكاسحة ، والذي لم يكن منتظراً ان يحصل ، في عامّة كانت حتى الآن

مستسلمة وقانعة . وبدأ الخوف يتسلل الى اوساط الرجعية والاستعمار ، من هذه القوة المتحفزة والكاسحة ، التي لم تكن تحسب لها ايما حساب . وشرعت اوساط الخاصة ، بمجتمعة ومتضامنة ، في ابتكار الحيل والاساليب للحد من هذه الموجة المستحدثة . وبذلت جميع المساعي لـ جلب « صوت الشعب » الى الطابق عن طريق الاغراء والملاينة اولاً ، حتى اذا فشلت هذه المساعي ، بحثت الخاصة فيما بينها ، وتدارست الامر مع من يلزم ، لابعاد الخطر المطل عليها .

كانت الخطوة الاولى ، التقرب من عبيد ، باث الفكرة « الهدامة » والمحور الذي يدور عليه عمله الخطر . كان عبيد مستلقياً على ظهره ، عندما قالت له العجوز مريم ، ان في الباب « خواجه » يسأل عنك ، ويطلب مقابلتك . فقام عبيد من توه ، وهو يرتدي سروال الشغل ، فوقه قميص ، تتسرق من خروقه ، شعرات صدره الشعراني . وبعد ان رد تحية القادم الانيق باحسن منها ، ودعاه الى كرسي في الفسحة الصغيرة امام الباب ، قال للزائر .

— المعذرة يا سيدي ، اذا استقبلتك على الشكل الذي انا فيه ، وفي هذه الغرفة الحقيرة ، فما كنت انتظر ان يشرفني في هذه الساعة ضيف كريم مثل جنابك . المعذرة يا سيدي . واجابه الشاب الانيق :

— لا حاجة بك الى الاعتذار ايها الصديق ، فلطالما خرجت

من البيوت الحقيمة ادمغة كبيرة . ليست العبرة بما يلبس
الانسان ، بل بما يعلم ويعمل .

وشكر عبيد ضيفه على هذه المجاملة وقال :
— هل لي ان اسأل ، من يكون حضرة الضيف الذي يشرفني
بزيارته ؟

واجاب الشاب الانيق :
— الداعي فؤاد حبان ، من موظفي مؤسسة العون
الاقتصادي .

— انك تقصد ان تقول بعثة النقطة الرابعة على ما احسب .
— هذا ما كانت تسمى به بالماضي . اما الآن فاسمها مؤسسة
العون الاقتصادي .

وابتسم عبيد وقال : « اهلاً وسهلاً » .
كان عبيد يصغي بمزيد من الانتباه ، الى ما يقوله الشاب
الانيق . وكانت امارات الاستحياء تبدو على وجهه ، من
عبارات المجاملة ، التي كان يغمدها عليه بسخاء ضيفه الغريب .
وبقي ينتظر ان يصل الضيف الى الموضوع الذي جاء من اجله ،
اذ لم يرغب عن ذهن عبيد ، ان الزائر لم يأت لمجرد السلام
والكلام فقط . يجب ان يكون هناك غير ذلك . ولكن عبيد
لم يُرد ان يستعجل في معرفة المقصود من الزيارة .

كان عبيد يلزم الصمت عندما كان الضيف يتكلم في باديء
الامر . حتى اذا انتقل هذا من المجاملة الى صلب الموضوع ،
استوى عبيد في جلسته ، واعار الزائر سمعه بانتباه ، لكي لا

تقلت منه ايما كلمة تغيب عن سمعه .

قال فؤاد :

— لقد وصلنا الكثير عن مزاياك وجهودك في سبيل بلادك
وبني قومك . وبوصفي مواطناً لك ، لا يسعني الا ان اشكرك
على ما تبذله من سعي مضنٍ ، لرفع شأن هذه البلاد التي نجحنا ،
ورفع مستوى الشعب ، الذي نحن منه . وانه ليسرني ان انقل
اليك تقدير المؤسسة التي اعمل فيها . وهي على ما تعلم ، لم تأت الى
هنا ، الا من اجل نفس الغاية ، التي تعمل انت من اجلها .

وقال عبيد بتواضع : « شكرآ » .

واردف الزائر الانيق متابعاً :

— ويسرني ايضاً ان انقل اليك ، استعداد المؤسسة لتقديم
جميع المساعدات ، التي ترغب بها لمواصلة مساعيك ، و ...
وقاطعه عبيد بكلمة « شكرآ »

— ويسر المؤسسة ان تيسر لك الوسائل اللازمة لمتابعة
عملك ، اذ نحيّل الي ، انك تفتقر الى هذه الوسائل ، التي ليس
عندك منها الا عزيمة الجبارة .

وخرجت من فم عبيد الكلمة نفسها : « شكرآ » .

— والمؤسسة ، التي لا تبغي شيئاً اكثر من رفع مستوى
الشعب وتثقيفه ، ترى ان ليس ما تستطيع ان تبذل في سبيله
مساعداتها المالية ، اشرف وافضل ، من بذلها قدراً من هذه
المساعدات ، في الحقل الذي تعمل فيه انت .
وترددت على لسان عبيد كلمة « شكرآ » .

— من اجل هذه الغاية ، تشرفت بزيارتك الآن ، وكان عليّ ان اطلب موعداً لمقابلتك قبل ان اجيء ، على انّ ما يخفف من خطي ، هو طمعي بكرم اخلاقك . هذا وحده دفعني الى المجيء بدون سابق موعد .

— العفو يا سيدي . شكرآ يا سيدي .

— المهمة التي كلفتني المؤسسة بها ، هي ان استوضحك عمّا تحتاجه ، من المساعدة ، سواء كان في عملك الاجتماعي ، ام في عملك الصحافي . ان لدينا اعتمادات خاصّة لهذه الاعمال . والمؤسسة تقوم بها بقدر كبير . وفي حوزتها اموالٌ من اجل هذا الغرض . الذين يتبرعون بهذه الاموال ، اعني الحكومة الاميركيّة ، والمؤسسات الاسعافية في اميركا ، تريد ان تذهب الاموال في هذه الطريق بالذات . ان مؤسستنا اسعافية صرف ، لا تهمّها السياسة مطلقاً ، اذ ان همّها الوحيد ، مساعدة الشعب ورفع مستواه . ان ما تعمله انت ، هو من صلب مهمتها ، بل هو جزء لا بأس به من عملها ، لذلك تراها مستعدّة لاسعافك مما وضع تحت تصرفها ، من مال ، او ورق للجريدة ، او خبراء في فن الطباعة والنشر والشؤون الاجتماعية و ...

وتلفتت عبيد صوب الغرفة ، ورأى الطفل بشير يعدو اليه ، وهو يتعثّر في مشيته ، تارة يقف ، وتارة يقع على الارض ، وضجركه الطفولية تقعقع في جوانب الغرفة الحقيرة الهادئة ، وكان يصيح « امّو . امّو . »

وما كاد الطفل يلمح الزائر الغريب ، حتى انقشعت عن وجهه

الضحكة الحلوة ، وتسمّر عند الباب ، وتقلّصت شفتاه ، على غممة تندر بالبكاء .

ومدّ عبيد يده للطفل ، وقال له :

— هلا . هلا ببشير . هذا عمّو فؤاد . دح عمّو .

ونفر الطفل وقال « هيء أمّو . هيء أمّو » وقفل مهرولاً الى حضن جدته العجوز .

وعاد الزائر الانيق الى الموضوع الذي جاء من اجله :

— والمؤسسة ستكون جد آسفة ، اذا حال ضيق يدك عن متابعة العمل الشريف الذي تقوم به ، او اذا تعذر عليك الاستمرار في اصدار الجريدة ، التي ليس ما هو احوج منها ، لهذا الشعب العامل والبسيط . ومن اجل تجنب وقوع مثل هذا الشيء ، تشرّفت الآن بزيارتك .

ولم يفز الشاب الانيق من عبيد ، الا بكلمة « شكراً » . وسكت فؤاد ، بانتظار ما هو اكثر من كلمة « شكراً » . على ان انتظاره لم يطل ، اذ جعل عبيد يقول ، بقدر غير قليل من الاسهاب والصراحة :

— كنت اسمع عن المؤسسة التي تمثلها ايها الصديق ، انها مؤسسة ذات مهمة اقتصادية صرفة ، وغايتها الوحيدة ، رفع مستوى المعيشة في البلدان المتخلفة اقتصادياً ، وسيلها الى ذلك ، إمداد هذه البلدان ، بالفن والخبرة والمال . هذا ما كنت اسمعه من الاذاعات التي تذيعها اميركا . ثم بدأ الشك يتسلّل اليها هنا ، عندما ألحقت هذه المؤسسة ، اي مؤسسة النقطة الرابعة ، بدائرة

الامن المتبادل في الولايات المتحدة، وصار من جملة مهماتها ، تسهيل ما يمكنها تسهيله ، لما يسمونه الامن المتبادل ، الذي قد يفهمه من سموه كذلك ، ولكن نحن ، بعقولنا الصغيرة ، لا نفهمه . ما لنا ولذلك الان . على ان ما لا يسعنا اغفاله ، من الواقع نفسه ، ان النقطة الرابعة ، ما عملت شيئاً من اجل تحسين اقتصاديات البلاد ، ولا لمسنا منها ايّما مسعى ، لرفع مستوى معيشة الشعب . ان كل ما عرفناه منها ، هؤلاء الجبناء الذين لا يحصى لهم عدّ ، والذين نراهم يجوبون القرى والمناطق ، ليدرسوا ، على حسب زعمهم ، وليتجسسوا على حسب زعمنا ، يأخذوا الصور والمشاهد ، لغاية لا نظن انها تتصل بالاقتصاد ورفع مستوى المعيشة بأيّما صلة . انه يكفي ان تربط النقطة الرابعة بمصلحة الامن المتبادل ، لكي تثير مخاوفنا . فالذي نعلمه عن هذه المصلحة ، انها سياسية وعسكرية قبل كل شيء ، وما غلافها الاقتصادي الا من نوع التمويه ، لا اكثر ولا اقل . لو سميت الاشياء باسمائها ، لكان الاصح ان تسمى هذه المصلحة ، مصلحة حرب لا مصلحة امن ، غايتها ربط بلادنا ، وكل بلاد اخرى قبلت مشروع النقطة الرابعة ، بعجلة السياسة الاميركية ، وجربها الى محالفات عسكرية مع الولايات المتحدة ، او مع ما تسمونه « العالم الحر » وذلك استعداداً لحرب ، قد يخطر ببال الحكومة الاميركية ان تغامر بها ، وتجعل بلادنا المسكينة ساحة لها . ونحن يا صاحبي ، نرتجف هلعاً من سماع كلمة حرب . والدعاية الاميركية ، على ما يبدو ، لا يطيب لها شيء ، اكثر من ترويعنا ، لكي نبقي مدعورين ،

فيسهل عليها جرّنا من آذاننا. ولست احسب، ان هذا الترويع،
بما يساعد على تحسين اقتصادياتنا ورفع مستوى المعيشة في شعوبنا،
الغاية التي تدعي النقطة الرابعة انها تعمل من اجلها .
وبعد تمهل قصير تابع يقول :

— انك تقول يا صاحبي ان المؤسسة التي تمثلها لا تتدخل
بالسياسة . كنت اريد ان يكون ما تقوله صحيحاً . ولكن ما
نراه لا يدلّ على انه كذلك . ان تحسين اقتصاديات البلدان
المتخلفة اقتصادياً ورفع مستوى معيشة شعوبها ، لا يستلزم كل
هذه الدعايات ، عن فضائل « العالم الحرّ » ونط الحياة في اميركا،
كما انه لا يستلزم كذلك ، اثاره اهل بلادنا عن العالم الاشتراكي
الذي لم نر منه ايما اساءة ، ونشر الذعر مما توهمنا به هذه الدعاية ،
بانه خطر زاحف علينا من الاتحاد السوفياتي . ربما تقول ان هذا
ليس من محل النقطة الرابعة ، بل من عمل دوائر الاستعلامات
او غيرها . ولكننا اذا كنا متخلفين اقتصادياً ، فلسنا على ما
احسب متخلفين عقلياً . اذا كنتم تحسبوننا كذلك ، فانتم مخطئون
او واهمون . ان النقطة الرابعة ، او العون الاقتصادي ، او
مصلحة الامن المتبادل ، سمّها ما شئت ، ليست الا تفرّعات
لمصلحة واحدة ، هي ، على ما يبدو باكثر ما يكون من الجلاء،
مصلحة عسكريّة وحربيّة مجتة ، لا نهضمها ولا تتوافق مع
رغبتنا بالعيش بسلام وطمأنينة في ربوعنا ، المحتاجة قبل كل شيء
الى السلام .

وهنا اخذ يبدو على وجه فؤاد شيء من الاكفهرار، واسترسل

عبيد في الكلام :

— قد اكون شططت الى ابعد من الموضوع الذي تشرفني بزيارتك من اجله . ماذا اعمل اذا كانت الاحداث التي تتعاقب علينا ، تجعل من كل انسان عالماً بالسياسة . بل ماذا اعمل ، اذا كانت السياسة في هذه الايام تدخل في كل شيء ، حتى في الصلاة والعبادة ، وفي الاكل والشرب . واني اؤكد لك يا صاحبي ، ان المؤسسات هذه ، التي تمثل حضرتك احداها ، فضلاً عن مؤسسات اسعاف اللاجئين ، ومؤسسة التقارب المسيحي الاسلامي التي تعقد مؤتمرها في بلادنا حالياً ، ومؤسسات التعليم الاجنبية عندنا ، وانصرافها عن مهماتها الاساسية ، التي كانت تدعي انها جاءت من اجلها ، وانعطافها الكلي الى الحركات السياسية ، وبث الدعايات للمعاهدات والمخالفات ، ان هذه المؤسسات نفسها ، هي التي احوجتنا الى ما كنا نرغب في الاستغناء عنه ، لكي نصرف جهودنا كلها الى امورنا الداخلية المعيشية .

— اعذرني يا صاحبي على هذه المقدمة الطويلة التي قدمت بها للوصول الى الموضوع . ما كان عليّ ان اشغلك واشغل نفسي بها ، ولكن الحديث يجرّ الحديث . اما العمل الذي اقوم به ، على تواضعه ، فلا يحتاج الى تصديق خاطر مؤسستكم الكريمة ، وتكليفها بما يزيد عن مهمتها ، التي تقوم بها . ان عملنا لا يحتاج الا الى ارادة ، وهذه موجودة من حمد الله ، والى كمية زهيدة من المال ، وهذه ايضاً موجودة عند الذين يطالهم هذا العمل . ان « صوت الشعب » هي صوت الشعب ، وهذا الصوت ليس بحاجة

الى اسطوانات ومكبرات له . هو صوت يخرج من الحناجر
والصدر ، ويسير مع الاثير بدون محطات اذاعة . ان الصوت
الذي لا يرتفع ، ولا يسمع الا بواسطة الاسطوانات ومكبرات
الصوت ومحطات الاذاعة ونشر الدعايات ، ربما يصل الى الاسماع ،
ولكنه لا يدخل الى النفوس . وصوتنا نريده ان يدخل الى
النفوس عفواً وبدون استئذان ولا واسطة . فمع شكري للمجاملة
التي تحملها من مؤسستكم الكريمة ، لست ارى ما يدعونا الى
تحميلها اثقالاً ، فوق الاثقال التي تحملها .

ووجع الزائر الانيق ، لما رأى في عبيد من صلابة الصخور
التي لا تلين . ولكنه ما شاء ان يستسلم الى اليأس قبل ان يرمي
اخر ورقة في جعبته . فقال لعبيد :

— وحق الاله يا اخي ان مؤسستنا مغبونة في هذه الدعايات
التي يشيعها عنها بعض الناس . لا اريد ان اذفع عن المؤسسات
الأخرى التي ذكرتها . انا لا اعرف عن تلك مثلما اعرف عن
هذه بالذات . فانا اشتغل فيها منذ ثلاث سنوات . وانا رجل
وطني وليس أمير كياً . ولو لم اكن اراها تعمل لمصلحة وطني
لما بقيت فيها ساعة واحدة . انها جدد مظلومة يا صديقي . اقسم
لك بشرفي وديني انها مظلومة .

وابتسم عبيد ابتسامة فيها كل معاني الحُبث وقال : « قد
يكون كذلك بل آمل ان يكون كذلك » .

وقابع الزائر الانيق ، وقد خيل له ، انه ابتداء يستلم الزمام .
— قد تكون ظننت يا صديقي ، اننا نبغي من وراء ما قلته

لك ، التدخل في شؤون عملك ، او في تغيير منهج الجريدة التي
تشرف عليها . حاشا والف حاشا . كل ما نبغيه ، اسداء معونتنا
لك ، مقابل لا شيء ، يتعلق بنا ، يكفيننا ما انت فاعله ، وهو خير
مساعدة تقدمها لنا في مهمتنا . قصدنا يا صاحبي ، تسهيل امورك ،
لكي نتساعد على الخدمة العامة . خدمة منا مقابل خدمة منك ،
والخدمتان سواء بسواء ، ولغاية واحدة . اذا كنت لا تريد
ان تأخذ مالا ، فلتكن مساعدتنا بعددٍ من الاشتراكات في
الجريدة ، واجور اعلانات . اما المساعدة التي نطلبها منك ،
فهي ان تداوم عملك على ما ترتئيه انت ، دون تدخل من قبلنا .
وعاد عبيد الى كلمة « شكراً » ، وتابع الزائر الانيق :

— ان من يضحى ذاته من اجل المجموع ، يجب ان يقدر .
يجب على الاقل ان يطمئن الى معيشته ومعيشة عياله ، اذا لم يكن
من اجله خاصة ، فمن اجل العمل الجليل الذي يقوم به ونجاحه .
وقال عبيد :

— النشرة ، ليس لها اشتراك ، لانها ليست جريدة بالمعنى
المعروف . الاخوان يدفعون تكاليفها ، وهذه لا تتجاوز خمس
ليرات بالسنة . قيمة لا تستحق الذكر . اذا شئتم نقدمها لكم
واذا شئتم ان لا يكون ذلك جميلاً منا عليكم ، استغفر الله ،
فبوسعكم ان تدفعوا ثمن كل نشرة عشرة قروش للموزع الذي
يوصلها لكم . والأعلانات ، لسنا بحاجة اليها ، لان نشرتنا لا
تأخذ اعلانات . اما معيشتي ، فمتوفرة ، ولا اطمع باكثر منها .
اني من العامة ، واعمل من اجلها ، ولست احسب ان من حقى

ان اعيش احسن مما تعيش هي ، الى ان تتوفر لي ولها ، عيشة افضل . فليسر كل منا في سبيله ايها الصديق . ذلك اجدى على ما اظن . نحن نعمل في حقل متواضع ، الى آخر حدود التواضع وانتم تعملون في حقول كبيرة ، وبعيدة المدى . كلّ على قدّه يا صاحبي . المثل يقول « كل عنزة معلقة بكرعوبها »

كان يبدو على عبيد إصرار ، لا سبيل الى ارجاعه عنه . واذ رأى فؤادانه لم يبق لديه ايّا حيلة لاقتناعه ، ودّعه وانصرف . كان وداع فؤاد لعبيد ، على اكثر ما يكون من اللطف والمجاملة وشيّع عبيد ضيفه الانيق الى آخر الزاروب .

وعاد عبيد الى الغرفة على صوت زقزقة بشير . وما ان دخل الغرفة حتى تقوقع بشير في حضن العجوز مريم ، وخبأ وجهه في صدرها ، ليعرّف عبيد انه حردان عليه . ان بشير لم يألف رؤية مثل هذا الزائر الانيق عندهم ، وحسب انه من عالم غير عالمهم . فهو كان يحسب ان الدنيا كلها في هذه الغرفة ، وان امه واباه والعجوز وعبيد ورفاقهم الذين كانوا يجيئون ويذهبون ، هم كل الناس . كان يحسب ان من هو خارج عن هذه الشلة ، من عالم بعيد بعيد . وعندما فتح له عبيد ذراعيه ، وقال له « باطو » « باطو » ابي بشير ، على غير عادته ان يركض اليه . وأشار بيده صوب الباب ، حيث كان الزائر الانيق ، وهو يردّد بغضب « هيء أمّو . هيء أمّو . كخّ أهو . كخّ »

وقال عبيد في ذات نفسه « يا له من طفل عجيب . انه ينفر بالفطرة من زيف « الدح » الذي يبهز اعين الناس ، كأنه عارف بزيفه ، قبل ان يولد . يجب ان يربى بشير على تفهم حقيقة الحياة

كما هي ، وليس كما تظهر في حياة من يسمونهم وجهاء . ان بشير
لا بد وان يصير مناضلاً . هكذا يبدو في تقاطيع وجهه ،
وهكذا يقول لي بريق عينيه .

ولم يطل حرد بشير على عبيد . ولم يلبث حتى ارتقى بين
ذراعيه ، وعاد الى زقزقته وعربدته .

وظل عبيد يهجس بزيارة فؤاد حبان . ولم يفقه معرفة الغاية
منها . وكان يتوقع ان تعود الكرة مرة ثانية ، ولربما تكون
في المرات القادمة ، اكثر احراجاً من المرة الاولى ، وقد يسبقها
او يرافقها ، او يتبعها ، محاولات من نوع آخر ، غير النوع
الاغرائى الناعم .

ومشى عبيد الى شغله ، وهو يقول في سره : لن ادعهم
ينالون مناهم مني ، سواء تلاينوا ام تجبروا .

١١

كان اليوم العاشر من شهر نيسان ، عيد مولد بشير . والحت
العجوز مريم ، على ان يُدعى جميع رفاق عبيد وعامر ، الى امسية
خاصة ، حول مائدة متواضعة ، احتفاءً بمرور سنتين على ولادة
الطفل المحبوب . وانهمكت العجوز وحنيفة طوال النهار ، في إعداد
طعام المساء . صحن تبولة ، ومدقة عرق ، وكم سيخ لحم مشوي
وصحن حلوى من صنع حنيفة ، عدا عما حمّله بعض الرفاق ،
للمناسبة السعيدة .

كان المجتمعون عشرين شخصاً ، شباباً وشابات ، اكبرهم العم
يوسف محمود . كان كل منهم عندما يصل الى الغرفة ، يذهب تَوّاً الى

فراش عامر ، ويقبل الاب المقعد ، ويهنئه بالعيد ، ثم يأخذ بشيراً
بين ذراعيه ، ويوسعه شماً وتقبيلاً . كان بشير ينط من الفرح ،
ويزقزق مثل العصفور ، ويقفز من حضن هذا الى حضن ذاك او تلك .
كان يشعر ان الحاضرين كلهم انما اتوا من اجله ، وان الحلوى التي
صنعتها امه ، ما كانت لتصنعها ، لو لم يكن هذا اليوم غير سائر
الايام العادية . كان يدور حول المجتمعين ، وينفخ بالزموور الذي
اعطاه اياه بو محمود . كان يفاجئهم بالتزمير من وراء ظهورهم ،
فينتشلون من يد الى يد ويداعبونه ، لكي يستثيروه على التلفظ
بالكلمات التي بدأ يتلفظ بها . كان يفلت من يد واحد الى يد
الثاني ، ويرمي نفسه في آخر الدورة ، بين ذراعي جدته العجوز
او في ذراعي العم بو محمود الذي جلب له الزموور .

كان بو محمود فرحاً في هذه الجلسة ، وكان يغمز العجوز مريم
بين الفينة والفينة ويومئ لها بعينه ، على ابنه محمود وجارته سهام
بينما كان الجاران يتوشوشان .

كانت سهام يتيمة الابوين ، كما كان اكثر الرفاق المجتمعين .
وكانت جميلة المنظر متوقدة الذكاء ، ولكنها لم تكن متعلمة إلا
بقدر قليل . كانت تشتغل في مدرسة الحلي ، خادمة بعض الوقت
وتلميذة بعض الوقت الآخر . كانت تخدم لكي يتاح لها ان تتعلم
بعد ان توفي ابوها ، ولم يعد بمقدورها ان تدفع ثمن العلم . كانت
مدرسة الحلي ، مجاورة لغرفة عبيد ، وكان يتسنى لها ان تسمع
المجتمعين ، عندما يعلو ضجيجهم ومشاحناتهم . وعندما عرفت ما
يعمله هؤلاء الشباب ، طلبت ان يقبلوها بينهم .

كانت سهام اول رفيقة انضمت الى الحلبة بعد حنيفة، وكانت منذ دخولها ، من اكثر الرفاق حماسة واندفاعاً . كانت كلما فرغت من شغلها في المدرسة ، تسرع الى غرفة عبيد ، وتحدث الى العجوز وتلاعب بشير ، وتساعد في قضاء حاجات عامر ، حتى اذا اجتمع الربع ، كان يبدو منها اهتمام اكثر من الجميع .

ومنذ تعرّف محمود على سهام ، بدا للأب ان ابنه يتقرّب اليها اكثر فاكثر ، كما بدا له ايضاً ، ان محمود لم يعد خجولاً كما كان من قبل . وكان بو محمود يتمنى لو كانت سهام مسلمة ، ليأخذها عروساً لمحمود . فسهام جميلة الوجه ، وشقراء البشرة ، وسليمة الجسم ، وسنّها لا تريد عن سن محمود . وفضلاً عن ذلك ، فهي ذكية ونشيطة ، ولا ينقصها شيء لتكون امرأة بيت .

كان محمود قد انتقل من الشغل عند الفوّال ، ودبّر له الرفيقان ، نديم ومصطفى ، عملاً في المطبعة التي يشتغلان فيها . وكانت سهام ومحمود يلتقيان كل ليلة عندما تجتمع الشلّة . وتمكنت بينهما اواصر الالفة ، ولم تلبث الالفة حتى تحوّلت الى حب . كان محمود كلما شاهد سهام تنفرد باحد الرفاق ، او كلما رأى الرفاق يحومون حولها ، ويتودّدون لها ، تتحرك في قلبه نار الغيرة . كان يهمّ بمعاتبتهما احياناً ، لولا هذه الشخصية فيها ، التي تجعله يجبن عن مفاتحتها بالامر . كانت سهام تعنى كثيراً بمحمود ، وتلقي عليه النصائح ، وتزوّدّه بما ينقصه من معلومات عن الحركة ، وعما يجب ان يعمل فيه . كان محمود نصف امي ، فشغلت نفسها في تعليمه . كانت ترافقه احياناً الى بيته ، وتجلس معه ومع بو محمود ،

وتحدّثها بطريقة سهلة وبسيطة ، عن حركة عبيد ، وتفهمهما ما
كان يقرأه محمود في « صوت الشعب » ويشكل عليه فهمه . كانت
تريده عضواً عاملاً في الشلّة . وكان بو محمود يردّ في ذات نفسه
« ليتها مسلمة لآخذها زوجة لمحمود » .

وتشجع محمود ذات مرة ، وقال لسهام :

— لا اعلم يا رفيقة ، اذا كنت تشعرين بما اشعر به .

فاجابت سهام وهي تبسم :

— بماذا تشعر انت يا محمود ؟

واصطبغ وجه محمود بالاحمرار ، وبدأ عليه الحجل ، ولكنه

اجاب :

— ما دمت تسأليني عما اشعر ، فمعنى ذلك انك لا تشعرين

نحوي بشيء .

وانفجرت سهام بالضحك وصاحت به :

.. طيّب . طيّب . يا محمود . ان كلامك هذا اكبر برهان

على انك ذكي بالفطرة .

وابتسم محمود ، واحسّ بخلجة في فؤاده . وتابعت سهام :

— ان محبتك لي ، ليست اكثر من محبتي لك . ولكن ما

ارغب فيه ، قبل كل شيء ، ان تكون رجلاً ، لاني لا اريد ان

يحبّني الاّ رجل ، بكل ما في الرجولة من معنى ، لكي احبّه انا

ايضاً . ويخيّل اليّ ان محمود الذي هو امامي الآن ، في طريقه الى

الرجولة الحقّة .

ووضع محمود يده على كتف سهام ، وشدّها اليه ، ولكنه لم

يجرؤ على تقبيلها ، وقال لها بصوت يكاد لا يسمع :

— وهل للرفيقين نديم ومصطفى ، محلّ في قلبك ؟ اعذرني
على هذا التطاول بالسؤال . ما كنت سألتك هكذا ، لولا شدّة
محبي لك و... و... غيرتي من ان لا تكون محبتك لي كمحبي
لك . ان هذه الغيرة اللعينة ، ستأكل قلبي كلما رأيتمكم تتحدثون
وتتسامرون وتضحكون منفردين .

وبرزت شخصية سهام في قولها :

— ان لكلّ من الرفاق محلا في قلبي . ولكن المحلّات تختلف
يا محمود . ان الغيرة بنت الحب . هذا صحيح . ولكنها ايضاً
وليدة الضعف وقلة الثقة ، اعني ثقّتك بي وثقتك بنفسك كذلك .
هذا ما ارجب ان تخرج منه . نحن كلنا عائلة واحدة ، وعلينا ان
نعيش كعائلة واحدة ، نتفاهم ، وتتساعد ، ونتحابب . لا تشغل
نفسك يا محمود بمثل هذه الترهّات .

ولملم محمود شجاعته ، وطبع قبلة على جبين سهام وبادلته سهام
قبلته الحمية ، ولكنها كانت اكثر منه شجاعة . وقال محمود في
سرّه « انها لا شك تحبني ، وسأعمل المستحيل لا كون عند حسن
ظنها بي . »

كانت امسية بشير فرحة وبهجة ، تجلت فيها مشاعر الوفاق
بين الرفقاء . كانوا يشربون نخب صاحب العيد ونخب حرّكتهم
الشعبية . كانت حماسة الشباب منهم ، لا تقل عن حماسة الشبان ،
وكان محمود والعجوز مريم ، على اكثر ما يكون من الفرح
والاغتيباط بحماسة الشباب . وشعر العجوزان ، ان شبابهما يعود

اليهما . كانا يغنيان معهم عندما يغنون ، ويعربدان معهم عندما يعربدون ، ويشتركان معهم في شرب العرق . حتى العجوز مريم ، ثلت من كثرة الشرب ، واندفعت الى الرقص ، وهي تتبختر بتنورتها الحريرية ، تنورة عرسها الصفراء ، كما لو كانت شابّة غندورة . وعندما سكر الشبان والشابات ، جرّوا العجوزين ، بو محمود ومريم ، الى وسط الغرفة ، وتماسك العجوزان ، وجالا جولتين بالرقص العربي . كان بشير الطفل لولب الامسية ، وكان الزمّور لا يفارق شفّتيه ، فكهما ازداد صياح الشلّة ، يزيد هو بالتزمير . وكان عامر يجهد قواه ، ليشارك المعيّدين المبتهجين ، متغافلاً عن عجزه . وكان عبيد شخصيّة الجلّسة ، كما هو شخصيّة الحركة كلها .

كانت الساعة الثامنة مساءً عندما سمع وقع اقدام غليظة ومستعجلة في الزاروب . ولم يلبث حتى اطبق على المجتمعين ، رجلا ن يرتديان بزة رجال الامن ، ودخلا الغرفة دونما استئذان ، فبغت الحاضرون ، ولم يدركوا معنى هذه المفاجأة الوحشية . كان عبيد هو الوحيد الذي لم يبغت ، اذ انه بسرعة خاطر مدهشة ، عاد بافكاره الى زيارة فؤاد ، رسول المؤسسة الاميركية للعون الاقتصادي ، في الاسبوع الفائت . كان عبيد يدرك ، ان رفضه مساعدة المؤسسة على الشكل الذي رفضها به ، سيجرّ اذبالاً ، بعيدة الاثر ، وما كان يغرّه قط ، بحاملة الرسول له ، وحدثه الظاهريّ على اعماله . ومن يوم الزيارة الى الآن ، كان يفكر فيما

سيظلّ عليه من مفاجات ، كان ينتظر دائماً ان تظلّ ، وهما هو الآن امام هذه المفاجأة التي لا يحسب انها الاخرة .

واقترب عبيد من رجلي الأمن ، وسألها عن الداعي لمجيئها على هذه الصورة ، فلم يجبه الرجلان بايما كلمة ، بل راحا يفتشان في زوايا الغرفة ، وفي خزانة السحاحير ، ووراء الباب والستائر ، ونحت فراش عامر ، وما تورّعا عن التفتيش في جيوب المجتمعين ، وتحت البستهم ، وكان اول ما عملاه ، ان جمعا كل ما وصل الى ايديهما من اعداد « صوت الشعب » وصادراها . وعندما اقتربا من الشابات ليفتساهنّ ، انتفض عبيد واغلظ لهما الكلام ، وثارث ثورة حاشد ، وهمّ بلكمها بيديه الشبيهتين بالرفش ، لولم يستوقفه بو محمود ، ولولم يتنبه الرجلان الى ان الواقعة ستكون حامية عليهما ، مع هذا الشاب المهتاج كالضبع الضاري ، اذا هما اصرا على عنادهما .

وجعل الرجلان يقلبان كل ما في الغرفة ، ويتوعدان جماعة الشلة كلها . وما كان احد من المجتمعين يخاطبهم بكلمة لطيفة ، حتى ينهالا عليه بالشتائم والسباب ، ولا يتوكان كلمة قدرة الا ويوجهانها اليه . انها رجلا امن ، والأمن لا يحافظ عليه بالكلام المليح .

كان عبيد اكثر الرفاق وعياً وهدوءاً ، وكان واقفاً تجاه هذا المشهد المخزي ، وهو يسخر من « بطولة » رجلي الامن ، بينما كان يحاول تهدئة الرفاق الثائرين . كان يطمئنهم ، ان المسألة لا تخرج عن كونها حرب اعصاب بقصد التخويف ، وانها جواب

على تصرفه مع رسول المؤسسة الخواجه فؤاد ، وان ما هو حاصل الآن ، هو نتيجة موقفه مع المبعوث الانيق في الاسبوع الماضي . وكان عبيد يقابل غلاظة رجلي الامن ، ببرودة المطمئن ، الذي لا يخشى شراً ، لأنه يعلم ، أن ليس فيما يأتيه ايما شر . على ان الموظفين ، اذ رأوا العيون المحمرة تحديق اليهما ، تهيبا الموقف وتوقفوا عن الكلام البذيء ، واكتملا مهمتهما التفتيشية ، دون ان ينبسا ببنت شفة .

كان بشير ، ممسكاً بيد امه حنيقة ، وعلى وجهه دلائل النفور والسخط ، التي كانت تبدو عليه ، لدن شاهد الزائر الانيق قبل اسبوع . على انه ، هذه المرة ، لم يفه بكلمة « كخ » كأنما شعر بالفطرة ، ان زيارة هذين الرجلين ، تختلف عن زيارة فؤاد ، وانها اكثر جدية منها .

وقلقت العجوز مريم واضطربت ، وادركت ان في الامر مكيدة على عبيد . ولما رأت الرجلين يمضيان في تقليب الفراش من تحت عامر ، وبعبثرة موجودات الغرفة ، انفجرت من الغيظ وقالت لهما :

— ماذا تعنيان بعملكما هذا ، وما هو الداعي له ، ومن امركما به ؟ ماذا كنتم تنتظران ان تجدوا في هذه الغرفة الفقيرة ؟ هل وجدتما عندنا اسلحة او الغاماً ، او حشيش كيف ؟ اذا اردتما التفتيش عن مثل هذه الاشياء ، فاذهبا الى حيث توجد بالفعل . ولكن يا اسفي ، هناك حيث توجد الاشياء هذه ، لا يستطيع احد ان يدخل أو يفتش . الحكومة لا تتمرجل الا على

الفقراء . واوراق النشرة ماذا فيها ؟ هل هي من المواد الممنوعة ؟
يا ذلّ الفقير في بلادنا .

ولم يدعها بطلا الا من تسترسل بالكلام . وقال لها كبيرهما :
— هذا لا يعنيك يا عجوز . نحن هنا باسم القانون ، ونعمل ما
نعمله بامر الحكومة .

واجابت العجوز بغضب :

— ايّ قانون هو هذا ، الذي يسمح لكم بمضايقة الناس في
بيوتهم ، وازعاج المرضى في فراش مرضهم ، وترويع الاطفال
الطاهرين ؟

وحملق بها كبير الرجلين وقال لها منتهراً :

— الافضل لك ايتها العجوز ، ان لا تكثري من الكلام
والصياح ، فاذا كنا نحتوم سنّك ، فهذا لا يعني اننا نسمع لك
بتعدي الحكومة وقوانينها . الافضل لك ان تسكتي ، والا...
وقالت العجوز :

— والا ماذا ؟ قانونكم لم يوجد لتعذيب الناس ، ولا لتجويع
الفقراء ، ولا لظلم من يشتغلون الليل والنهار ليأكلوا لقمة الخبز .
القانون ، القانون ، يا ويلنا من هيك قانون ، وهيك حكومة .
وهمّ اصغر الرجلين بالتهجّم على العجوز ، لو لم يرَ العيون
الحمرة تحرق به ، ولو لم يستوقفه زميله الكبير ، تجنباً لما قد
يحدث في هذه الواقعة الملعونة ، مع جماعة عافت ربّها .

كان عبيد يكظم غيظه في نفسه ، لكي لا يزيد في غضبه

الرفاق ، ويأتوا عملاً ما ، يزيد في الطين بلة . فهو يريد ان يكون وحده المقصود من هذه العملية . كان ينتظر ان يساق الى النظارة ، على اثر الحملة التفتيشية ، وهو يرغب في الا يتصرف الرفاق ، بما يُعطي رجلي الامن ذريعة لاعتقالهم هم ايضاً . كان همه ، الا يتوقف العمل اذا غاب هو عنه ، فهو لا يضيئه ان يبقى في السجن شهراً او شهرين او اكثر ، ما دام بين الرفاق من يقوم مقامه .

ووجه المجتمعون على حقد ، عندما طلب رجلا الامن الى عبيد ان يرافقها الى النظارة . ولم يشذ منهم سوى حاشد ، الذي كاد يهجم على الرجلين ، لو لم يشر اليه عبيد بيده ان يهدأ . وانفجر بشير بالبكاء عندما شاهد عبيداً يسير بين الرجلين . واقتربت العجوز مريم من عبيد وقالت له : « اذهب تحرسك العناية الالهية يا بطل . لن يصحّ الا الصحيح . »

وبعد هنيهة وجوم ، تفرّق الاخوان ، بعد ان اتفقوا فيما بينهم ، الى اين يذهب كل منهم ، ليذيع خبر اعتقال عبيد على جميع الاصدقاء ، قبل ان يطلع النهار . وتراخمت العجوز وحنيفة ، على من يذهب منهما ومن يبقى الى جانب عامر وبشير . ولم يكن بمقدور احد ، ان يقنع العجوز بالبقاء في البيت . ولما قيل لها ، ان ليس عندها من القوة على تحمّل المشاق المنتظرة ، اجابت باصرار : « ما عليكم مني ، ولا تخشوا علي بأساً ، وما هي قيمة اليومين اللذين ساعديشها بعد ، اذا لم اعمل شيئاً من اجل عبيد . »

وكانت العجوز اول من غادر الغرفة ، بعد ان طبعت على وجه عبيد ، قبلة خرجت من صميم قلبها . ولم تعد الى البيت ، الا عند مطلع الفجر . بعد ان طافت على اكثر من عشرين بيتاً من بيوت اصدقاء عبيد ، وبلغتهم ما جرى . ولم تنس العجوز ان تمر على الدكتور صادق ، صديق عبيد وصديق الشلة ، وصديق العامة كلها .

كانت الساعة الثانية صباحاً عندما وصلت سيارة الجيب الى امام مدخل البناية التي تشغلها نظارة الامن ، فانزل « المجرم » عبيد ، وادخل الى غرفة ضيقة بانتظار ما يجيء به الغد . كانت الغرفة التي حشر فيها عبيد ، في الطابق الاسفل من البناية ، تحت سطح الارض ، وكان طولها مترين وعرضها متراً ونصف . كان على الداخل اليها ، ان يحني رأسه لكي يتمكن من الدخول ، وكان بابها قطعة من الحديد الصلب ، محفوراً في قسمها الاعلى ، كوة صغيرة ، مشبكة بشريط من حديد ايضاً . كانت رائحة العفن والوسخ تفوح فيها كما لو كانت كنيفاً . لم تكن الغرفة كنيفاً بالاسم ، ولكنها كانت كذلك بالفعل لمن يقيم فيها . هذا ما تدل عليه القذارة المتراكمة في زوايا الغرفة . كان يبدو ان من كان نازلاً فيها قبل مجيء عبيد ، كان مسهولاً ، أو شيئاً يشبه ذلك ، كما كان يبدو ايضاً ، ان غرفة الضيافة هذه لم تمسّها مكنسة منذ زمن ، ولم تعمل في تنظيفها ايما يد . كانت الغرفة نظيفة من الاثاث فقط ، فلا كرسي يجلس عليها الضيف ،

ولا وسادة يلقي عليها رأسه ، ولا اناء ماء يروي منه عطشه ، ولا شيء مثل هذا . وكان على عبيد ان يعيش في هذه الغرفة ، ويتمتع نظره بجدرانها المصبوغة بالسواد والبياض والاخضرار ، من كثرة ما عليها من الوسخ ، كما كان من نصيبه ايضاً ان يشبع انفاسه من رائحة اقدارها ، الى ان يطلع النهار ، ويخطر على بال حضرة المحقق ، ان يتفضل باستدعائه ، وضبط إفادته ، ثم إرساله ضيفاً على السجن الكبير ، وهو الارجح ، او اخلاء سبيله ، وهذا مشكوك به جداً ، لاستبعاد عبيد حُسن النية والقصد ، عند الذين دبروا المؤامرة منذ الساعة الاولى .

وطلع الصباح ، واذا بباعة الصحف ، تتراكم في شوارع المدينة ، وتنادي بصوت يقرع كالطبل « اكتشاف مؤامرة على الدولة . اعتقال زعيم الحليّة الشيوعية . مصادرة كتب ومنشورات سرية . الحكومة تقوم بحملة تفتيش واسعة . اعتقال اكثر من عشرين شخصاً . اخبار آخر ساعة » .

وفي الساعة العاشرة صباحاً ، سيق عبيد من غرفته ، بعد ان وضعت في يديه الاصفاد وادخل الى غرفة المحقق . كان هذا جالساً وراء مكتب عامر بالاوراق والملفات ، وكانت تبدو عليه امارات الجدد ، وهو يحدّق بعبيد من وراء نظارتين سوداوين . كان عابساً اكثر الوقت ، ولا يلتسم الا عندما يريد ان يستهزى بما يقوله عبيد ، ولا يؤاتي مقصود حضرة المحقق من التحقيق . ومرة ثانية ، مرّت امام مخيطة عبيد صورة العجوز ، مديرة دار اليتام

التي كان فيها في حضرته ، عندما كانت تستدعيه هذه لاستيضاحه
عن عمل قام به ، او لمعاقبته على مخالفة ارتكبها . وكان
عبيد يضحك في سرّه ، من تشابه المناسبتين ، وكان يقارن في
مخيلته ، بين ميزان العدل ، الذي يحمله المحقق هذا ، وبين الميزان
الذي كانت تزن فيه العدل رئيسة دار الايتام .

وبعد ان راجع المحقق ، ما جاء في مذكرة الاتهام ، استوى
في مقعده ، كما لو كان حاكماً بأمره ، واشعل لفافة من نوع
« اللاكي سترايك » وقال لعبيد :

— ما اسمك ؟

— عبيد .

— اسم ابيك .

— لا أعلم .

— اسم امك .

— لا أعلم .

واغتاض حضرة المحقق وقال بشراسة :

— يبدو انك لا تدرك في حضرة من انت . اني احذرك من

الاسترسال في هذه اللامبالاة ، عليك ان تجيبني على اسئلتي ،
دونما لف او دوران .

وعادت الى عبيد صورة رئيسة الدار العجوز ، عندما كانت

تحذّره من اللف والدوران ، وقال في ذات نفسه : « يبدو ان

هذا من مسمّات التحقيق ، ايما تحقيق » ولكنه اجاب :

انا يا سيدي لم اعرف اسم ابي ، لانه مات قبل ان اولد ،

ولا اعرف اسم امي ، لانها هي ايضاً ماتت في الدقيقة التي ولدت فيها . كل ما اعرفه من هويتي ، اني ابن دار اليتام ، وان هذه الدار هي التي سمّنتني عبيداً .

— اذن ، انت لقيط . اليس كذلك ؟

واحتدم عبيد من الغيظ ، وانفجر في جرسٍ ، لم يكن لينفجر به ، امام موظف كبير في الدولة ، وقال المحقق :

— ليسمح لي حضرة المحقق ان احذره بدوري هذه المرة ، من توجيه ايما اهانة لي من هذا النوع . انا انسان شريف ، مثل كل انسان شريف ، ولست انا الذي ارتكب جريمة قتل ابي ووفاة امي ، اللذين كانا من اشرف الناس . لو كان في مجتمعنا قضاة ومحاسبون عادلون ، لما قُتل ابي قبل ان اولد ، ولما ماتت امي ساعة ولدت . ارجوك يا حضرة المحقق ، ان تتمم وظيفتك ، دون ان تحقّرني وتحقر والدي .

وادرك المحقق منذ الدقيقة الاولى ، انه امام انسان ، من غير الفئة التي كان يؤثى اليه بها . وبدأت على وجهه هذه المرة ، ابتسامة لا استهزائية ، كأنما هو اراد أن ينفي عن نفسه تهمة الاهانة والتحقير ، وقال لعبيد :

— ضع يدك على الكتاب المقدس ، وقل « اقسم بالله العظيم اني اقول الصدق ، ولا اقول غير الصدق . »

وقال عبيد : « سأقول الصدق ، ولا اقول غير الصدق »

وقال المحقق : « بل عليك ان تقسم ويدك على الكتاب . هذا الانجيل اذا كنت مسيحياً ، وهذا القرآن ، اذا كنت مسلماً .

— واذا كنت لا هذا ولا ذاك ياسيدي ؟ قالها بابتسامة صفراء .

وحار المحقق من امر هذا الشاب ، ولم يدرك بماذا يجيب ، وتابع عبيد :

— وهل لا يقول الصدق ، إلا من كان مسيحياً او مسلماً ، ومن يقسم ويده على احد هذين الكتابين ؟ ان لي من انسانيتي وشرفي ، ما لا يدعني اقول غير الصدق . فاذا كان لا بدّ من القسم ، فأرجوك ان تقبل قسمي ، بما هو اقدس عندي من كل الكتب المقدسة . اما اذا كنت لا تصدّقني متى اقسمت لك بشرفي وانسانيتي ، فلا تطمئن الى صديقي ، اذا اقسمت لك على كل ما في الدنيا من كتب مقدسة .

كان المحقق معجباً في دخيلته ، بعبيد ، ولكنه لم يبد عليه ايما ظاهرة من هذا الاعجاب . فهو امام وظيفة ، يجب ان يقوم بها مثل كل موظف في الدولة ، بصرف النظر ، عن ايما شيء آخر . وجعل المحقق يقلب في اوراقه ، واعتوره شيء من الدهول . غير انه افاق من ذهوله ، وتذكّر واجب الوظيفة . واذا راجع في ذاكرته كل الاجتهادات القانونية ، بما يتعلق بالقسم ، خلص منها الى النزول على نظرية عبيد ، وقال له :

— لا بأس من مسألة القسم . قل اذا كنت انت المسؤول عن جريدة « صوت الشعب » .

واجاب عبيد :

— نعم ياسيدي . انا المسؤول عن هذه النشرة . انها نشرة

يا حضرة المحقق وليست جريدة . وقال المحقق :

— سواء كانت نشرة ام جريدة . هذا ليس المهم . المهم ، هو المكتوب فيها . على كل هذه مسألة ينظر فيها فيما بعد . ولكن قل لي الآن ، هل انت الذي دعوت الى الاجتماع ، الذي عقد الليلة الماضية في بيتك ، وما هي الغاية من الاجتماع ؟
— كان امس عيد مولد ابننا بشير ، واراد الاصدقاء ان يجتمعوا على كأس عرق ، احتفاءً بمرور سنتين على مولده .
— جلسة عرق ام جلسة حرق ؟ قالها المحقق وعلى وجهه ابتسامة ، تدلّ على عودته الى السخرية .

— قلت لك يا سيدي ، اني لا اقول غير الصدق ابداً . لست احسب نفسي جبناً بهذا المقدار ، لكي اخاف من قول الصدق .
— وهذه الاوراق التي ضبطت عندك ؟

— وماذا في هذه الاوراق يا سيدي ؟ هل قرأتها ، ووجدت فيها ما يشكل جريمة . ان النشرة هذه ، تصدر من اكثر من سنة ، ولم يقل احد عنها إنها نشاط هدام يخشى منه . دلني يا سيدي على مقال واحد ، فيه تثبت هذه التهمة .
واخرج المحقق الملف ، ودلّ عبيد على الاسطر ، المعلم عليها بالخط الاحمر ، وجعل يتلوها عليه .

ما معنى هذا الذي تقوله هنا عن وجود الاستعمار في البلاد ، كأنك تنكر ان بلادنا استقلت منذ زال الانتداب . وهذا المقال الذي تهيج فيه الشعب لمقاومة مشاريع النقطة الرابعة ، اليس فيه ما يدلّ على الشعب ؟ وهنا ايضاً توجه التهم للحكومة ،

وتقول عنها انها مسيرة من الدوائر الاجنبية الغربية . اليس في هذا ما يشكل قدحاً وذمماً بالحكومة ؟ وهنا ايضاً تقدر بالحكومة الاميركية ، وتسميها حكومة استعمارية ، اليس في ذلك ما يسيء الى علاقات البلاد الدولية ؟ وهنا تتكلم عن وحشية الحرب في كوريا والهند الصينية ، وتسميها حرباً استعمارية ، من قبل الدول الغربية الصديقة . اليس في هذا تدخل بما لا يعنك ولا يعنيننا ؟ وهنا تدعو الى التظاهر من اجل تونس ومراكش . اليس في هذا دعوة صريحة الى الشعب والاخلال بالامن العام . في كل اعداد الجريدة ، لا يوجد جملة واحدة ، او كلمة واحدة الا عن الطبقة العاملة ، كأن البلاد كلها طبقة عاملة ، وليس فيها ايما طبقة غيرها . اليس في ذلك ، ما يدعو الى اثاره طبقة من المواطنين على طبقة اخرى ، بقصد التفريق بين طبقات الامة ، واحداث القلاقل بينها ؟ ان مهمة الصحافي الرصين ، ان يساعد على الاستقرار ، ولا يعمل للتشويش . ان الصحافة سلاح ذو حدين ، ويبدو لي انك اخترت الحد الجارح الهدام فقط . اذا كانت هذه هي البداية ، فما عسى ان تكون النهاية ؟ في كل عدد من « صوت الشعب » تهجم على الحكومة ، وعلى مشاريعها وسياساتها . وفي كل عدد ندب ونواح ، على الحالة الفقرية التي ، تزعم ان العامة تعيش فيها ، كأنك لا ترى ما تفعله الحكومة من اجل الشعب . وفي كل عدد نداء عن السلم ، كأن الحكومة تعمل من اجل الحرب . هل تراك دخلت في هذه الحركة ، التي يسمونها انصار السلم الشيوعي ؟ هل تزعم ان « صوت الشعب »

هو صوت الشعب الحقيقي . وصوت الحكومة هو صوت
من اذن ؟

كان المحقق يستخلص التهم ، من الاسطر المعلم عليها بالخط
الاحمر ، ويدلّ عبيداً على كل منها . وعندما توقف عن الكلام ،
سأله عبيد ، اذا كان يسمح له بالردّ على هذه التهم واحدة واحدة ،
ولو كان في رده شيء من الاسهاب ، وبعدها ليأمر حضرته بما
يشاء . واذا اذن له المحقق بما طلب ، افاض عبيد بالاجابة :

—يخيّل الي يا سيدي ، ان التهم التي توجهها لي ، تهم سياسية ،
من النوع العالي . ما حسبت اني كبير بهذا المقدار . ارجوك يا
سيدي ، ان تسمح لي ، انا الرجل البسيط ان اتكلم ببساطتي ،
التي لا اظنها بلاهة . فنحن ابنا العامة البسطاء ، لم يحرمنا الله
العقل والفهم كما قد يظن بنا الكبار . ان الحاجة تعلمنا اذا كنا لا
نستطيع ان نتعلم بالمدارس . كنت اعتقد يا سيدي ان حرية
الرأي والفكر والمعتقد ، مكفولة لكل مواطن في الدستور .
ونحن ايضاً مواطنون ، وان كنا فقراء ، والفقر ليس عيباً على
ما اظن . وما دمت تلطفت واذنت لي بالكلام ، فاني اطمع
بسعة صدرك ، لاجيب على ما تتهمني به .

« لماذا ننقد النقطة الرابعة ونقيم عليها قيامنا ؟ لانها بعرفنا ،
وبعرف معظم رجال السياسة في البلاد ، مشروع استعماري ،
للتسلّط على اقتصادياتنا ، تمهيداً لعودة الاستعمار ، الذي كنا
تخلصنا منه ، كما قلت جنابك . حتى في المجلس النيابي ، قالوا
ذلك ، في الاسبوع الماضي بالذات . ونحن ما قلنا غير ما قيل في

المجلس . لماذا تهتم «صوت الشعب» بالطبقات العامة ؟ لان صوت الشعب ، هي للشعب ، ولعامته قبل كل شيء . ان للطبقات الخاصة ، من يهتم بها اكثر مما تهتم بنفسها . معظم صحف البلاد لها رجالا تنالنا الكبار ، كلهم منها ولها . ثروة البلاد كلها في ايديها . ان لديها من القوة ، الداخلية والخارجية ، ما يغنيها عن نشرة صغيرة وفقيرة « كصوت الشعب » . هل يُستكثر صوت واحد من الف صوت ، يرتفع عن العامة ، التي هي اكثرية الشعب الساحقة ؟ لماذا ننتقد الحكومة ؟ لانها لا تعمل بارادة الشعب ، ولمصلحته ، وهذا ما لا نقوله نحن فقط ، بل يقوله مثلنا ، بعض رجالاتها بالذات في محافلهم الخاصة ، وعلى صفحات الجرائد احيانا . لماذا نقدح بسياسة اميركا والدول الغربية في كوريا والهند الصينية ؟ لان ليس من بلد في الدنيا ، يستطيع ان يعزل نفسه ويعيش في قوقعة . قل يا سيدي المحقق ، لماذا لا يحق لنا ان نأتي على ما يحدث في كوريا ، بينما يحق للحكومة ، ان تسهم في الحرب هناك ، مع فئة ضد فئة ، وتتبرع بمساعدة ، تقدمها للفئة التي اختارتها من بين الفئتين ؟ لماذا نوجه اكثر هجمتنا الى الولايات المتحدة ؟ لانها هي ، بالدرجة الاولى ، تتدخل في شؤون بلادنا ، وتساعد الدول الاستعمارية الاخرى علينا ؟ لماذا نتكلم عن السلم ونؤيد حركة السلم العالمية ، ونطالب بتحريم القنبلة الذرية ؟ عجيب يا سيدي . هل يجب ان نتكلم عن الحرب ، ونؤيد الدعاية لها ، ونهلل لوجود القنبلة الذرية ؟ هل يعتقد احد ان الحرب اذا امتدت الى بلادنا ، يعفّ المحاربون عن قذف القنبلة

الجهنمية علينا كما قذفوها على غيرنا ؟ هل تكون الدعاية للسلام جريمة ، والدعاية للحرب فضيلة . السلم الذي نطالب به ، سلم شيوعي ؟ هل هناك سلم شيوعي وسلم غير شيوعي ؟ روسيا تفيد من حركة السلم والدعاية للسلم ؟ الآنّ روسيا تفيد من السلم ، يجب علينا ان ندعو الى الحرب ؟ عفوك يا سيّدي ، اذا تكلمت بهذا التطويل . انك سمحت لي به ، وانا اشكر لك سعة صدرك . انك قلت لي ، ان « صوت الشعب » تخرج موقف الحكومة ، وتسيء الى علاقاتها مع الدول الغربية الصديقة ؟ اسمح لي بان اخبرك يا سيّدي ، ان الدولة التي تقولون اننا نخرج موقف حكومتنا منها ، هي نفسها ، وبواسطة رسول من قبل مؤسسة العون الاقتصادي ، التي ترعاها وتحذب عليها هذه الدولة ، افضت لي عن تقديرها « لصوت الشعب » ، وذلك في الاسبوع الماضي بالذات . وزادت على ذلك ، استعدادها لتقديم مساعدة منها لنا . هل يكون ما قاله الرسول نوعاً من الخداع ؟ ما عليك يا سيّدي المحقق الا ان تستدعي هذا الرسول ، وتتحقق منه صدق قولي . اسمه فؤاد حبّان ، الموظف في مؤسسة العون الاقتصادي ، التي هي بالضبط النقطة الرابعة . الا يجوز لي اذن ، ان احسب ، ان رفضنا هذه المساعدة ، هو الدافع ، لتراكم التهم الموجهة الينا ؟ هل كنا صرنا وطنيين واستقرايين وغير هدامين ولا مشاغبين ، لو كنا قبلنا المساعدة تلك ؟ ان « صوت الشعب » نشرة شعبية ومتواضعة ، وبودّنا ان نبقىها شعبية ومتواضعة ، ولست احسب ان هذا يخطّ من قيمتها ، او يقلّل من نفعها . انها نشرة ،

بغيتها تثقيف عامة الشعب ، وتعريفها حقيقتها . ان غايتها ان
 تعلم عامة الشعب ، ماذا يجب ان تعمله ، او لا تعمله ، لكي
 ترتفع الى درجة الانسان ، كما تفهم الانسان انت ، وكما افهمه
 انا ، وكما يجب ان يفهمه كل انسان . هذه كانت شهادة السيد
 فؤاد حبان بالذات ، مبعوث مؤسسة العون الاقتصادي الاميركي ،
 عندما زارني ليلبغني تقدير مؤسسته لعملنا ، ويعرض علي مساعدتها
 المالية . ان عامة الشعب يا سيدي ، بامس الحاجة الى تثقيف
 اجتماعي وانساني ، وبجاجة الى توجيه وطني ، لكي لا تبقى كما هي
 عليه ، ناساً يأكلون ويشربون ، ويتزاوجون ويتناسلون ، ولا
 يفكرون فيما هو ابعد من الاكل والشرب والزواج والتناسل ،
 كما هو الشأن عند الحيوانات . ان الطبيعة يا سيدي ، لم تحرم
 العامة من مادة العقل ، فمن الكفر بانسانية الانسان ، ان تهمل
 هذه الثروة الطبيعية ، التي وجدت في الانسان ، كل انسان .
 هو الكفر بالذات ، ان يبقى هذا القحط العقلي والادراكي
 منتشراً في هذه الكثرة الساحقة من الناس ؛ التي يطلق عليها
 اسم العامة ؛ ويبقى شعبنا بالتالي مطمحاً للاقوياء والطمّاعين
 والمستعمرين الاجانب . هل قرأت يا سيدي المحقق في مطلق عدد
 من اعداد « صوت الشعب » ما يخرج عن هذا الذي اقوله الان ؟
 هل قرأت اية نكرة طائفية ؛ او تلميح ارهابي ؛ او مقال لا اخلاقي ؟
 هل قرأت ايما اسفاف ، او ابتذال ، او تهريج ، بقصد الالهاء
 والتخدير ؟ هل قرأت في « صوت الشعب » تهشيماً بشخص ما ، او
 برئيس دولة ، او رئيس حكومة ، او وزير ، على سلوكه

الخاص في بيته وعائلته، كما تفعل بعض الجرائد؟ اننا ننتقد اعمالاً، ولا نهشم اشخاصاً. اننا نبغي خلق وعي شعبي، وليس شعباً شعبياً. ان الدستور، الذي يكفل حرية الفكر والرأي، والذي يحمي وراءه من يتناولون على حرمة الناس، ومن يجدون الطائفة والاقطاعية، ومن يدافعون عن الاحتكار والاستثمار، ومن ينشرون الروايات الخلاعية واللصوصية، ويهللون لمشاريع الاستعمار، ومن يدعون اليه علناً احياناً، ان هذا الدستور ياسيدي، هو دستورنا كما هو دستورهم، وهو نفسه يكفل لنا حرية الدفاع عن العمال والفقراء والمحرومين، وحرية الطعن بالاستعمار ومشاريعه، وحرية ابداء رأينا في سياسة الدولة وحرية المطالبة بحقوق الضعفاء. ان الدستور ياسيدي لم يوضع، الا لكي يطبق على الجميع. ارجوك ياسيدي ان تعذرنني. انك كريم والكريم يعذر.

كان المحقق مندهشاً بحديث عبيد. وكان في دخيلة نفسه، يقدر هذا الشاب العجيب، الذي قال عن نفسه إنه بسيط، ولكنه على ما يبدو، يفهم الامور ويحللها، كما لو كان اكبر رجل سياسي. لقد حرص المحقق على الا يقاطع عبيداً، عندما كان يتكلم. فالغرفة سرية، وليس فيها احد غيره وغير عبيد. وهو حرّ في ان يدوّن ما يريد من كلام عبيد، وان لا يدوّن ما لا يريد. لقد اراد ان يتجاهل وظيفته، الى حدّ ما، ويسبر غور هذا المتهم الشاب، الذي قال عن نفسه انه بسيط، فما رآه هو كذلك. ولكن ما دخل الوظيفة مع دخيلة نفسه؟ انه

موظف على كل حال . والوظيفة تفرض عليه واجباً . وليس الصراع النفسي اياماً شغل في هذا الواجب . وعندما انتهى عبيد من كلامه ، قالت الوظيفة :

— لسنا هنا لسماع محاضرة سياسية . انك متهم باشياء معينة .
وقال عبيد : هل لسيدي المحقق ان يعيّن لي هذه الاشياء المعينة ؟

— هي ما قلته لك تماماً ، في هاتين الساعتين .
وادرك عبيد أنه امام خطة موضوعة ، وظهرت على وجهه دلائل اللامبالاة . واوماً له المحقق ، معلناً انتهاء التحقيق .
بقي المحقق مغلقاً بابه اكثر من نصف ساعة ، بعد مغادرة عبيد للمكتب ، وقبل ان يأخذ قراراً بحق عبيد . كان عبيد في الرواق ، وفي حراسة رجال الشرطة في هذه الاثناء . وكان المحقق يعالج قضية عبيد فيما بينه وبين نفسه . وخشي ان يسترسل في التفكير ، ويؤول به الامر ، الى الوقوف عند رأي ، لا يتوافق مع كونه موظفاً . فاخذ ورقة ، وكتب عليها « بوضع المتهم عبيد في التوقيف مؤقتاً لاستكمال التحقيق في القضية جملة . »

ورنّ الجرس من مكتب المحقق ودخل الشرطي ليتلقى الامر . وعندما خرج هذا الى الرواق ، كان شرطيان يوثقان يدي عبيد ، ويسوقانه الى السجن الكبير . فما ان اطل عليه ، حتى استقبله رفاقه ، الذين كانوا اعتقلوهم ايضاً اثناء الليل . وارتفعت الهتافات : « يعيش عبيد . يا . يا . يعيش . »

كان عبيد السجين ، يقضي اوقاته بالتسلية مع زملائه في القاوش . وكان هؤلاء من المحكومين بجرائم مختلفة . كان بينهم من سرق ، ومن قتل ، ومن ارتكب جريمة خلقية ، الى آخر ما هناك من صنوف الجريمة . كان رفاقه الأقربون ، الذين اعتقلوا بنفس « جريمته » في قاوش رقم ٧ ، بينما حشر هو في قاوش رقم ٣ ، مع المجرمين العاديين . كان يصطف معهم في الصباح ، فيجري الحفير التعداد اليومي ، ثم يخرج معهم ، لقضاء الحاجة الصباحية . كان عبيد يؤاكلهم ، ويجالسهم ، ويتحدث معهم ، كأنه واحد منهم ، فلم يمض على وجوده معهم اسبوع ، حتى رأوا فيه انساناً ، غير ما توهموا فيه ، يوم جيء به الى القاوش . كان حديثه ينفذ اليهم مثل السحر ، فاحبوه واحترموه وصاروا ينظرون اليه كرئيس عليهم . وفي ذات ليلة ، احس عبيد بحركة غير عادية في الزاوية التي ينام فيها السجين الصغير هاني . ولاحظ عبيد ان جاره المحكوم بجرم شنيع ، يتسلل الى جانبه على نحوٍ بشع . فما كان من عبيد الا ان قام من توة ، واندفع نحو هذا المجرم الوحش ، وكال له اغلظ الكلام ، ووجهه على تصرفه الشائن ، مهدداً اياه باستنزال العقاب عليه من ادارة السجن .

كان المعروف عن قاوش رقم ٣ ، انه وكر العريضة والسباب والشتائم والقذارة ، فاصبح بعد مجيء عبيد ، اهداً قاوش في السجن ، بما اثار دهشة السجنان ، وجعله يراجع نظره

في تأديب المساجين . كان السجنان يطالع في كتب علم النفس ،
عن نفسية المجرمين ، وكيف يجب ان يُعاملوا . ومنذ لمس التغير
الذي حصل في قاووش رقم ٣ ، بعد مجيء عبيد ، بدأت
تختمر في رأسه ، الفكرة التي طالما قرأ عنها ، ولم يكن يعطيها
انتباهه الكامل ، ان العصا لا تؤدب نفسية المجرم الشريرة ، انما
يؤدبها نفسٌ صالحةٌ ومصلحة .

كان عبيد ينتظر ، كما كان السجنان المدير ينتظر أيضاً ، ان
يتبلغ موعد المحاكمة . فقد مر شهر كامل على اعتقاله ، دون ان
يستدعى الى تحقيق ما ، بعد التحقيق الاول ، ودون ان يعلم متى
سيحاكم . وكانت تمر الايام ، ولا يُسمح لاحد بأن يزوره في
السجن ، كأنما ارادوا بذلك ، ان يبعدوه عن العالم كل البعد .
حتى رفاقه في « الجريمة » لم يكن يؤذن لهم برويته الا من بعيد ،
عندما يخرج المساجين الى الحلاء . كان لا يعلم اذا كان هؤلاء
الرفاق ، لا يزالون كلهم في الحبس ، ام خرج منه احد . كان
كلما انفرد الى نفسه ، ينشغل بالتفكير ، فيما قد تكون حركة الشلة
قد آلت اليه ؛ وبالتالي « صوت الشعب » وفيما اذا كان الرفاق
الذين لم يعتقلوا ، يواصلون العمل والنشاط ، ام اصيبوا بصدمة ،
وجبنوا او تكاسلوا ، بانتظار خروجه من السجن . كان يشتهي من
صميم قلبه ، ان يحاكم في محكمة ، فاما ان يخرج بريئاً ، او يحكم عليه
بمطلق عقوبة ، ولا يهتم اذا كانت هذه من اقصى العقوبات .
كان يسأل السجنان المدير عن هذا السكوت ، فلا يحظى منه

الا بهز الكتفين ، علامة عدم معرفته بامرٍ ليس من وظيفته . ثم مرّ شهر ثان وثالث ، وهو سجين غير محكوم . كان يعطي من الضعف قوة ، عندما نسر الجرح الممتد من خرسه المنخور الى فكه الاعلى ، حيث اخذ يكشط عن العظم غطاءه اللحمي ، وبدأ ينخر العظمة نفسها . كان عبيد يُساق الى عيادة طبيب السجن ، يوماً بعد يوم ، فيعطيه الطبيب ماءً للغرغرة ، ولم تفده بشيء ، ولا استطاعت توقيف تهرة الجرح . كان طبيب السجن كهلاً ، جاوز الخمسين من العمر ، قضى حياته الطبيّة كلها ، في الوظيفة ، فما افادته الوظيفة ، الاّ بالمعاش الذي كان يتقاضاه في آخر كل شهر .

كانت العجوز مريم وحيفة ، تذهبان في كل اسبوع ، الى المرجع المختصّ ، وتستأذنان بزيارة عبيد في السجن ، فما استطاعتا ان تحصلا على الاذن المطلوب . وكانت البرقيات تتوارد على الحكومة بشأن عبيد ، من اهل المدن والقرى ، ومن الطلاب وجماعات المثقفين . وتشكلت مظاهرة في ذات يوم ، وكان شعار المتظاهرين « اطلقوه او حاكموه » . واشتدت الحملة على الحكومة ، عندما سرت سائحة ، ان عبيد مريض ويداهمّه الخطر . وكان الدكتور صادق ، اكثر المحتجين عنفاً . وابرق الى وزير الأمن ، محملاً اياه مسؤولية موت عبيد ، مسمياً موت عبيد ، اذا حصل ، جريمة تقترفها الحكومة بالذات . وحارت الحكومة بالامر . فهي تتهيب محاكمة عبيد امام

القضاء ، خشية ان لا يجد القضاء مبرراً للحكم عليه ، فيكون اعتقاله كل هذه المدة فضيحة . وهي في نفس الوقت ، تخشى ان تطلق سراحه ، ويعود الى نشاطه ، وذلك ما لا تريده ، ولا ترغب فيه لسياسة عليا ، تحرص عليها كل الحرص ، تمشياً مع سياسة دولية ، تنهجها ، دون ان تجهر بها . كانت تجيب عندما يباحثها احد بأمر عبيد : « ان هذا الشاب يأبى الا ان يحمل السلم بالعرض ؛ ومن العبث اقناعه بحمل السلم بالطول . ان السياسة تقضي بمهادنة الدول الاجنبية ؛ ومسايرة الغرب ؛ وقبول المشاريع التي تأتي بها دول « العالم الحر » . ان السياسة فن ومراس ؛ وهذا المشاغب لا يريد ان يفهم ؛ والعلة الكبرى انه لا يدع غيره ايضاً يفهم . هؤلاء المجانين يقلقون الراحة العامة ؛ ويعكرون الصداقة بيننا وبين الدول التي تساعدنا ؛ وتظهر كل استعداد لحمايتنا والدفاع عنا . ان هؤلاء مفهوماً خاصاً للصداقة ؛ وهو مفهوم خاطيء ؛ ولا يتفق مع مفهوم رجال الحكم لها . ان الحكومة أفهم من هؤلاء المجانين ؛ ولا يجوز للحكومة ان تعطي هؤلاء المدى للشغب والغوغائية . انهم ينادون بسقوط الاستعمار ؛ كأن الحكومة تريد الاستعمار ؛ وينادون بالسلم ، كأن الحكومة تريد الحرب . ولكنهم مهووسون ، ولا يتركوننا نتدبر هذه الامور بالحكمة . ان الشعب لا يزال قاصراً ، مع الاسف ؛ وليس هم الذين سيرفعونه بالمشاغبة . ان رفع مستوى الشعب ؛ هو من اعمال الحكومة ؛ والحكومة لا يشغلها غير ذلك . »

وتجاه هذا الطوفان من البرقيات والاحتجاجات والتظاهرات
رأت الحكومة ، أن من الحكمة ، تخفيف القسوة عن عبيد
ورفاقه . فصدر الامر باطلاق سراح القافلة ، ما عدا عبيدآ . على
انها وعدت بالافراج عنه في مستقبل قريب ، عندما تهدأ الغوغاء
ويسود الاستقرار .

وجاءت العجوز ذات يوم الى المرجع المختص باعطاء الاجازة
لزيرة عبيد . فاستقبلها الموظف ببشاشة لم تتعود ان تراها فيه .
واعطاها جوازآ يخولها مقابلة عبيد ، شرط ان لا يرافقها احد .
وفي صباح يوم الاحد ، وهو اليوم المحدد لزيرة المساجين ،
حملت العجوز نفسها ، وحملت معها ما تيسر من مآكل خفيفة
الحمل ورخيصة الثمن ، وبكرت في المسير الى الضاحية البعيدة ،
حيث يقوم السجن . كانت الساحة مزدحمة بالزوار ، فالسجين
يغص بالمساجين والزوار ينتظرون هذا اليوم ، ليشاهدوا ذويهم
فيه . هذا يحمل قفّة فيها مآكل ، وذاك يحمل على ظهره فراشآ
لابنه او لقريب له . وآخر ، تبدو عليه دلائل النعمة ، يحمل
علبة شو كولاتا وبسكوت . كان بين هؤلاء امرأة ، تحمل على
كتفها طفلها ، الذي صمخ آذانها طوال الاسبوع ، وهو يسألها عن
ابيه ، ويلج بأخذه اليه . كانت القيامة قائمة في الساحة ، وكان
المحتشدون فيها ، يعربدون ويتشاحنون ويتزاحمون ، كل يريد ان
يسبق الآخر الى المدخل . وكان السجنان يزقن بالحشود ، ويدفش
هذا ، ويلكم ذاك ، وينتهر بفضاظة من لا يصطف بالدور . كانت

العجوز مريم اهدأ من غيرها ، وهي تنتظر دورها ، الذي لم يكن يجيء ، لان الدركي المسؤول ، كان يقدم من يعرفه ، او من يعرف انه يخص فلاناً او فلاناً . وعندما ملّت الانتظار ، وضاق بها الصبر على مخالفة الدركي لنظام الصف ، غضبت وصاحت ، محتجة عليه . وكان لصيحتها مفعول السحر ، فأجازها الدركي الى مدخل السجن ، حيث ابرزت للخفير بطاقة المأذونية . وقتش الخفير في جيوبها ، وقتش ما كانت تحمله معها ، واذن لها بالاقتراب الى الحاجز المحدد ، الذي يقف وراءه المساجين .

ووقفت العجوز ، تراقب المساجين ، الذين يقودهم الخفير للمقابلة . وما ان شاهدت عبيداً يمشي صوبها ويبدأ ، وهو شاحب اللون ، حتى اعتراها الدهول والانقباض . ولكنها تجلّدت ، وحسبت دموعاً كانت على وشك الانهار ، وقابلت عبيداً بالابتسام المصطنع . وعندما وقف امامها ، في الجهة الثانية من الفاصل الحديدي ، قال لها بجرس تهديجه العلة .

— اهلاً بك يا امي .

— اهلاً بك ، يا تقبر قلبي . ماذا بك يا عبيد ، ولماذا انت بهذا

الضعف ؟

— ليس بي ايما شيء . لم ننم كثيراً الليلة الماضية . كنا نتسامر

حتى مطلع الفجر . ليس بي ما يستوجب القلق . قولي كيف عامر وحنيفة ؟ كيف حبيب القلب بشير ؟

— كلهم بأحسن حال ، لا ينقصهم الا انت . كلنا بانتظار

خروجك من السجن . وعدونا بان هذا اصبح قريباً جداً . يمكن

بعد كم يوم الدكتور صادق دائماً يسألني عنك، وهو يسلم عليك.
صادق هو بالحقيقة صادق.

وابتسم عبيد، وكان يختلس النظر الى من حوله، ليسألها
عن الحالة بعد اعتقاله.

وادركت العجوز ما يجول في رأس عبيد. واخذت تسرد
عليه اخبار العائلة. كانت تغمزه احياناً، وتطلق سعالها احياناً
اخرى، وتلك الكلام كمن يعصى عليه الكلام، لكي لا تشير
فضول الخفراء، او من كانوا واقفين قريباً منها. كانت تعلم ما تريد
ان يعرفه عبيد، وكانت هيأت ما ستقوله له. كانت دائماً تحدث
عبيداً وعامراً عن مهارة العجائز في الحبث والدهاء؛ وفي هذه
الساعة يجب ان تستعمل مهارتها هذه؛ وجعلت تقول:

— عامر يتحسن يوماً عن يوم. حنيفة ما في مثلها بين النساء،
هي تخدم عامر احسن خدمة، وعامر سيعيش معها العمر عمرين.
بشير، يا عيني على بشير. الصليب يحفظ قلبه. هو يملأ جو
البيت بالزقزقة. وبشيرة يا عبيد، ماذا تقول عنها، اسم الله
عليها...

واعترت عبيد قشعريرة باردة لدى ذكر كلمة بشيرة «وادرك
على التو حيلة العجوز مريم، مجديتها عنها. وقال في ذات نفسه
ما اعظم هذه المرأة وما ادهاها» وجعل يصغى لكل كلمة
تقولها العجوز عن بشيرة.

وتابعت العجوز حديثها، وكانت تتصنع السعال كلما رأت
احداً ينظر اليها.

— بشيرة يا عبيد صارت تمشي وحدها . كل يوم تلفّ على
بيوت الجيران . ما احد يستطيع ان يوقفها . تغافلنا وتذهب ،
واينما وصلت يستقبلونها « بالاهلا وسهلا » . الجميع يحبونها ويسألون
عنها .

كل يوم تكبر عن يوم ، كأن فيها منفتح ينفخها . صيتها مثل
المسك . سيكون لها مستقبل يفرّح قلوبنا كلها . الله معها ،
والدنيا كلها قدامها .

وتوقفت العجوز عن الكلام ، عندما أعلن انتهاء وقت المقابلة .
وحدقت نظرها بعبيد ، كأنها تريد ان تقول له شيئاً ما ،
واردفت تقول :

— اعطِ بالك لصحتك يا عبيد . الامل بالله انك ستخرج
قريباً . هكذا وعدونا . ساعة سعيدة ساعة تعود اليها . لا تحمل
همنا ابدآ . كلنا نحير وسلامة . ما هو سبب هذه الخنخة بصوتك ؟
— لا شيء سوى اني مزكم قليلاً .

ولفت الخفير نظر العجوز مرة ثانية الى ان وقت المقابلة انتهى .
ومشت العجوز في ناحية المدخل . وكانت تتلفت الى الورا
لتلقي نظرة اخيرة على عبيد . وكانت تتصنع الابتسام عندما
يتقابل نظراهما . وكانت تشير له بيدها وداعاً .

واعيد عبيد الى قاروشه رقم ٣ . وانقشعت عنه الغمامة
السوداء ، لما سمعه من العجوز عن « بشيرة » . وكان فرحاً في
سره ، ويردد : « ما اعظم هذه العجوز وما ادهاها ! »

كان بو محمود وابنه و كنته بعد ان تزوج محمود وسهام ،
يقضون السهرات مع عامر وحنيفة والعجوز مريم . وكان بشير
البلبل الغريد في هذه الالامسيات ، حتى اذا نام ، وخلت الغرفة
من زقزقته ، عادت الجماعة الى الحديث عن عبيد ، وعن سير
الحركة ، وعن انتشار « صوت الشعب » ، وعمّا سيكون شأنها
بعد منع الحكومة لها ، واصدارها ثلاثة أعداد بالسر . وكانت
العجوز تخبرهم عن مقابلتها لعبيد ، وكيف رآته ضعيفاً ، ويخنخن
في كلامه ، وكيف ابتكرت الحيلة ، لاختباره عن « صوت
الشعب » ، وكيف لقط الحيلة على الطائر . كانت تقتخر
ببراعة حيلتها ، وكانت تقتخر اكثر ، ببراعة عبيد في التقاطها .
انه لا شك انسان عجيب ، ولا يفوته شيء .

وفي السهرات ، كان عامر وسهام ، يقرءان على الجماعة صحف
النهار . كانت الصحف تدأب على نشر كل ما يتعلق بحركة عبيد
وبعبيد بالذات . وكانت اكثرية الصحف تشدد النكير على عبيد
وحر كته ، وتسمها بالهدم ، ومحاولة اثاره الشعب ، وعدم
الاستقرار . ولم يكن من يدافع عن الحركة ، سوى صحيفتين
يوميتين وصحيفة اسبوعية . كانت الجماعة في غرفة عبيد ، تنقم على
الصحف المهاجمة ، وتقول عنها انها مأجورة من الدوائر الاستعمارية
الغربيّة ، الفاتحة خزائنها لشراء الصحف والكتاب ، المستعدين
للقبض ، والمتهاكين عليه . وكانت الجماعة تدلّل على صحة قولها ،
بالنعم التي تتدفّق على اصحاب هذه الصحف والاقلام ، وبالعيشة
المرفهة التي يعيشونها ، على نحو لا يتفق مع مداخيل الصحف

والاقلام في هذه البلاد .

وكانت جريدة « الزوبعة » اكثر الصحف اهتماماً بقضية عبيد وحر كته . وكان صاحبها حماد ، اكثر الصحفيين تلوناً في كتابته عنها . كان حماد يعرف عبيداً ، ويعرف عناده وصلابته ، عندما كان يشتغل عاملاً عنده . وكان يقدر هذا الشاب النشط ويحبه . ولكنه في نفس الوقت ، كان يخشاه ويخشى حركته ، لانه كان يخاف على نفسه منها ، اذا اصابته النجاح . كان يخشى ان يكون نجاح هذه الحركة الجديدة ، سبباً لفقدان الثروة التي تتدفق عليه من اصحاب المشاريع الكبيرة التي تساندها « الزوبعة » . وكانت مهارته الكتابية ، قميئة بأن تظهره وطنياً تجاه بعض الناس ، دون ان تفقده رضى الاوساط المالية عليه ، سواء كانت هذه الاوساط محلية ام اجنبية . كان حماد ماهراً في اللعب على الجبلين . والضرب على النقرتين ، واذ رأى ان الاشتراكية ، ماضية في الزحف السريع ، بدأت تظهر في كتاباته اتجاهات اشتراكية ، معتدلة ومتحفظة ، فهو لا يريد أن يموت الذئب ولا أن يفنى الغنم . فما كان منه إلا ان اضاف على اسم جريدته كلمة الاشتراكية . واصبح اسم الجريدة « الزوبعة الاشتراكية »

كانت « الزوبعة الاشتراكية » تدافع عن عبيد وحر كته ، على طريقتهما الخاصة . كان حماد يكتب عن عبيد ، انه شاب ذكي ومتوثب ، ولكنه متطرف . كان ينسب تطرف عبيد ، الى هوس الشباب ، ويطالب الحكومة ، بأن ترفق به ، وتعامله بحسن النية ، وتسامح عن تهوئه ، وتعامله بالعطف . وكان

كذلك يعظ اهل الحركة ، بالتؤدة ، وانتهاج خطة واقعية ،
والسير مع التطور الزمني ، بحجة « ان العين لا تقاوم الخرز » .
كان يطلب الرحمة من الحكومة على عبيد ، ويطلب من عبيد
ورفاقه ، الاتزان ومجاراة الواقع . وكانت زوجة حماد ، المغترة
بجمالها ، وثناء زوجها ، ومناغشة الطبقات العالية لها ، لا تفهم
كتابات حماد ، إلا بظاهرها . وكيف لها ان تفهمها ، وهي تقرأ
السطور ، ولا تقرأ فيما بين السطور . كانت تلوم زوجها ،
وبقساوة احياناً على « اشتراكه » التي لا تلائم الوسط الذي
تعيش فيه ، ولا تتفق مع مصالحه الخاصة . كانت تقول له ، ان
الاشتراكية هي للطبقة العامة الفقيرة ، وهي ليست منها ، وتشكر
ربها على انها ليست منها . كانت زوجة حماد قد تعلمت في مدرسة
اجنبية ، ووصلت الى الصف الثالث ، عندما فتن جمالها حماداً
وتزوجها . كانت لا تعرف من اللغة العربية ، الا شيئاً بسيطاً ،
وعندما تتكلم بها ، تمزجها باللغة الفرنسية . واذ كانت تقرأ جريدة
زوجها ، ولا تعي ما تنطوي عليه ، من دهاء ومروق وبراعة
التغطية ، كان تؤنب حماداً ، على دفاعه عن عبيد ، هذا العامل ،
الذي عرفته عندما كان يشتغل في المطبعة ولا سيما عندما شاهده
في المكتب يوم ذهبت لتنظيم حفلتها قبل سنتين . كانت تقول
لزوجها ، ان عبيداً مستخدم عاق ، وعديم الوفاء والشرف ،
ولا يستحق ان يدافع عنه ، بل يجب ان يؤدب ، ويكون
عبرة لسواه .

كانت الجماعة المترودة على غرفة عبيد ، تستشيط غيظاً على الصحف ، التي تدسّ على الحركة . وكان غيظها ينصبّ بالاكثر على جريدة « الزوبعة الاشتراكية » لحداعها القراء باشتراكيتها المزيفة . كانت الجماعة تستنكر دفاع حماد عن عبيد ، اكثر مما تستنكر دسّ الصحف الاخرى عليه . فهي تعلم ان عبيداً لا يطلب الرحمة ، وليس له ايما حاجة بها ، كما كان يكتب حماد ، لان طلب الرحمة يعني ان عبيداً مجرم ، وعبيد ليس مجرماً ابداً ، بل المجرمون هم من يطلب منهم الرحمة عليه . إنّ حماد رجل خداع واشتراكيته اشتراكية كاذبة ، وهي اكثر خطراً على الحركة من اية رجعية مكشوفة . هكذا كانت تقول الجماعة .

وفي احدى الامسيات ، قالت سهام بنرفزة :

— يجب ان نضع حداً لشنشات جريدة الزوبعة . ان دمي يفرور ، كلما قرأتها وقرأت فيها مكر حماد . ان الصحف التي تهاجمنا على المكشوف ، لاتهمنا ، لانها تفضح نفسها بنفسها . ولكن رياء جريدة الزوبعة ، قد يخدع الكثيرين من الناس ، حتى ممن يؤيدوننا من البسطاء ، الذين يأخذون الاشياء بظواهرها . ان هذا العدو المتستور ، يجب ان نقاومه ، اكثر من الاعداء المكشوفين . غداً صباحاً بالذات ، سأذهب بنفسني الى ادارة هذه الجريدة ، وأطلب من حماد « الاشتراكي » ان يتوقف عن دفاعه عنا ، وسأكون معه غليظة اذا لزم الامر . هذا الكذب لا يجوز لنا ان نطبقه ، وازكد كل التاكيد أن عبيداً يأبى ان يدافع عنه حماد . ان حماداً عميل مأجور مئة بالمية ، وحجته برقبته ، كما

يقولون . هذا الغنى الذي يتنعم به ، ليس من مال ابيه ، ولا من زخم يده . امرأته ما عادت السرماية تلحق رأسها . ما عادت تشبع حفلات ، وقلة حياء . الذين مثل حماد لا يجوز ان نصدقهم عندما يدافعون عنا نحن الفقراء . الكذب له حدّ وعلينا نحن ان نضع له هذا الحدّ . يجب علينا قبل كل شيء ان نعرف من هم اصدقاؤنا الحقيقيون ، ومن هم الذين يخدعوننا بصدقتهم لنا ، بينما هم يطعنوننا من وراء .

كانت سهام تتكلم بقوة وحزم ، مما جعل الجميع يوافقونها ، حتى العجوز مريم نفسها ، ايدتها في كل ما كانت تقوله ، على الرغم من شدة شعفها بعبيد ، وانتظارها خروجه السجن ، الدقيقة بالدقيقة .

بعد اعتقال عبيد ، كانت العجوز تقوم بزيارات اسبوعية للدكتور صادق . انها تحب هذا الرجل ، الذي عطف على عامر عندما كان مريضاً ، وما زال يزوره ويعتني به . وقد ازدادت حبة العجوز له ، لوقوفه بجانب عبيد ورفاقه ودفاعه عنهم ، ضدّ مروّجي اخبار السوء . واعجبت بجرأته عندما ارسل تلك البرقية القاسية الى الحكومة ، وطالبها بانصاف عبيد . كانت دائماً تقول : لو لم يكن هذا الرجل انسانياً ، لما كان يساند الشعب العامل الفقير ، ولما كانت الحكومة والاجانب المسيطرون في هذه البلاد ، ينظرون اليه نظرة الحذر وعدم الارتياح . يقولون عنه انه شيوعي ، لانه يذهب الى مؤتمرات السلم ، ويكتب دائماً ضد

الاستعمار ، وضدّ الحروب . كل الناس الطيبين يؤيدون السلم ،
ويقاومون الاستعمار . اذّا كل الناس الطيبين شيوعيون . يا لطيف ،
ما اعظم الفرق بين ناس وناس ! التكالب على الغنى والطمع اعمى
البصر . الغنى اصل كل رذيلة . اى والله اصل كل رذيلة .

وبعد زيارة العجوز لعبيد ، اخبرت صادق عن حالة عبيد
الصحيّة ، التي كانت تقلقها جداً . كان صادق يطمئنّها ، انه لا بدّ
ان تأتي ساعة الفرج ، وان الذعر الذي ينشره اصحاب النيات
العاطلة ، ما هو الا دعاية كاذبة ، يقصد منها اصحابها ، المتاجرة
بارواح الناس . كان يخبرها كم يوجد من الناس الطيبين في العالم ،
الذين يعملون لخير البشرية . كان كلما عاد من سفرة الى مؤتمرات
السلم ، يجلب لها معه تذكاراً بسيطاً ، شارة سلم ، او محرمة
مدموغاً عليها حمامة بيكاسو ، او شيئاً مثل ذلك . كان يقول لها ،
ان المستقبل لهؤلاء الشباب الذين يضطهدونهم ويسجنونهم
ويعذبونهم . وكانت العجوز تعود من زيارتها لصديق ، وهي على
اكثر ما تكون من راحة البال ، لانها كانت تؤمن به ايمانها
بعبيد بالذات .

وفي ذات امسية ، افضت العجوز لجماعتها بما كان يجول في
خاطرها . انها تعتزم الذهاب الى قرية « الزيتيّة » حيث كان
يشتغل حاشد ، بعد خروجه من السجن . لقد اضطر حاشد ان
يذهب الى مكان بعيد ، ما دامت عين السلطة محمّرة عليه . وفي
« الزيتيّة » يوجد له شغل ، الى ان يفرجها الله ويطلق سراح

عبيد . وبعد هذا لكل حادث حديث .

وعندما اعربت العجوز للجماعة عن عزمها ، صاحت بها الجماعة :

— نسيت انك عجوز على ما يبدو . سفرات مثل هذه ليست

لك . وفضلاً عن ذلك اي معنى لها في هذا الوقت . ما دام عبيد

سيخرج قريباً من السجن ، لنتنظر كم يوم .

وقال لها بو محمود :

— انت لا تعرفين قرية الزيتية . خمس ساعات مشي ، والطريق

صعبة ، لايسير عليها اوتوموبيل ولا عربة خيل . مشوار مثل

هذا ليس لك ولا لي نحن العجائز . ايوه .

وقالت العجوز مريم باصرار :

— لا يوجد شيء صعب على من يريد ويقصد . يجب ان ارى

حاشد بنفسي ، مهما كلفني الامر . لا تهتموا بي اكثر من اللازم

يا جماعة . خففوا قليلاً من حملكم . يجب ان اذهب انا بنفسي ،

اذا قلت نعم او لا .

وعندما بدا للجماعة ، انه ليس هناك من وسيلة لارجاع

العجوز عن عنادها ، قال بو محمود :

— ما دام الامر كذلك فلن ندعك تذهبين وحدك . سارافك

في هذه السفرة ، والاتكال على الله . ايوه . ايوه .

وقالت سهام ، وهي تطلق ضحكة مقهقة ، اضفت على جو

الجد شيئاً من المرح :

— وسيقول عنكما الذين يشاهدونكما في الطريق انكما

زوجان ، او عريس وعروس ، في سفرة شهر العسل .

وقهقه الجميع ، وتبادلوا الغمزات . وابتسمت العجوز مريم
وقالت :

— هنا والعسل لكم انتم يا بنتي . نحن راحت ايامنا . وقت
كنا نقدر نأكل عسل ، ما كان في عسل . اليوم ما بقي قدامنا
غير اكل الخ...

وقال محمود موجهاً كلامه الى ابيه :

— وما في ذلك يا ابي ؟ الحق مع سهام . اعمل مثل ابنك ،
وتزوج نصرانية ، ولتذهب كل القلائس والعمائم الى جهنم .
وقال عامر :

— على الأقل ، تزوجا زوجاً روحياً ، او زيجة نظر ، كما
يقول الاجاويد . الحبّ الروحي ، احسن من الحب الجسماني .
وعادت سهام الى الزكزكة :

— العم بو محمود ، ما زال يخطر على باله أكل العسل . ما
قولك يا عمّي الحبيب ؟ خبّر العمّة مريم حكاية صحن المهلبيةّة .
المهلبيةّة طيبة ونافعة ، وما بدّها اسنان .

وكبس بو محمود شعوره في نفسه . وضحك من حديث
هؤلاء الشباب . ولم يجب على هذرهم بايّا كلمة . وتركهم
يتندّرون . فهو يعرف نفسه اكثر مما يعرفونها هم ، ويعرف انه
يصلح للحبّ الجسماني ايضاً ، اذ ان شعلة هذا النوع من الحب ،
لم تنطفئ عنده بعد ، ولكن هذه الشعلة لا توقدها عجوز مثل
مريم .

« الزيتية » قرية صغيرة ليس فيها اكثر من ثلاثين بيتاً ، وسكانها لا يزيدون على المئة نسمة رجالاً ونساء واطفالاً . وهي تقع في سفح رابية ، مغطاة بغابة زيتون . وعلى قمة الرابية بناية كبيرة ، تخصّ الشيخ عبد الله . الطابق الفوقاني ، يسكنه الشيخ مع عائلته في ايام الموسم ، والطابق التحتاني ، مستودع ، يجمع فيه محصوله من الزيت . والشيخ عبد الله يملك الغابة كلها ، وسكان الزيتية كلهم شركاء مرابعون عنده . كان اسم القرية في الماضي « عين الخبزون » . فعندما اشتراها الشيخ عبد الله ، وجعل ينقب ويزرع ، ويزيد اشجار الزيتون فيها ، كثرت فيها المحاصيل ، وصارت تعطي كميات من الزيت اكثر مما تعطيه ايام غابة مثلها . ثم بنى الشيخ عبد الله ، في القرب من بيته ، معملًا لتكرير الزيت . فهو يرغب في ان يكون زيتُه افخر الزيوت ، التي تخرج من المعاصر القديمة . زيتات الشيخ عبد الله ، بعد ان تخرج من المعصرة بأسيد خمسة بالمئة ، تتكرر في المعمل ولا يبقى فيها اكثر من واحد بالمئة أسيد . ان الشيخ عبد الله رجل عمل ومتفتح ، ويجب الجديد في كل شيء . وقد اعجبته تقنية الاشغال في بلاد الغرب ، عندما كان في اميركا ، فاراد ان يعمل في بلاده ما يعملُه اهل الغرب في بلادهم . ان بمقدوره ان يعمل مثلاً يعمل اهل الغرب ، فيخدم نفسه ، ويخدم بلاده ايضاً . فالاموال لا تنقصه ، والخبرة موجودة عنده ، وباستطاعته ان يستأجرها متى شاء ، وارادته مثل الحديد كما كان يقول دائماً ، وما عليه الا ان يستعملها ، مثل اصحاب

الاعمال الذين كان يشاهدهم في بلاد الغرب . وحين اصبحت « عين الحزون » على هذه الصورة ، وصار زيتها افخر انواع الزيتون ، غلب على القرية اسم « الزيتية » . واستصدر الشيخ عبد الله مرسوماً حكومياً ، بالاسم الجديد ، لمطابقته للواقع .

واهل القرية كلهم يشتغلون عند الشيخ عبد الله بحوشون له الزيتون في الموسم ويفلحون له الارض بعد انتهائه ، ويجرسون الغلة من السرقة ، ويشحّلون الاغصان اليابسة من الاشجار ، وينقبون الحوافي التي لا يصل اليها الفدان ، وينقلون الزيتون الى المعاصر ، ويعصرونه فيها ، ثم ينقلونه الى معمل التكرير ، ويخزنونه في المستودعات . كل معيشة اهالي « الزيتية » من غابة الزيتون . وكلها بأمر الشيخ عبد الله . صحيح ان معيشتهم معيشة كفاف وقلة ، ولكنهم قانعون ، والقناعة في عرفهم ، كنز لا يفنى . وعندما قيل لهم ذات مرة ، ان القناعة اذا كانت كنزاً لا يفنى ، فهي لا تعمّر البلاد اجابوا : « ليعمرها غيرنا » .

ووجد الشيخ عبد الله ، ان معمل التكرير ، يلزمه من يعمل فيه ، ويكون اكثر حذاقة من اهالي « الزيتية » البدائيين . فالآلة تتطلب اكثر مما تتطلبه الارض ، واهالي « الزيتية » لم يعرفوا بزمانهم المحركات ، ولا خبرة لهم فيها ، وليس في نمط حياتهم ، ما يدل على امكانية تعلّمهم شيئاً جديداً . فكان على الشيخ عبد الله ، ان يستقدم عمالاً من المدينة ، اكثر خبرة من القرويين البسطاء . واذ لم يكن في القرية مساكن للعمال المدنيين ، بنى لهم « ثكنات » في جوار المعمل ، لكي يسكنوا فيها .

وكان العمال الاغراب يتزايدون مع الوقت ، كلما ازدادت حركة الشغل في املاكه ، حتى بلغ عدد العمال المدينين خمسين عاملاً ، نصفهم متزوجون وعندهم عائلات . من هؤلاء العمال ، كان صاحبنا حاشد .

كان بو محمود والعجوز مريم ، يصعدان مشياً في الطريق المؤدية الى « الزيتية » . وكانت الطريق وعرة وطويلة . فكهما نال منهما التعب ، كانا يجلسان على صخرة ما ليرتاحا قليلاً ، او لياكلا لقمة عيش ، ويستعيدا القوة على المشي . كانت العجوز مريم ، تتضع القوة ، لكي لا يشمت بها بو محمود . وكانت تقتل الساعات بالثرثرة ، لكي لا يشعر المسافرين بطول المسافة وتعب الطريق . وكان بو محمود يشعل اللقافة من اختها ، ويمجّ الدخان بنهم ، فيخرج من فمه ومنخريه ، كما لو كان خارجاً من مدخنة . وكانت العجوز مريم توالي النصح لابي محمود ، ان يخفف من التدخين ، وهي تقول له ، على سبيل النكرزة :

— ربما نسيت يا بو محمود ، انك لم تعد شاباً . انت تعب الدخان عباً ، ولا تشبع منه . ان التدخين عادة مضرة وسامة في الاصل ، وهو اكثر سماً وضرراً اذا استعمل اثناء المشي ، ولا سيما عندما يكون المشي صعوداً . هكذا يقول اسياذنا الاطباء . انك تعب الدخان وتسعل ، ثم تعود وتعب وتسعل . هذا انتحار يا بو محمود . اذا كنت راغباً في ان تموت ، هذا شأنك . اما ان تموت في الطريق وانت معي ، فالمصيبة تكون مصيبتين .

وقال بو محمود :

— ما عليك يا ستي مريم . السجارة رفيقي من خمسين سنة .
لولاها كنت متّ من زمان . هذه فراجة الموم . خلّ الاطباء
يتفلسفون على غيرنا . عمري ما احتجت الطيب . والشباب من
زناري ونازل ، عدم المواخذة .

وسألت العجوز بشيء من الحبث :

— وكم عمرك يا بو محمود ؟

وقابل بو محمود خبت مريم بحبث مثله وقال :

— عمري على قدر ما اشعر من قوة . المثل يقول «عمر الرجل
بقدر ما يشعر ، وعمر المرأة بقدر ما يظهر في وجهها . على كلّ
حال انا اصغر منك . هذا شيء اكيد . لا تؤاخذيني . ايوه .
وقالت العجوز : « يا لغطسة الرجال » .

وقال بو محمود : « يا لمكر النساء ، لا تؤاخذيني يا ست مريم . أيوه .
وقهقه الرفيقان ، علامة اقتناع كل منهما بما قاله الآخر .

كان الرفيقان المسافرين يقتلان الوقت بالاحاديث وتبادل
النكت . حكى بو محمود حكايته وقت « السفر بولك » في
الحرب الاولى ، كيف ساقوه لدائرة السوقيات ، وكيف شحنوه
في شاحنات مكشوفة ، مع خمسين شخصاً وعشرين حيواناً من
الحيل والحمير والبقر ، من بيروت الى الشام ، وكيف قضت
القافلة اربعين ساعة في الطريق ، على قطار ، يمشي كالسلاحفة .
وكيف ارسلوه من الشام الى فرقة التعليم في اسكندرونة ، التي
كانت بلداً سورياً ، قبل ان تغتصبها تركيا بعد الحرب ،

بالاتفاق مع المستعمرين . كان يشرح لها بكثير من التفصيل ،
 كيف كانوا يسوقونهم مشياً على الاقدام ، وتحت الحفظ ،
 وكيف كان يتناول « القروانة » مع رفاقه ، وهم جالسون
 القرفصاء على الارض ، ويلتهمون الشوربا بنهم من شدة الجوع .
 الشاطر من يسبق غيره ، ويحصل على اكبر حصة من الطعام .
 كان كل واحد منهم ، يحرص على ان تكون ملعقته اكبر من
 ملعقة غيره . وتسع كمية من « القروانة » اكثر مما تسعه ملاعق
 الآخرين . كانت « القروانة » شوربا . اكثرها ماء ساخن .
 وتسبح فيه بضع قطع لحم ماعز . وكمشة عدس او فول او
 فاصوليا او حمص . الشاطر الشاطر من يكون نصيبه قطعة لحم .
 كان يصف لها ما كانوا يقاسونه من العذاب والمرض والتعب ،
 في السنتين اللتين كان فيها جندياً في الجيش العثماني . وكيف كانوا
 يحاربون غصباً عنهم . ويعيشون عيشة الكلاب . ويجوعون من
 قلة الاغذية . ويموتون بالملئات ، بجمى التيفوس والمالاريا ، والهواء
 الاصفر والدوزنطاريا . لا دواء ولا من يحزنون . الدواء الوحيد
 الذي كانوا يعالجونهم به ، هو مغلي ورق الزيتون . والكيننا
 كانت قليلة . ولا يعطونها الا للضباط . كان يخبرها كيف كانوا
 يشحذون من الاهالي ، عندما كانوا يمرّون في قرية ، او يضربون
 خيامهم فيها .

كان بو محمود يقطع حديثه بين الفينة والفينة ، ويسبب
 الاتراك وسلطانهم وحكومتهم ، ويسبب كل من يريد ان يحالفهم
 من حكام العرب . ويقول عن هؤلاء الحكام انهم انذال

وخدام غند اسيا دتركيا المستعمرين ، ومتواطئون مع
الصهيونيين ، خضوعاً لاوامر الدول الاستعمارية .

وبعد ان قضى بو محمود ساعتين ، يمجّ الدخان ويتكلم دون
ان ينسى تردد كلمة « أيوه عدم المواخدة » ، قصّ عليها
اخيراً ، كيف فرّ في ذات يوم من الجيش ، واشتري لباس
امراة ، وحلق شاربيه ، وتحجّب بملاية سمكة ، ودخل الى قرية
صغيرة ، في قعر الوادي ، لا يصل اليها انس ولا جنّ ، واختبأ
عند فلاح فقير ، الى ان قبض لهذه البلاد ان تتخلص من
الاتراك ، وتنجو من الحرب . وكان يقول عن الفلاح الذي
خبّاه عنده ، انه فلاح فقير ، ولكنه كريم وشريف . وكان
يدعوه بالسلامة والعمر الطويل ، هو وزوجته واولاده .

كانت العجوز مريم ، تصغي الى حديث بو محمود ، حتى اذا
توقّفت عن الكلام ، قالت له وهي تضحك :

— واخيراً فررت من المعركة يا لعين ، وتقول ذلك باعتزاز ،
كما لو كان الفرار مرحلة . لا تؤاخذني انت هذه المرة

وتجهّم وجهه بو محمود ، واجاب بلهجة من اصيب في
كرامته ، هو بو محمود ، الذي لا يخاف ايما شيء ، وقال للعجوز
بجرس غليظ :

— فررت ؟ نعم فررت ، من حرب لا ناقة لنا فيها نحن
العرب ولا جمل . الاتراك كانوا مستعبدينا . الملك حسين ،
هو اول من قام ضدهم . خمسمائة سنة بقينا تحت حكمهم . ما
نسيت بعد ظلمهم . شنقوا احسن رجالنا ، ونهبوا كل اموالنا .

ما صدقنا متى تخلصنا منهم ، حتى يقوم اليوم كم باشا من عندنا ،
 ويضعون ايديهم بايدي الاتراك . هذه خيانة يا ست مريم . لا
 تؤاخذيني . طردنا الاستعمار من الباب ، ونعزمه لكي يدخل من
 الشباك . تركيا عميلة الاستعمار . اذا اتفقنا مع تركيا كأننا
 قلنا لاميركا وبريطانيا وفرنسا ، تفضلوا شرفوا . انا لا اعرف
 السياسة ، ولكن المسألة ليست عويصة بهذا المقدار . الشيء
 ظاهر مثل عين الشمس . لا تؤاخذيني يا مريم أيوه . اية وطنية
 تجبرنا على الاتفاق معهم ؟ هذه وطنية ؟ هذه خيانة والف خيانة .
 أيوه لا تؤاخذيني . يقول بعض الناس ، ان من اتوا بعدهم من
 انكليز وفرنسيين واميركان ، ما كانوا احسن من الاتراك .
 هذا صحيح أيوه . ولكن من يقول انه علينا ان نخضع لهم .
 وسنحاربهم كما حاربناهم . والانكى ان بعض الناس يقولون ،
 ان حكامنا اليوم ، ابشع وابشع . هذا ايضاً صحيح أيوه .
 ولكن هؤلاء ايضاً سنظل نحاربهم ، لانهم من صنائع الاتراك
 والانكليز والفرنسيين والاميركان . شعوبنا لم تعد مثلاً كانت ،
 وهي التي ستحرر نفسها ، من الاستعمار الاجنبي ، ومن حليفه
 الاستعمار المحلي . من اجل هذا يكافح الشباب عندنا ، ومن
 اجل هذا ذهب عبيد ورفاقه الى السجون ، وهم يمزجون ، ومن
 اجل هذا قامت حركة عبيد ، وانتشرت هذا الانتشار ؛ ومن
 اجل هذا يا عجوزتي الطيبة ؛ تركضين انت وانا ؛ في هذه
 السفرة المتعبة . المعركة التي فررت منها ما كانت معركتي ولا
 معركة بلادي . معركتنا هي هذه يا ست مريم ؛ وسنظل نحارب

فيها حتى نحز الظفر او نموت فيها . لا تؤاخذيني يا مريم ؛
طوّلت عليك الشرح . أيوه .

كادت العجوز مريم ، تهجم على بو محمود وتقبله ، لولا
الاستحياء . وربّت على كتفه وظهره ، اظهاراً لاعتجابها به .
على انها شاءت ان تخفف من حدته ، لكي لا تزيد على مشاق
السفرة مشاقّ جديدة ، فقلبت جوّ الجد والحماسة ، الى جوّ فيه
شيء من المرح . وجعلت تقص عليه حكايتها هي ، من يوم
كانت طفلة الى هذا اليوم ، وهي الحكاية نفسها ، التي كانت قصتها
على عبيد وعامر ، عندما جاء للسكن معها . وكانت ترتعش من
الغضب كلما ذكرت اسم عبيد ، وذكرت ما يفعله به اولاد
الحرام . كان الرفيقان ، يتنادمان ويستعيدان ذكريات ماضيها ،
ايام كانا في عنفوان الشباب . وقدم بو محمود لرفيقته لفاقة ، فقبلتها
ورسّفت دخان التبغ للمرّة الاولى في حياتها ، وهي تتعجب الى
هذا الرفيق الطيّب والعزوم والشريف .

كانت مريم تمشي على مهل ، وتتكلم على مهل . كان التعب قد
بدأ يحز في جسمها ، بعد هذا المسير الطويل . كان العرق يتساقط
من جبينها ، فتمسحه بردنها . وبدأ على وجهها شيء من
الشحوب ، واسندت نفسها على ذراع بو محمود ، عندما شعرت
بأن صدرها يضيق على انفاسها . والقاها بو محمود على اقرب بقعة
معشوشة على جانب الطريق ، ورشها بقطرات من الماء البارد ،
الذي كان يحمله معه ، في « مطرة » من بقايا « السفربرلك »
وجعل يقول لها مازحاً :

— ارأيت يا عجوزي الطيبة ، من منا نحن الاثنين هو الشاب ؟
انك لن تعيريني بعد الآن . اليس الامر كذلك يا عجوزي
الطيبة ، أبوه .

واجابته مريم بابتسامة عذبة على وجهٍ شاحب ، دون ان
تنطق بايما كلمة ، لانها كانت تعجز عن النطق .
وجعل بو محمود يلطم وجهه عندما شعر بمرارة الامر . وبدأ
له ان المسألة ليست بسيطة كما ظن في بادىء الامر ، وانها لا تحتل
المزاح . « ما العمل يا إلهي » هكذا قال في ذات نفسه .

كانت قرية « الزيتية » ما تزال على بعد ساعة او اكثر قليلاً .
وكان الجوار خالياً من البيوت ، ما عدا بيتاً صغيراً ملحاً بو محمود
من بعيد ، فطرح عليه الصوت ، آملاً ان يسمعه احد ويهرع اليه .
كان امام البيت فلاح يحرق الارض ، وهو يغني « على الميجانا » .
فما كاد الفلاح يسمع استغاثة بو محمود ، حتى ترك الفدان واسرع
الى حيث يرتفع الصوت . غيرة القرويين لا يستطيع ان يصفها
احد . انهم ابناء الألم ويشعرون مع كل متألم . وما لبثت حتى
تبعته امرأة عجوز ، هي زوجته . كانت الزوجة تبسمل ، وتدعو
الى الله وجميع قديسيه ، وتستنزل بركة سيده التلة ، الرابضة
في مزارها على قمة الجبل ، المطل على هذه البقعة المقفرة . وصاح
بو محمود بالفلاح « انا وقيعك يا اخي . بعرضك ان تصل الى
« الزيتية » وتسأل عن شاب اسمه حاشد يشتغل في معمل الزيت .
وتخبره بما رأيت من حالتنا لكي يسرع ويجيء إلينا . انا بعرضك

يا اخي . لا تخل هذه العجوز الطيبة تموت بالطريق . أيوه
وقالت زوجة الفلاح ، وهي تدور حول مريم . وتوسم اشارة
الصليب :

— هيا قبل كل شيء ، نحملها الى عندنا . اذ لا يجوز ان تبقى
هنا بين الصخور ، تحت وطأة الشمس . وانت يا اسعد (اسم
زوجها) مرّ على الدرويش المتنسك في مغارة ارض بو مسعود
وارسله الى عندنا سريعاً . ان عند الدراويش بركات . واكثر من
ذلك . ان هذا الدرويش على قدر كبير من الحكمة والمعرفة .
وحمل الثلاثة العجوز مريم الى بيت الفلاح . وطار اسعد الى
قرية الزيتية ، ليمر في طريقه على مغارة الدرويش .

كانت العجوز مريم تفرغ غرغرة الموت . عندما طار الفلاح
الى « الزيتية » وكانت الغرغرة تزداد شيئاً فشيئاً ، عندما وصل
الدرويش صاحب البركات . وكان بو محمود ذاهلاً لا يملو
على شيء .

كان الدرويش كهلاً هزياً ، يرتدي قميصاً من صوف الجمل .
كان شعر رأسه متديلاً على اكتافه ، ويده لا تفارق لحيته الطويلة
الكثّة . كانت رائحة القذارة تفوح من جسمه وردائه ، وكانت
اظافره الطويلة ، مكلّسة بطبقة سميكة من الوساخة ، كما لو كان
خارجاً من حفرة كنيف . وجعل يدور حول العجوز المنازعة ،
وهو يتمتم كلمات لا يسمع منها الا « باسم ملائكة الجن » .
وكان كلما دار دورتين ، يفرك باصابعه القذرة جبين العجوز

ويردّد «باسم ملائكة الجن» . ثم اخذ زجاجة من جراب يحمله على وسطه ، وأفرغ في فم مريم ، جرعة من السائل الملوّن (من الوسخ على ما يظن) الذي كان في الزجاجة ، واعاد المعزوفة « باسم ملائكة الجن » . ولكن السائل طفا على شفقي العجوز ، التي كانت بدأت تغرغر غرغرتها الاخيرة . وانطفت أنفاسها ، مع نشيخ هذه الغرغرة .

وجمد بو محمود ، وجفّ الدمع في عينيه ، وامتنع لون وجهه بالاصفرار . ووجمت الفلاحة العجوز ، ورسمت اشارة الصليب . وساد سكون الموت .

ووصل حاشد ، واستلقى من توه على جثة العمة المحبوبة ، وجعل يشق بالبكاء ، كما يشق الولد الذي فقد امه . وأوصى بو محمود والزوجين الفلاحين ، ان يبقوا الى جانب الجثة ، وقام على الفور ، وجعل يهرول مسرعاً صوب المدينة ، ليلبلغ عن موت العجوز الطيبة مريم .

كانت الشمس قد غربت من ثلاث ساعات ، عندما بدأ حاشد مسيره نحو المدينة . كان عليه ان يقطع المسافة بنصف الوقت الذي تقطع فيه ، لكي يعود قبل الصباح ، مع من يرافقونه من الرفاق لتوديع العمة مريم ودفنها ، ويتسنى له فيما بعد ان يفكر ، اذا كان يذهب مع الرفاق الى المدينة ، او يذهب الى شغله في العمل . كان يهجن طوال الطريق بعبيد ، وبما قد يكون من امره ، وما اذا كان من المناسب إخباره بموت العجوز مريم وهو في السجن . ولكنه كان لا يريد ان يأخذ ايما قرار قبل ان

يصل الى المدينة ويرى الرفاق .

كان حاشد ينهب الارض نهباً ، دون ان يعوقه عن الاسراع ايما شيء . كان يعدد مناقب العمة المحبوبة ، كما لو كان واقفاً الى جانب الجنة . صحيح ان مريم جاوزت الخامسة والسبعين من العمر ، ولكنها كانت الى الامس ، نشيطة ولا تحجم عن ايما عمل . مريم كانت بركة الحركة وأماً للجميع . وكان يقول في ذات نفسه « ليت عبيداً طليق ، ويرى مريم قبل ان تنزل في الارض . »

كانت ساعة البرج القريب من غرفة مريم ، تدق نصف الليل ، عندما وصل حاشد الى الزاروب ، وهو يلهث من التعب . وكانت الغرفة مضيئة ، على غير عاداتها في تلك الساعة من الليل ، وكان يسمع منها اصوات ترتفع ، كأن حدثاً ما يحدث فيها . كان حاشد يقلب في مخيلته ، ما قد يكون جارياً في الغرفة . اتراها كبسة جديدة من رجال الشرطة ام ان شرّاً وقع بعمار المريض ، ام ماذا ؟

ومشى حاشد في الزاروب على مهل ، ليسترق الخبر . واصغى الى الاصوات ، فتبين له بما لا يقبل الارتياب ، ان الاصوات اصوات فرح وابتهاج . وما ان طرق باب الغرفة ، حتى اسرع الى فتحة عبيد ، عبيد بالذات . كانت المفاجأة سارة ومحزنة في نفس الوقت . سارة لرؤية عبيد طليقاً مع الرفاق ، ومحزنة ، لان الخبر الذي يحمله سيقرب مرح الجماعة الى كدر . وصرخ حاشد : عبيد . عبيد . انت هنا . انت بالذات يا عبيد ؛ ومنذ

متى ؟ »

واجابه ، وهو يضمّه الى صدره :

— لكل شيء نهاية يا حاشد ؛ واليوم بالذات كانت نهاية التجربة التي مررنا بها . لا اعلم متى ستكون الثانية . لا بدّ وان تجيء على ما اظن . عندما بلغني مدير السجن قرار اطلاق سراحي ؛ هرولت على الفور وأتيت الى هنا . سألته اذا كان الافراج عني موقتاً ؛ واذا كانوا سيحاكموني ؛ فأجاب انه لا يعرف شيئاً عن هذا ؛ وكل ما يعرفه انه تلقى امرأً باطلاق سراحي ؛ هذه هي وظيفته فقط .

وعاد حاشد ثانية ؛ وهجم على عبيد ؛ وأخذ في ضمه وتقبيله . كان الرفاق على اكثر ما يكونون من الغبطة والفرح . كان هناك محمود وزوجته سهام ؛ وكان مصطفى وخليفة وحسن وسليم ومراد . وكان عامر مستوياً في فراشه ؛ ومسنداً ظهره على مسند ضخّم ، وضع خصيصاً وراءه ؛ لكي يتمكن من الجلوس . وكان بشير الحبيب يزقزق ؛ وهو يقفز من الفرع ؛ ولما اخذه حاشد بين ذراعيه ؛ وقال له بشير « وين التاتنا مريم ؟ » ولم يجب حاشد .

واعاد الجميع سؤال بشير ؛ وجعل حاشد يفصّ بريقه ؛ دون ان يقوى على الجواب .

— ماذا في الامر يا حاشد . قل تكلم .

— عممتنا المحبوبة ما .. تت »

وصعقت الشلة ، وساد الاكفهرار جوّ الغرفة .

وقالت سهام :

— بالله عليك يا حاشد . ماذا تقول . هل ماتت العمّة المحبوبة ؟

— هو الصحيح يا سهام . هو الصحيح .

وساد الصمت عن ايما كلمة ، بينما كان الجميع ييكون ، وبينما كان بشير يحيل نظره في المجتمعين ، ويشفق هو ايضاً لبكائهم . واطرق عبيد الى الارض . وتجلد على هذه المفاجأة القاسية .

ولم يفه الا بكلمة قلها بمرارة ولكن بصبر عجيب :

— لنذهب الى حيث ترقد امنا المحبوبة .

كانت حنيفة اكثرهم تفجعاً على موت العمّة مريم . كانت مريم امها ، من يوم جاء بها القدر الى هذه العائلة ، ولولاها لما كانت في قيد الحياة ، ولولا عنايتها ومحبتها ، لما كان عندها بشيرها المحبوب . كانت حنيفة تبكي وتبكي ، وتلوم نفسها ، لتركها مريم تذهب في هذه السفرة الشاقة . وكان بشير ، يتقلب في حضن امه ، وهو مرعوب مما يراه في الذين حوله . وكان عامر يتلوّى في فراشه من هول الواقعة ، التي افقدته ، كما افقدت رفاق الحركة كلهم ، اشرف الامهات وافضل النساء .

واخذت تتساقط على حاشد الاسئلة عن العجوز المائتة ، وعن اسباب موتها ، والمحل الذي مات فيه ، فكان حاشد يقول لهم :

— ليس عندنا مهلة للاسئلة والاجوبة . امنا مريم ترقد

الآن في احد بيوت الفلاحين ، قبل الزيتيّة بساعة . بو محمود ينتظرنا هناك مع صاحب البيت وزوجته . يا لطيف على غيرة الفلاحين . لنمشِ حالاً الى حيث تنام عجوزتنا الطيبة ،

وسأحدثكم عنها في الطريق .

وسارت القافلة كلها ، تاركة في الغرفة عامراً يهدد بشيراً .

كان بو محمود ورفيقاه الزوجان الفلاحان ، يحيطون بالجنة الهامدة عندما وصلت القافلة . وكانت الميته مسجاة على ارض الغرفة ، وكانت ترتسم على وجهها ابتسامة ، كما لو لم تكن ميته . كانت يداها مشبوكتين على صدرها البارد ، وكانت عيناها نصف مفتوحتين ، واحتمت في وجهها الباهت تجعدات الشيوخوخة ، وبدأت كأنها صبيّة نائمة على سعادتها .

واستقبلت القروية العجوز القادمين بالنعيب . وقدّمت اليهم ابريق ماء بارد . على ان احداً منهم لم يُرد ان يشرب . وعلت اصوات الناحبين ، من الثلاثة الذين كانوا يحرسون الجنة ، ومن القادمين المفجوعين .

وارتمى افراد القافلة فوق الجنة ، وجعلوا يشمونها ويقبلونها ، في جبينها ، ويديها ، ورجليها وكل جسمها . وابت حنيفة ان تقوم من جانبها . وحضت سهام حنيفة ورفعتها عن جثة مريم . ووقف عبيد قبالة الأم الميته ، وهو جامد لا يأتي ايّما حركة . كان عبيد يشخص اليها بعينين جفّ فيهما الدمع ، وبدأتا كأنهما مقرّزان . كان عبيد جبّاراً في حزنه ، كما كانت جباراً في كل شيء . وعندما اطلّ الفجر ، حمل عبيد ورفاقه جثة امّهم المحبوبة وأودعوها حفرة في سفح الرابية القريبة . ثم شكّوا فوقها ؛ حجراً امّاس ؛ حفروا عليه ، بازميل اتاهم به الفلاح الكريم ،

« هنا ترقد بطلة »

وعادت القافلة الى المدينة ؛ تحمل معها فجيعتها .

١٤

كان الرفاق يتجمعون عند عبيد كل ليلة . انهم فرحون بخروجه من السجن ؛ وما كان ينقص عليهم فرحهم ؛ الا موت عجوزهم المحبوبة ؛ التي كان كل منهم يعتبرها امّاً له . كان عبيد يرغب في ان يعرف كل ما جرى بعد اعتقاله . كان يسألهم عما صار بشأن « صوت الشعب » . واذا قيل له ؛ ان الحكومة فتحت عينها على النشرة ، وهي تطارد من يوزعونها او يقرأونها او يكتبون كلمة فيها ؛ وانه لم يصدر منها الا ثلاثة اعداد في الاشهر الثلاثة الاخيرة ؛ اجابهم « هذا لا يهم ما دامت لم تمت ؛ وما دمنا نحن لم نمت ايضاً » .

وفي الليلة التالية لوفاة العجوز مريم قال عبيد :

— ونديم يا جماعة ؛ اين هو ؟ لم ار له صورة وجه في هذين اليومين ؛ ولم يطلّ علينا ابداً . مريم ماتت وما رأيته . هل هو غائب عن المدينة ؟ هل هو مريض ؟ هل يشغله شغل ما ؟

وطال سكوت الجماعة . ولم يجب احد بكلمة . ولاحظ عبيد ان الرفاق يتبادلون النظرات على امرٍ ما يحاولون كتمانها عنه . وادرك ان في الامر سرّاً ما ؛ فاعاد السؤال وألحّ .

وانبرت سهام الى الاجابة ؛ لان مسألة نديم ليست مما يستطيع كتمانها عن عبيد .

— نديم لم نر له صورة وجه من يوم الحادثة ، ولا نعرف عنه

شيئاً... بلى نعرف عنه أشياء . نعرف انه تزوّج ، ونعرف انه صار على شيء من البجوحة ، ونعرف انه ليس غائباً ، ونعرف انه ليس مريضاً ، ونعرف انه لم يعد ينزل الى شغله الا بالسيارة ، ونعرف ، ونعرف ، ونعرف ، ما لا يستطيع ان ا قوله كلّه . وقال عبيد ، محاولاً التظاهر بعدم الفهم :

— عظيم جداً ، اذا كان نديم وجد شغلاً ، يساعده على التحصيل والزواج ، فهذا لا يمنع ان يبقى نديم هو نديم . الم يتصل احد منكم به ؟

واجابت سهام :

— الحقيقة يا عبيد ، اننا لم نرَ ايّما فائدة من الاتصال بنديم . التقيت به مرّة في الشارع ، وهممت بالتكلم معه ، فادار نظره عني ، كما لو لم يكن يعرفني من قبل . والذي لا يأتي إلاّ بالحبل ، لا يرجى منه نفع ، ولا حاجة لنا به .

وتناول الكلام محمود وراح يقول :

— لاسبب ولا اسباب . نديم استروه ، ودفعوا له الثمن ، عروساً تنطّ على الحبلين ، واثاث بيت ، ووظيفة عند صاحبك القديم حمّاد ، في الزوبعة الاشتراكية .

وظهرت على وجه بو محمود علائم الاعتزاز ، بفطنة ابنه محمود وسرعة خاطره في تحكيم الجواب ، وغمز سهام بعينه على محمود ، وردد رده « ايوه » .

ودّبت العصيّة في « النمر » حاشد (هكذا كانت تسميه الجماعة) وقال :

— لماذا هذه الغميمة يا جماعة الخير؟ انا عمري ما امّنت لنديم .
نديم انسان خائن . الرجل الذي يقبض مالا على عرضه لا يكون
عنده شرف . . نديم تزوّج ؟ الله يلعن هيك زواج . « خولا
كانت زبونة حمّاد ، وهي اليوم زبونتة اكثر من الاول . يمكن
يكون زوّجها لنديم ، على هذا الشرط . حمّاد عمل نديم وكيلاً
على المطبعة بالليل ، ما شاء الله على هالو كيل . نديم وكيل
المطبعة بالليل وزوج خولا بالنهار ، وحمّاد مدير المطبعة بالنهار ،
ووكيل على « خولا » بالليل . والله وتالله ، رجل مثل نديم ،
ما عنده شرف ولا عرض ، لازمه قصّ رقبة . »

— « شراكة الديب والحروف يا ابني » هكذا قال بو محمود .
وقال عبيد :

— حاشد لا يتكلم الا بالضرب والقتل ، ومن « تحت
كتف وباط » . قل لي يا مصطفى ، الا يزال نديم يساعدك في
طبع « صوت الشعب » ؟
واجاب مصطفى :

— لا يا اخي . نديم طلق « صوت الشعب » وتزوّج
« صوت اميركا » .

وقهقه بو محمود على هذه النكتة الظريفة ، وقال مداعباً :
— يعني صار عنده زوجتان ؛ خولا و « صوت اميركا » ؟ أيوه
وعاد « النمر » الى الترفزة واجاب على سؤال بو محمود .
— لا . عنده زوجة واحدة ؛ هي « صوت اميركا » .

وقطعت سهام حديث الهزل وجعلت تتكلم عن نديم بحرس
مرتجف .

— اذا كان لا بدّ ان تعرف كل شيء عن نديم ، فها هي
حكايته ؛ من اولها الى آخرها ؛ دوناً زيادة او نقصان . وليختف
ذكره من بيننا بعد الآن .

— « في الليلة نفسها التي اعتقلت فيها ؛ عاد رجال الشرطة ؛
الى تفتيش الغرفة ؛ باكثر همجية من المرّة الاولى ؛ واخذوا كل
الاوراق والكتب مع اعداد النشرة كلها . وفي الصباح الباكر
التالي ، صدرت صحف المدينة ، وفيها ما يشبه البلاغات الرسمية
جاء فيها ، ان رجال التحري اكتشفوا مؤامرة على الدولة
تديرها انت بالذات وصادروا اوراقاً سرية ؛ تثبت وجود هذه
المؤامرة . وقبل الظهر ، كان اكثر من ثلاثين معتقلاً في طريقهم
الى السجن ، ومنهم كان حاشد «النمر» وحسن هذا الولد الصغير ،
وسليم ؛ وعاصي ؛ وغيرهم ممن لم يكونوا في الغرفة ابداً . هؤلاء
اعتقلوهم ؛ بحجة ان لهم ضلعاً في العملية . ولم ينبج من رفاقنا من
الاعتقال ؛ الا الذين تحقّوا ؛ او تفرقوا الى اماكن بعيدة ؛ حيث
يوجد لنا اصدقاء . فمحمود تخبأ اربعة ايام في بيت قريبة من
اقرباء المرحومة امه ؛ الطير لا يصل الى بيتها . تصوّر يا عبيد ؛
ان رجال الشرطة ؛ كادوا يقتلون المرحومة مريم ؛ لو لم يهدّدهم
حاشد ؛ باستعمال القوة البدنية ؛ وانت تعرف من هو حاشد .
انا وحنيفة ؛ اسفقوا علينا ؛ انا بسبب حالتي المعروفة ؛ وحنيفة
بسبب اسفاقهم على زوجها عامر وابنها بشير . تصوّر في عقلك

وحوشاً تشفق ! الحقيقة انه ليست الشفقة التي منعته من اعتقالنا
انا والمرحومة مريم وحنية ؛ انما هي انتفاضة حاشد عليهم ؛
خوف اكثر من شفقة . هذا على وجه التأكيد .

« الخلاصة ان نديم لم يقل له أحد من رجال الشرطة ؛
ما احلى الكحل في عينك . على كل حال ؛ نحن لم نره في اليوم
التالي للحادثة . هذه واحدة .

« وبعد الظهر ؛ شوهد نديم يدخل على حماد في مكتب
الجريدة ؛ ويخرج منه بعد ساعتين ؛ وهو يضحك ؛ ولم يعد يأتي
الى هنا ؛ ولا سأل عنك ابداً . هذا ثانياً .

« وفي آخر الاسبوع ؛ فتش مصطفى عليه ؛ وطلب
منه ان يساعده في طبع « صوت الشعب » كالعادة ، فلم يقبل ؛
بجحة انه لا يريد ان يعرض نفسه لمخالفة قرار الحكومة ؛ لأن
العين متفتحة عليه . ومن ذلك الحين لم يعد احد منا يراه . هذا
ثالثاً

« وبعد شهر بالضبط ، عرفنا انه تزوج ، من « الست »
خولا . وخولا معروفة ، بانها امرأة عابثة ، وخليمة حماد من
قديم . والظاهر أن حماد ، اراد ان يستر الطابق ، فلبسها لنديم
الذي كان وظفه عنده ، منذ اليوم التالي لاعتقالك . وهكذا
تزوج العامل الفقير نديم « بالست » خولا ، مع انها اكبر منه
بعشر سنوات ، على اقل تقدير . هذا رابعاً .

« ومن ذلك الحين الى الآن ، لم يدس نديم هذه الطريق ، ولم
يعد يمر بهذا الحي ، كما لو كان الحي موبوءاً بالهواء الاصفر أو

الطاعون . هذا خامساً . نديم حكايته طويلة ، قلتها بالاختصار ،
لاني لا اريد ان اسود قلبك واضيع الوقت في الكلام على
هذا الرجل الديء . »
وقال مصطفى :

— دعنا من الكلام عن نديم يا عبيد . نديم خائن وكفى .
عندما أشبعوه بطر ، وما عاد عنده شرف .
وقالت سهام :

— الشبع لا يبطر الا اصحاب النفوس الحقيرة . النفوس
الكبيرة ، لا يبطرها الشبع والغنى ، ولا يذلها الفقر . صاحب
النفس الصغيرة ، اذا شبع او اغتنى يبطر ويزهو ، على من هم
اضعف منه ، ولكنه مثل الكلب ، امام من يشبعونه . هذا هو
شان نديم بالضبط ، نديم فضل ان يكون عبداً قذراً عند وليه
حماد ، على ان يكون انساناً حراً ومناضلاً شريفاً ضد حماد ،
ومن يمثلهم حماد ، ومن يخدمهم حماد .
وراحت سهام تتابع كلامها عن نديم ؛ كأنها لم تترك بعد
بما قالته عنه .

— ولكننا نعرف شيئاً آخر عن نديم ؛ له معناه الكبير .
نعرف انه دائماً شارد الذهن وكثير القلق ؛ ولا سيما في المدة
الاخيرة . ونعرف انه على الرغم من مجبوحه العيش ، دائم
الاضطراب ، كأنما هو يشعر بالذل في قرارة نفسه . اسياده
الجدد ، يستعبدونه ويستذلونه ، بالمال الذي ابتاعوه به ، وزوجته
العابثة ، تعامله كما لو كان خادماً عندها ، وليس زوجاً لها .

نديم في بيته ، او على الاصح ، في بيت خولا ، مثل «البوبي» ، لا ، مثل الكلب . «البوبي» يدللونه ، ولكن الكلب يعاملونه مثلاً تعامل خولا نديم تماماً . الكلمة لحضرتها وهو عليه الطاعة لان لولاها ، ولولا حظوتها عند حماد ، لما كانت «النعيم» تتدفق عليه من هنا وهناك . المال موجود ، ولكن ، لا حياء ولا شرف . وعلى ما سمعت من كثيرين ، والعهد عليهم ، انه لن يمضي زمن طويل ، حتى يصبح نديم من نزلاء «العصفورية» مع المجانين وهذا بالضبط ، هو ما يستحقه من كان مثل نديم .

كان عبيد يصغي بكلمته الى ما يقوله الرفاق عن نديم ، وكان مأخوذاً بالشرح الذي شرحته سهام عن هذا الرفيق الخارج . كان يفكر في الصعاب التي تواجهها الحركة ، وفي الطرق الخبيثة التي يلجأ اليها اعداؤها ، لمقاومتها والقضاء عليها . ان عبيد لم يكن يفتنه ابداً ، ما يضره له الاعداء وللحركة كلها . ولم يكن هذا يشغل باله بقليل او كثير . انما الذي بدأ يشغل باله ، هذا الذي سمعه عن نديم ، ونسبه على خطر ، تهون عنده الاخطار الاخرى الخارجية . ان الخطر الداخلي ، مثل هذا هو ما يجب ان يسهر عليه ، بقصد ابعاده ، وتجنب نتائجه .

واصغت الجماعة لما سيقوله عبيد بشأن نديم . وجعل يحدتهم ، كمعلم وقائد وفيلسوف ايضاً . انه كل ذلك بنظر الجماعة :

— بالطبع ما كنت اريد ان اسمع عن احدنا ما سمعته عن نديم . ولكنه ، على كل حال ، ليس شيئاً غريباً ، ولا كارثة تؤخرنا عن السير في الحركة . انه بدون شك نذير لنا ، لكي نفتح

عيوننا اكثر واكثر ، وناخذ جميع وسائل الحيلة له . ستعترضنا
 صعوبات كثيرة ، خارجية وداخلية ، ليست من الالهية ، بقدر
 ما يُظنّ . ليس من حركة نضالية ، قامت الا وظهر فيها خيانات .
 على ان الخيانات ، ما استطاعت وقف واحدة منها . ان الخيانة
 تجازي نفسها بنفسها ، وهي تحمل جرثومة موتها ، وموت الخونة
 بالذات . يهوذا الاسخريوطي . (لناخذ مثلاً من الانجيل) كان
 احد تلاميذ المسيح الاثني عشر . وبعد ان خان معلمه وسلمه
 الى اعدائه ليصلبوه ، لم يلبث حتى استيقظ على خيانتة ، وخنق
 نفسه . في الحرب الماضية ، كان اكثر من خائن واحد . كان
 الخائن يسمى في ذلك الوقت « كويسلنغ » على اسم كبير
 الخونة . كل الذين خانوا اوطانهم وشعوبهم ما عتَمُوا أن لا قوا
 جزاء خيانتهم . ومنهم من اتاه جزاءه من نفسه . وقبل ان
 تطاله يد العدالة . منهم من انتحر . ومنهم من جنّ . ومنهم من
 يعيش بالتشريد والعذاب والخوف . الخائن لا يمكن ان يكون
 مرتاحاً في دخيلة نفسه . فهو دائم القلق والاضطراب والخوف .
 هذه هي الحالة مع نديم ، على ما فهمت منكم . وهي بنظري
 اعدل قصاص له . بل اقساه على الاطلاق . تقولون ان نديم على
 وشك ان يجن ويذهب الى « العصفورية » ؟ هذا آخر ما اتمناه
 له ، لأن الجنون يريجه من عذابه الداخلي ، الذي هو شرّ انواع
 العذاب . انا لو كنت حاكماً بامري ، لما كنت احكم باعدام ايّما
 خائن ، بل كنت ابقى على حياته ، واكتفي باتقاء نتائج خيانتة ،
 بايما طريقة من الطرق ، تاركاً اياه في عذاب دائم مع نفسه . مهما

كانت نفس انسان ما خسيصة ووضيعة ونقنة ، لابد وان يمرّ
بسويعات وعي يشعر فيها صاحبها ، بوخزات تبرّح به ، وبالعار
يلوّث حياته ، ويقبّحها في عيني ذاته . الحيانة لا تجد اياما متسع في
النفوس الكبير والشريفة ، مهما تعرّض اصحابها للحاجة
او الاضطهاد ، او وعيد او اغراء . ان الحيانة ما استطاعت يوماً
في التاريخ ، ان تقتل حركة نضالية شريفة . يهوذا الاسخريوطي ،
سلم معلمه الى الاعداء تسليم اليد ، ولكن رسالة ذلك المعلم ، لم
تمت بموته ، بل ازدادت انتشاراً . هل تمكن « الكويسلينغيون »
ان يحولوا دون اندحار الفاشستية ، ووقف حركة الشعوب
التحررية ؟ كل هذه الحركات الشريفة ، صادفت خونتها ، فليس
عجيباً ان تصادف حركتنا نحن ، خائناً مثل نديم . ان الحيانة ،
جبن وصفاقة ، ولا يستحق ان تقابل بغير الاحتقار . ان الخائن
دائماً محتقر ، مهما ظهر عليه من دلائل العظمة والنعمة الفارغة .
الخائن ، يحتقره من يخونهم ، كما يحتقره اكثر ، من يشترون
ضميره ، ويدفعونه للخيانة . وهو على كل حال ، اضعف واحقر ،
من ان يكون بمقدوره ان يقدم او يؤخر ، في اياما نضال جماهيري
عارم . ولربما يكون من خيانة اصحاب الضمائر العفنة ، شيء من
الفائدة احياناً . انها تذكى روح الحق في النفوس الشريفة ،
وتشعل الحماسة في صدور اصحابها ، للاستمرار في نضالهم بعناد .
هذا الحق ، هو ما يسمونه ، وبحق ، بالحق المقدس . انه الحق ،
ليس ضدّ الخونة فقط ، بل ضدّ الذين يدفعونهم للخيانة ،
من اجل بلوغ مآربهم الخسيصة . ونديم ، ليس الا واحداً من

كثيرين مثله ، استطيع ان ادل عليهم بالاصبع ، واحداً واحداً .
 فقتلوا عايمهم بين من يسمونهم كباراً وجبابرة ، تجدون اكثر
 من مئة نديم . انهم يخونون البلاد ، ويعملون ضد مصلحة
 الشعب ، ويبيعون وطنهم بطبخة عدس . انهم ينتخبون بالتزوير ،
 لكي يمثلوا ارادة الشعب ، ويخونون ارادة الشعب . ان بينهم من
 يتولى الاحكام ، ويتصرف بمقدرات البلاد ، ويتصدر المجالس ،
 بينما يتواطأ مع المستعمر الاجنبي ، على دوس حقوق البلاد ،
 وحریات شعبها ، ويعمل مع الاجنبي نفسه ، على جرّ البلاد الى
 اوخم المصائر وافظعها . هؤلاء كلهم نديم ، مع حفظ النسبة ،
 بين ما يقدر عليه نديم من عمل الشرّ ، وبين ما يقدر ان يعمل
 هؤلاء . لنذع نديم يتمرغ في اوساخه وعفونته وقذارته ،
 ونتابع نحن عملنا ونضالنا ، بعناد وقوة ، ولا بدّ ان يناصرنا
 جميع الشرفاء ، ما دمنا سائرین في طريق الحقّ . اما الخونة ، فلهم
 يومهم الاسود .

كانت سهام اكثر الرفاق تفهماً لحديث عبيد ، وكانت توميء
 برأسها وعينيها ، علامة الاقتناع والتحييد . فسهام سريعة الفهم ،
 وحادة الذكاء ، وبعيدة النظر . ولطالما غضبت وثارَت ، عندما
 كان يقال عن المرأة ، انها دون الرجل ، ولا تصلح الا للشؤون
 البيتية . كانت سهام لولب الحركة ، بعد عبيد ، ودماغاً مفكراً
 فيها . كانت كثيرة الاستطلاع وسريعة الاستيعاب . كانت
 عندما تفرغ من عملها ، ولا يكون لديها ما يشغلها في البيت او
 في الحركة ، تقضي الوقت الى جانب عامر المقعد ، وتزودّ معه

بما كانا يطالعهانه في الكتب والكراريس التي تصل اليهما ، فلم تلبث حتى اصبحت و كأنها خريجة احد المعاهد التعليمية .

وبقيت سهام تداوم على الشغل في مدرسة الحي ، خادمة بعض الوقت وتلميذة بعضه الآخر . انها بحاجة الى ان تكسب ما يساعدها على العيش مع زوجها محمود وحميها . على انها كانت تشعر بتغير في نظرة المدير لها وارتيابه منها . وتأكدت من ان ايامها في الشغل ، لن تطول ، لأن الادارة لا ترغب فيمن يعمل فيها ، سواء اكان خادماً ام تلميذاً ، ان يفكر ، بل يسير في الخدمة او التعلم ، بمقتضى تفكير الادارة وحدها . وقرّ قرارها في آخر الامر ، على ترك العمل ، بعد ان فرغ صبرها ، من مضايقة الادارة لها .

وشاءت سهام ، ان تسري عن عبيد ، ما احدثته خيانة نديم من اثر ، فاخذت تنبسط بكثير من الحماسة ، في التحدث عن النجاح الذي احرزته الحركة ، اثناء غيابه في السجن .

اسمع يا عبيد . لا خيانة نديم ، ولا البلاغات المضللة التي كانت تذيعها الدوائر ، ولا الاجراآت التعسفية من قبل السلطات ، ولا الدعاوات الاستعمارية الاجنبية التي كانت تستأجر من اجل نشرها الصحف ، استطاعت ان تمنع الاوساط الشعبية ، من اظهار استنكارها للمعاملة الظالمة ، التي استهدفت لها الحركة كما استهدفت لها انت بالذات . منذ اخذوك الى السجن ، لم تنقطع الصحف عن الكتابة عمّا جرى ، وحتى الصحف الرجعية ،

كانت تتناول الامر ، بشيء من اللباقة السياسية والكتابية ،
وتضرب على وترى العود . كانت هذه الصحف تطالب بالحريات
الديموقراطية لجميع المواطنين ، وبنفس الوقت تطالب بتنفيذ
القوانين ، التي تحد من هذه الحريات . شنشنة صحفية ، يقصد
منها ضرب عصفورين بحجر واحد ، ارضاء « للاسياد » من جهة ،
وعدم قطع الخيط مع الشعب من جهة ثانية . من يضع القوانين ؟
هم . من ينفذها ؟ هم . ولكن لا يزال يوجد في البلاد والحمد لله
ناس اوادم ، وهؤلاء ليسوا قليلين . لو جمعت ما كتبه عنك
وعن الحركة ، كتاب ، شرفاء حقيقة ، في الاشهر الاخيرة ،
(كان عليّ ان اجمع هذه الكتابات) لعرفت الى اي مدى انطلقت
حركتك يا عبيد . خسارة نديم ليست خسارة تجاه الكسب
العارم الذي احرزناه . اذا نزلت الى السوق تحكم بنفسك . الكتب
التقدمية اخذت تكتسح المكتبات ، ودور النشر ، التي كانت
بالماضي ، تمتنع عن نشرها ، تتراحم اليوم على اخراجها . هذا مع
العلم ان اكثر الحكومات العربية تمنع دخولها الى بلدانها . ولكنها
تتسرب بالتهريب ، تهريب الافكار التقدمية شيء مشروع . الكبار
والزعماء والمتنفذون ، يهربون الحشيش ، فلا بأس علينا نحن ان
نهرب الكتب . ستتعجب عندما تخرج الى الاحياء ، هنا وفي كل
بلد عربي آخر ، من امتداد الوعي في الشعب ، في مثل هذه الفترة
القصيرة من الوقت . مسكينة هي الرجعية يا عبيد ، عندما تظن
انها تستطيع ان تكبح هذه الموجه الشعبية بالوسائل الاضطهادية ،
ومسكين اكثر هو الاستعمار ، عندما يظن ان اتكاله على قوى

الرجعة ، أحكاماً كانوا ام ناساً عاديين ، وشراءه متعفي الضائر ،
 بما يسميه مساعدات اقتصادية واحسانية ، سيكسبانه ما يريد .
 ان حملة الاقلام المسخّرين او المأجورين ، يخدعون انفسهم
 ويخدعون الناس ، بانهم ادباء . « تفوه والف تفوه » ، على هيك
 ادب وهيك ادباء . حماد كان يدافع عنك ، على طريقته الخاصة
 الكاذبة والحاددة ، في جريدته « الزوبعة » . ولكنه عاد وسكت
 عندما اعطيناه الدرس الذي يستحقه . لن يستطيع احد ، ايّاً
 كان ، ان يوقف سير التاريخ . على فوقة يا عبيد ، يجب ان
 تقابل الدكتور صادق . يا عيني عليه ، ما كان احسنه معنا .
 وأنت سهام خطبتها ، وهي تردّد :

— لن يظفروا بنا ، مهما فعلوا . لهم اليوم ولنا الغد ، لانتا طلب
 حق ، بل لاننا من ابناء الحق .
 كان عبيد مأخوذاً بكلام سهام ، وقد رآها تعتمر بايما
 اصلب من الصوّان ، وتتجلى في نبرتها ، عزيمة لا تترزعزع ، وكان
 يقول في ذات نفسه « ان نضالاً يحمل لواءه شباب من امثال هذه
 الابنة ، لن يفشل ابداً ابداً . »

كان بو محمود ، يخشى ان تكون حدة كنته سهام ، سبباً
 لايقاع الضرر ، بالحياة التي كان علم ، انها بدأت تدب في احشائها .
 فهو منذ زواج ابنه محمود ، يرتقب الساعة اثر الساعة ، ليرى
 حفيده المرتجى . كان دائماً يلحّ على سهام ، ان تتجنب كل ما
 من شأنه ، ان يؤذي الجنين في نموّه . واذا جعل يردّد عليها

نصائح المعتادة ، التفتت اليه مرة ، وعلى وجهها ابتسامة عذبة ،
عذوبة الانوثة ، التي لم يفقدها اياها ميلها الى العمل النصالي ،
وقالت له :

— لا تحف يا عمّاه. ان الحياة التي تدبّ في احشائي ، لا يؤذيها
النضال من اجل الحياة ، بل على العكس ، يغذيها ، ويساعد على
انماؤها . ماذا تريدني ان افعل ؟ اقعّد في البيت واتمدّد في الفراش
كما تفعل الستات الغنوجات ! انا اعلم انك تحبني كثيراً ، ومحمود
يحبني كما احبه . انا لا اريد ان اخسر محبتكما لي . وما من شيء ،
يفقد المرأة محبة زوجها ، وحميها ايضاً ، اكثر من الغنج والدلع .
مهما احب الزوج زوجته ، فالزيادة في الدلال والتطلّبات ، لا بدّ
ان تضعف هذا الحب فيه . ومتى صار هذا ، تصير العيشة
بحيمياً . وفوق هذا كله يا عمي المحبوب ، ان الحبل ، ليس مرضاً
يحتاج الى عناية خاصة ، كما تقول الستات المدلعات ، ان الكسل
يضعف قوة الحامل والجنين معاً ، ويعطيكم انتم الرجال وسيلة
لاستضعاف المرأة ، ويعطي المجتمع ، حجة فوق الحجة التي
يتذرع بها ، لمعاملتها معاملة الجنس الاضعف والادنى مرتبة بين
الجنسين . الحبل التي تتدلع وتتكاسل ، تطعم جنينها بقطعوم
النقص منذ تكوينه . لو كان الامر بيدي ، كنت اؤدب هكذا
حبالى . امهات الحبالى يحبين بناتهن اكثر من اللازم ، ولا يعرفن
كيف تكون المحبة . خلّ هذه المحبة لجماعة الارستوقراطيات
اللواتي لا يهمهن شيء غير راحتهن ، على ظهر رجالهن . المرأة يجب
ان تشارك رجلها في كل شيء ، في البيت وفي كل الشؤون

العامّة . العمل الذي ، عمله لا يؤذي ولدي حفيدك المنتظر يا عمي الحبيب ، بالعكس يفيدّه . المرأة التي تعمل ولا تتكاسل ولا تتدلع ، تسهل ولادتها أكثر من الحامل الغنوج . هكذا قال لي الدكتور صادق ، وهو يعرف أكثر منا . أوكد لك يا عمي ، ان حفيدك سيكون قوياً وسيكون مناضلاً من الدرجة الأولى . هو يشعرني بذلك ، بحرّته الدائمة في احشائي . اني بالنضال حبّلت به وبالنضال ساحمله في احشائي ، وسأكرّسه مناضلاً ، منذ الساعة التي يولد فيها . قل إن شاء الله يا عمي العزيز .

وضحك برحمود ، وربّت على كتف كنته سهام ، وهو يقول : « ان شاء الله . ولكن ديري بالك يا سهام . أيوه عدم المؤاخذه » .

كانت سهام ، متى تحمّست ، يخرج الكلام من فمها ، مثل قصف الرعد ، عقب البرق المشع في عينيها المحمّلتين . كان عندها مفاتن جمالية طبيعية ، لو شاءت ، لكان بمقدورها إغواء أيّ شاب . ولكنها كانت ذات ارادة حديدية ، لا يعربها انها جميلة ، ولا تميل الى التعاشق عن جهل وطيش ، ولا تتدلع ، وتكره النساء المتدلعات . كانت تحترم نفسها ، احترام الواثق من نفسه ، كما كانت تفرض احترامها على كل من يتعامل معها . عاشت بالشحّ والحاجة ، ولكنها ما اذلت نفسها يوماً لأحد ، كائناً من كان . احبّت زوجها حبّاً لا مزيد عليه ، حتى غبطه جميع رفاقه وعارفيه ، على هذه الزوجة المثالية . هي تعرف كيف

يجب ان يكون الحب الحقيقي ، وتريد ان تعيش فيه ، ويعيش فيها ، ما دامت في قيد الحياة . انها تعرف كثيرات من البنات احبين حتى الجنون ، فلم يطل الوقت حتى انقلب فيهن الحب الى كره وتحسر وعذاب ، لانهن لا يدركن معنى الحب الصحيح . انها مصيبة البنات في هذا العصر ، وهي لا تريد ان تصيبها هذه المصيبة . يكفيها ما واجهها من المصائب .

وكانت سهام ، كلما احسّت بالجنين يرفضها في بطنها ، تطلق قهقهة مفرحة ، وتنادي زوجها او حميتها ، لكي يساعدها على هذا « العفريت النونو » . وكان ابو محمود يودّ لو تسرع الايام في الكرم ، وتأتي الساعة ، التي يطل عليه فيها ، هذا الحفيد المرتقب المحبوب .

١٥

كانت الشائعات تتكاثر يوماً اثر يوم ، ان الحرب وشيكة الوقوع . وكانت الاخبار تتوّدّد ، في الاذاعات والصحف ، ان اشتداد التوتر الحاصل بين الدول ، لن يلبث حتى ينقلب الى الانفجار . وكانت المقامات الرسمية ، تتشاور فيما بينها ، ايّ مسلك يجب ان تسلكه تجاه هذه الحالة المترجرة . وكان سفراء الدول الاجنبية ، يكثرون زيارتهم للدوائر السياسية صاحبة الامر . وكان السفير الاميركي ، اكثر زملائه تتبعاً لهذه الشؤون ، واكثرهم إلحاحاً بوجوب تهيئة المناخ الملائم ، لاقتبال فكرة الحرب ، وانصراف البلاد الى تقوية جهازها الدفاعي . ولم يكن يكتفي بكم المقامات الوطنية العليا ، ان حكومته مصممة ،

على انشاء جبهة عسكرية من الدول العربية ، تتعهد هي تسليحها ،
شرط ان تتضمن اليها ، لاكتال الطوق « الدفاعي » حول العدو ،
الاتحاد السوفياتي . كما انه ، لم يكتف هذه المقامات ، ان الحركات
الشعبية المناوئة للخطة المرسومة ، يجب ان يوضع لها حد ، بايما
طريقة كانت ، لانها في حال عدم توقفها ، ستجبر حكومته ، ان
تغير سياستها تجاه هذه المنطقة ، وتمسك عنها المساعدات التي تقدمها
لها حالياً ، وهذا شيء من شأنه ان يبقيا متأخرة ، اقتصادياً
 واجتماعياً .

وتكررت زيارات القطع البحرية ، والقواد العسكريين ،
واقطاب السياسة ، من اميركيين وبريطانيين ، تحذوهم الفيرة
على الاوضاع القائمة في هذه المنطقة . وامتلاً الجو بالاشاعات ،
عن محالفات معروضة ، واتفاقات مفروضة ، على المقامات
الرسمية ، تثبت اقدام الدول الغربية في البلاد وتجعل منها رقبة
جسر ، في حرب ، قد تغامر فيها ، على عدوها الاتحاد السوفياتي ،
وفي نفس الوقت ، تضمن لها إخلاد الشعب الى الهدوء ، وعدم
اظهار ايما استياء ، او القيام بأيما حركة شعب . وكانت الانتكاسات
التي نزلت « بالعالم الحر » في شتى الاقطار الآسيوية المستعمرة ،
حافزاً ملحاً ، لتشديد قبضته على البلدان الاخرى ، التي يطمع
بها ، خوفاً من ان تفلت منه ، كما افلتت تلك ، وتصاب « الحرية »
بكبير أذى .

وكانت البلاد ، تستقبل وابلأ من المشاريع ، بعضها بحجة
المساعدات الانعاشية ، ورفع مستوى المعيشة ، وبعضها بحجة

الحماية ، ضدّ الخطر المزعوم . وكان اكثر ما يشغل الدعاية الغربية ، بث روح البغضاء للاتحاد السوفاتي ، وتخويف الناس من الشيوعية ، الهدامة للدين والحضارة ، التي يدافع عنهما « العالم الحرّ » وعده وكانت الكتب والنشرات المثيرة ، توزع مجاناً من قبل مكاتب الاستعلامات الاميركية بصورة واسعة . وكانت المقامات الرسمية ، والاطراف الفوقية ، والبقايا الرجعية ، تستلم هذه الدعايات ، كما لو كانت كلاماً منزلاً ، وتحدث بها حديث المؤمن ، بكل ما يجيء فيها ، ولا ترعج نفسها بتقليتها واطهار غثّها من سميتها .

واكتسحت البلاد موجة من القلق . وبدأت تظهر في اوساط الشعب بوادر الاستنكار . وما كانت تتردّد بعض المقامات ، المشايعة للسياسة الغربية ، ان تنزل بمناهضي هذه السياسة ، انواعاً من الاضطهاد ، يختلف باختلاف الظروف والجماعات . واخذت مقاومة السياسة الغربية شكلاً ، اقرب الى الجدلّ . وتعدّتها لمقاومة السلطات نفسها . فما كان يطلّ اسطول على الموانئ البحرية ، ولا يصل قائد عسكري الى البلاد ، ولا يشاع خبر عقد محالفة او اتفاق ، حتى تقوم مظاهرة ، او يحصل اضراب في المدن والقرى ، وتتساقط الاحتجاجات من كل صوب . وكانت السلطات ، تلجأ الى العنف في معالجة هذه الحوادث . وكان اكثر من توجه اليهم اعمال السلطات العنيفة ، جماهير العامة من الشعب ، وطلاب المدارس والجامعات ، والعمّال ، وجماعة انصار السلم . وكانت التهمة الدائمة ، في تبرير

الاجراءات الاضطهادية ، التهمة التقليديّة ، ان كل من يقاوم
الدول الغربيّة ، ويستنكر مشاريعها ، هو شيوعي ، يشكل
خطراً على الاستقرار والامن العام . فالاستقرار بنظر هذه
المقامات ، هو ان تبقى الاوضاع على ما هي عليه ، وان يغفر
الشعب للدول الغربية ، جميع اساءاتها الماضية ، ويتذرع بالصبر
على اساءاتها الحاضرة ، ويمشي معها الى آخر الطريق ، التي تسوقه
اليها ، ويؤجل مطالبه منها ، الى ان تكون تخلصت من
مشاغليها ، مع حليفها بالامس وعدوها اليوم .

كان عبيد في رأس قائمة من توليهم السلطة اتمامها . كانت
تراقبه في حركاته وسكناته . اذا حصلت مظاهرة اتهمته بأنه
محرّكها ، وان اضربت المدينة ، كان اول من يُعتقل . عندما
تظاهر الطلاب ضدّ حلف الباكستان - تركيا - العراق ، كان
عبيد مريضاً في الفراش . ومع هذا كبس البوليس غرفته ، وكاد
ينتزعه من فراشه ، لو لم يمنعه الدكتور صادق . كان اكثر ما
يُشغل البوليس ، تنقلات عبيد ، وماذا يعمل ، والى اين يذهب ،
ومن اين يجيء ، ومن هم الذين يزورهم ويوزرونه ويجمعون به .
ومع هذا ، ما من مرّة اعتقل ، الاّ وخرج بريئاً . سجلّه
العدلي ، لم يسجل فيه ايّما حكم قضائي ، لان القضاء لم يجد ما يثبت
عليه جرماً ما ، يستحق عليه السجن . فهو لا يحمل سلاحاً ، ولا
يعتدي على احد ، وما ضرب احداً كفاً ، الا مرّة واحدة ،
لم يملك نفسه فيها من صفع معلمه القديم حمّاد ، حمّاد بالذات .

ذلك جرى ، عندما 'كلّف حماد بعمل شيء ما لوضع حد
لنشاط عبيد . فدلّته مكرهه على حيلة ، ظنّها هو بارعة . ففي
ذات يوم ، تنازل عن كبريائه ، وقصد بنفسه غرفة عبيد ،
وعندما اختلى به ، قال له :

— اسمع يا عبيد . مهما قلت عني ، ومهما كنت انا حانقاً على
بعض رفاقك ، واخصّهم سهام هذه ، لتصرّفهم حيالي ، على الشكل
الذي تصرّفوا به ، عندما كنت أنت في السجن ، فاني ما ازال
اعطف عليك ، ولا اريد لك الاّ الخير . لولا هؤلاء المجانين ،
لكنت استطعت ان اخرجك من السجن ، بكلمتين اقولهما
للوزارة . ولكن ماذا تريدني ان اعمل ، اذا كانوا هم حميراً بهذا
المقدار . وسهام هذه يا عبيد ستكون شراً عليك ، وأيما شر .
وانتفض عبيد وسأل حماد :

— وماذا تعني ؟ وما الذي دفعك للمجيء الى هنا انت الرجل
الكبير والعظيم الشأن ؟ واي شرّ تخافه عليّ ؟
وقال حماد :

— لا تتحمس يا صديقي . الحماسة ستكون سببك في يوم ما .
— افصح عمّا تعنيه !

— الاساعات تملأ الارض ، ان علاقتك مع سهام ، ليست
علاقة اجتماعية وسياسية ، او ما شاكل ذلك ، انما هي علاقة
جنسية ، اي علاقة خليل مع خليلته ، وانك لست الوحيد الذي
ينام مع هذه المرأة ، التي كانت دائماً كذلك ، وأغوت اكثر
من واحد . ان زوجها ، انسان بسيط الى آخر حدود البساطة ،

ولكن له اهل يتربصون بك ، واخشى ان يعملوا لك شيئاً ما ،
قد يذهب بحياتك . هذا ما سمعته من كثيرين ، حتى ومن التحري
بالذات . وما اتيتك الآن ، الاّ لأنبهك عليه . سهام هذه اتركها
وشأنها . انها امرأة سافلة وشريرة ، وصيتها قدر . ليست النساء
هي التي تنقص هنا ، فلا تقع في شرك هكذا عاهرة . كل ما عملته الى
اليوم من اعمال حسنة ، سيذهب هباءً منثوراً اذا بقيت على هذه
الحالة . لو لم اكن احبك ، لما كلفت نفسي ان انبهك الى هذه
الامور .

وانفجر عبيد في غضبة جنونية ، وبدا له حماد ، صغيراً صغيراً ،
كالثعلب او كالكلب ، او اياما حيوان مثلها . وقام من توه ،
وصفحه صفعة على خده ، كادت تطير بصوابه ، وقال له :
— اذهب من هنا ايها الخسيس ، ايها الخائن ، ايها العبد ،
يا عديم الحياء والشرف !

وتقلّص « الرجل الكبير » وانكمش على نفسه ، وظهر امام
عبيد ، كذبابة نائمة . وبلغ الصفعة بجبن ، كما هو شأن كل خائن
وذليل النفس . وخرج من غرفة عبيد ، وهو يلعن الساعة التي
جاء فيها ، والتي أهين فيها على هذه الصورة المذلّة . ان حماد لم يؤلمه
انه أهين ، ما دامت الالهانة ، حصلت ضمن اربعة حيطان ، ولم يدر
بها احد . فهو بالطبع لن يجاهر بها ، ويفضح نفسه امام من يرونه
كبيراً ، حتى ولو ادى الجهر بها الى شق عبيد . كما انه لا يعتقد
ان عبيد ، من مصلحته ان يذكر عنها شيئاً ، ويعرض نفسه
لعواقبها عليه . ان ما يؤلمه فقط ، هو انه ضرب من صعلوك ،

كان شغياً عنده . اذاً الافضل ان يكتم الامر في نفسه ، ويدبر مؤامرة أخرى على عبيد ، تكون اكثر إحكاماً ، وتأتي بالنتيجة المرجوة .

وجاء عبيد في ذات يوم الى بيت الدكتور صادق ، لكي يسلم عليه بعد عودته من مؤتمر مجلس السلم العالمي في استوكهولم . وجعل الصديقان يتبادلان الاحاديث ، عما هو جارٍ في العالم البعيد والقريب . كان صادق يعود من هذه الرحلات ، فرحاً ومطمئناً . ولكن لا يكاد يمضي على عودته شهر او شهران ، حتى تتراكم عليه الهواجس ، منها ما يتعلق بشؤون بلاده العامة ، ومنها ما يتعلق بخصوصياته التي كان يكتتمها في نفسه لانها لا تعني سواه . ولذلك كان صادق كثير التفكير وقليل المزاح والمرح . على انه عندما كان يجتمع بعبيد يمازحه احياناً ليسرّي عن نفسه وعن صديقه ، هذا الشاب الذي يحبه ويرغب في تشجيعه ، وتوطيد ثقته بنفسه وبشعبه . وبعد المجاملة المألوفة قال لعبيد مبتسماً :

— قل لي ، هل لا تزال من المغضوب عليهم ؟

— ممن ؟

— ممن ؟ من الذين حبسوك والذين دفعوهم الى حبسك ؟

— حطّ بالخروج يادكتور العزير . هذا آخر ما اهتم به .

— والجلس شيء لذيذ . ها . ها ؟

— والله الذّ من العيش الذليل خارج الحبس .

— فلسفة جديدة هات تنشوف .

— انتم الاطباء ، تشغلون بالفيتامينات . الحبس لنا نحن

المقهورين من الظلم والاستعمار ، هو احسن فيتامين ، لزيادة حقنا
على الظالمين .

— بالحقيقة انك فيلسوف .

— فيلسوف او غير فيلسوف . كيف الجو هناك ؟ مثل

الجو عندنا ؟

— الجو . برد قارس ، وصقيع دائم ، وارض بيضاء من كثرة

الثلوج ، وستات حلوات .

وانطلق الاثنان في القهقهة . واعاد عبيد سؤاله بشكل آخر :

— هذا شيء لا يعنينا . اهل استوكهولم يدبرون امورهم .

وستاتهم لهم . الله يبارك لهم بما عندهم . انا اعني بالجو ، جو

الناس .

— الناس هناك طيبون الى آخر حد ، الرجال والستات ،

كلهم طيبون . عشنا خمسة ايام في عالم ليس فيه ، لا قيل ولا قال

ولا حركات ولا مؤامرات ، ومع ناس جاءوا من جميع اقطار

العالم ، ليمسحوا فيما بينهم عن انجع وسيلة ، لرفع الظلم عن البشر

ونشر السلام بين الشعوب .

— هلق وصلنا . وما هي بنظر هؤلاء الناس هذه الوسيلة ؟

— الوسيلة الوحيدة ، التي لا وسيلة غيرها ، هي منع الحروب

وتقليل اظافر من يتخذونها وسيلة لاستعباد الناس ، والقضاء قضاء

تاماً على الاستعمار ، وبالدرجة الاولى ، تحريم الاسلحة الجهنمية

للابادة الشاملة . كل الطرق الاخرى لرفع الظلم عن البشر

والشعوب الضعيفة ، لا تنفع اذا لم تبدأ من هذه الطريق .

— هذا صحيح . هل تعرفت على الرجل الكبير الذي اسمه

جوليو كوري ؟

— وكيف لم اتعرف به ، وهو لولب الحركة ونجمة المؤتمر ؟

— ليتني اراه ، ولو قبل ان اموت بساعة واحدة ، لكي

اقبل يديه الاثنتين .

— ستراه اذا رافقتني مرة من المرات ، واذا اذن لك سيدنا

المير ان تذهب . اضحك ، نعم اضحك . ولكن جوليو كوري

هذا ، لا يُعطي يده لأحد لكي يقبلها . ان تقبيل خدّه شيء

سهل ، ولكن تقبيل يده ، لا يقبل به ، ولا يجيزه لأي انسان

لأنه متواضع الى آخر حدود التواضع ، مثل كل رجل كبير ،

(ليس مثل الكبار عندنا على وجه التأكيد) .

— هل صحيح انه مريض بالقلب ؟

— قد يكون قلبه (اعني قلبه العضو) مُضنى ، من شدة

مقاومته للطغيان ووحشية الطغاة ومسببي الحروب ، ومجرمي

الانسانية ، ومستعبدى الشعوب . ولكن القلب الكبير مثل

قلب جوليو كوري ، لا يُخشي عليه من الضنى .

— وماذا ايضاً يادكتورى ؟

— اشياء كثيرة ، وكلها طيبة . في اول فرصة ، سأحدث

القوم هنا ، عما رأيت في مؤتمر ستوكهولم . بين يدي خطاب أعدّه

بهذا المعنى للاقائه في اجتماع قريب ، يمكن في آخر الاسبوع . كل ما

استطيع قوله لك الآن ، ان الشعوب ستدحر الظالمين ، وتروّض

المجانين ، وتتغلب على غطرسة المستعمرين . ومن بين هذه

الشعوب ، شعبنا نحن ، اعني انت وانا وكل انسان طيب ، مهما كان بسيطاً ، او ضعيفاً ، او فقيراً . هل ستكون في الاجتماع ؟ - هذا شيء اكيد . اللهم اذا لم اكن في المجلس .

— اذاً الى الملتقى يا عبيد . جرب الا تدخل المجلس قبل الاجتماع .

وسمع عبيد طرقاتاً على الباب ، فاستأذن صديقه ، وانصرف مودّعاً على ضحك متواصل من الزائر والمزور .

كان عبيد اول من وصل الى الحفلة ، التي سيخطب فيها الدكتور صادق عن حركة السلم ، ما معناها ، وما هي اهدافها . ولم تكد الساعة الرابعة تدق ، حتى غصّت القاعة بالجمهور ، لتستمع الى ما سيقوله الخطيب . كان الحاضرون من جميع فئات الناس ، رجالاً ونساء ، تجاراً ومهنيين ، احزاباً سياسية ، ومنظمات لا حزبية ، مشايخ وكهنة ، اغنياء وفقراء . كلهم جاءوا ليسمعوا اذا كانت الحرب ستقع عما قريب ، كما تقول الدعايات ، واذا كانت بلادهم قادمة على ويلات كالويلات التي اصابتها في الماضي . كلهم جاءوا ، لكي يعرفوا ، كيف يفكر العالم بالشعوب المستضعفة مثل شعبهم ، واذا كان صحيحاً ما تشيعه الدول الاجنبية الاستعمارية ، ان هذه البلاد ، ليس لها خلاص ، الا اذا قبلت العروض التي تعرضها عليها ، بطريقة الفرض ، دول « العالم الحر » . كلهم جاءوا ، ليعرفوا اذا كان الاستعمار لا بد منه ، والروض لمشيئة دول « العالم الحر » يضمن لهذه البلاد استقلالها

وحريتها .

وما ان اعلن عريف الحفلة أن صادق سيتكلم ، حتى دوت
القاعة بالتصفيق ، وبقي الخطيب منتظراً ان تهدأ العاصفة . ثم
اشار بيده الى الحضور لكي تتوقف ، وجعل يتكلم :
« قبل كل شيء يسرني ان احمل اليكم تحية اخوان لكم من
جميع اقطار الدنيا ، اجتمعوا في اروع مؤتمر ولاشرف غاية .
(تصفيق حاد ومتواصل)

« كانت عاصمة اسوج ، في الاسبوع الماضي ، قبلة الشعوب ،
كما كانت ايضاً ، النذير الخفيف ، لمن تسول لهم نفوسهم الشريرة
ان يخرجوا على ارادة الشعوب . (تصفيق)

« كان عدد المندوبين الى المؤتمر اربعة آلاف وخمسمائة ، من
ثمانين دولة ، من اوروبا وآسيا ، من افريقيا والامير كيتين .
كان بينهم الابيض والاسود والاصفر . وكان بينهم من يتكلم
الانكليزية والفرنسية والالمانية والروسية والهندية والصينية
والعربية ، وكل لغات العالم . كان كل من هؤلاء ، يمثل فئة او
هيئة او حزباً سياسياً ، وبينهم من يمثلون حكوماتهم كذلك .
كان بينهم محافظون واشتراكيون وشيوعيون ، مسيحيون
ومسلمون ومجوس وملحدون . كان بينهم مندوبون عن احزاب
يمينية ، ومندوبون عن احزاب يسارية . كانوا شيوخاً وشباناً ،
رجالاً ونساءً ، معتمين ومقلنسين . كذب الذين يقولون ، ان
انصار السلم كلهم شيوعيون ، ومتحيزون لدولة من الدول . ان
العمل من اجل السلم ، ليس من احتكار الشيوعيين ، ولا من

احتكار آيما دولة ، بل هو عمل كل انسان شريف . ولست احسب ، ان الذين يصبغون انصار السلم بالشيوعية ، يقصدون ان يجردوا غير الشيوعي من انسانيته . هذا لا يقصدونه ولا يريدونه ، ولكنهم بادعاءاتهم هذه ، يجعلونه شيئاً واقعاً . انهم يفضحون انفسهم بانفسهم ، لو كان عندهم عقول . (تصفيق)

« لقد سمعت خطباء ينشدون السلم ويعملون من اجله ، لان مسيحهم يبشر بالسلم ، او لأن قرآنهم يأمرهم به . وسمعت من صار لهم سنوات وسنوات ، يناضلون ضد الاستعمار ، ومن اجل تحرير شعوبهم ، ولم يتوصلوا الى بغيتهم ، لأن مستعمرهم الأقوياء يتحجججون ، بان استقلالهم وهم ضعفاء ، يجعل منهم لقمة سائغة للعدو ، في حرب لا بد وان تقع ، وهم اولى من غيرهم في الدفاع عنهم ، لما بين المستعمرين والمستعمرين ، من روابط ومصالح وتقاليد . سمعت ارملة ، تبكي زوجها وولديها ، اللذين قتلوا في الحرب الثانية ، وهي تخاف ان تفقد ابنتها الوحيدة الباقية في حرب ثالثة . هل تعلمون بماذا انتهت كلمتها ؟ انتهت بالتبرع بنصف ما تملك من ثروة لحركة السلم وثورتها كلها قد لا تكون اكثر من خمسمائة استرلينية ! (تصفيق)

« وسمعت ايها الاصدقاء ، ما تقشعرون له ابدانكم لو سمعتموه . سمعت بروفيسوراً يابانياً ، يروي بتفصيل فظائع القنبلة الذرية في هيروشيما ، وفضائع تجرربة القنبلة الهيدروجينية في جزر الباسيفيك ، هذه الفظائع التي كتمتها الدعاية الماكرة عن الناس ، وجاء هذا البروفيسور ، يعطينا احصاءات الذين قتلوا على الفور ،

والذين ماتوا بعد مدّة بتأثير الاشعاع الهيدروجيني ، والذين هم الى الآن يقاسون خطر الموت ، بعد اصابتهم بالاشعاع بشهرين كاملين ، واخبرنا هذا العالم الذري الكبير ، ان من يصيبهم اشعاع الموت هذا ، لا ينجون من اخطاره ، حتى بعد مضي سنوات عدة . واخبرنا ايضاً ، ان اسماك الباسيفيك ، التي هي الغذاء الاول لاهالي الجزر ، والغذاء الاوحد لسكان بعضها ، لم تعد تصلح للغذاء ، لاهي ولا بذورها . ليشكم سمعتم ما قاله هذا الرجل العالم ، لتعرفوا لماذا يجب على كل انسان تحت السماء ، ان يطالب بتحريم القنبلة الذرية والهيدروجينية . اذ ماذا يمنع الذين استعملوها في الباسيفيك ، ان يستعملوها هنا وفي اي بقعة من بقاع الارض ، ما داموا نظيفين من الوجدان والدين والشرف . (تصفيق واستنكار وحشية الآتين) .

» وسمعت ايها الاصدقاء الرجل الكبير والشريف جوليو كوري (تصفيق متواصل مدّة خمس دقائق) القطب في علم الذرة يقول : اننا نحن العلماء ، لم نتعب باكتشاف الطاقة الذرية العجيبة ، لكي نستخدمها مجانين الحرب لاغراضهم التدميرية واستعباد الشعوب بواسطتها ، بل اجهدنا نفوسنا وادمغتنا ، لكي تكون وسيلة الى الخير ورفع مستوى الحياة ، لا لابادة الحياة . فعلى الشعوب ان تلتزم من هؤلاء المجانين هذه الطاقة ، وتحرم استعمالها الا في الاعمال السلمية ، ولاجل اسعاد البشر ، وليس لاتعاسهم وتقتيلهم . وسمعت الرجل الكبير ينهي خطابه ، بنداء الى جميع الشعوب ، لكي يظهروا ارادتهم بطريقة ايجابية ،

ويقوموا بجملات واسعة لظهار هذه الارادة، بتوقيع النداء الذي وضعه مجلس السلم العالمي . وقال جوليو كوري ، ان الشعوب متى اظهرت ارادتها على هذا الشكل ، لن تتمكن أية حكومة ، مهما طغت وتجبرت ، ان تفرض على العالم ، الرضوخ ، لا يما سياسة حربية وتدميرية « (هتافات يعيش جوليو كوري) وتابع الخطيب ، مناشداً بني قومه ، الحاضرين والغائبين ، ان يلتفوا حول حركة السلم ، ولا يأخذوا بترهات مناهضيها ، واتهاماتهم السخيفة والمبتذلة ، ولا يرهبوا التهديدات ، التي تهددهم بها قوى ، تتأثر بالدعاية المجرمة ، بوضعها نفسها في خدمة دعاة الحرب ، وبفتحها لها ابواب البلاد للتدخل في شؤونها . وانهى خطابه بهذه الكلمات :

« ان كان بينكم من ينشد الاستقلال لبلاده ، عن طريق المحالفة مع الدول الاستعمارية ، الداعية الى الحرب ، او الى سلام مزيف ، تفرضه القنبلة الذرية ، فهو اما واهم او مضلل . واذا كان بينكم من ينشد رفع مستوى الحياة ، عن طريق اخذ الرشوات ، من تجار الحروب ومستغليها ، فهو جاهل يستحق الاسفاق . واذا كان بينكم ، من يزعم ان هناك املاً بالتخلص من الاستعمار ، عن طريق مسايرة المستعمرين ، وقبول مشاريعهم العسكرية ، والسكوت عن سياستهم الاستفزازية ، فهو من البلاءة بكان . واذا كان بينكم من يقول ان الشعوب الضعيفة والصغيرة ، لا تقدم ولا تؤخر ، في مسألة السلم والحرب ، فهو انخدالي ، ولا يرجى منه نفع . فلو لم يكن باستطاعة هذه

الشعوب ، ونحن منها ، ان تقدم او تؤخر ، لماذا اذاً ، تنهالك الدول المهيمنة للحروب ، على ادخالها في بوتقتها ، وجرحها الى فلكتها ، وارغامها على التحالف معها ، وجعل بلادها نقطة ارتكاز لها ، كما تفعل معنا ، ولا سيما في هذه الايام ؟ ويسرنى ان اقول لمن يجمعون عن دخول معركة السلم (نعم هي معركة) بحجة الضعف ، ان الشعوب كلها ، كبيرها وصغيرها ، تؤازرهم في هذه المعركة المقدسة . قد يكون هناك حكومات ترغب في الحروب وقد تجدد هذه الحكومات ، فئات خاصة من شعبها ، تماشيها في هذه الرغبة ، اما عن خوف ، او عن مصلحة ذاتية ، ولكن ما من شعب من شعوب الارض ، ترغب عامته في خوض حرب ليس من ينكوي بنارها غير العامة ، وليس من يدفع الى الموت قبلها ، وليس من تطاله اخطارها وويلاتها الا هي ، بينما تكون الحكومات ومشايعوها من الخاصة ، قابعين في بيوتهم او في ملاجئ تقيم الغارات الجوية والسموم الجرثومية . هذا ما يجعل معركة السلم ايها الاصدقاء ، معركة شعوب ، وليس معركة حكومات . ومتى اجمعت الشعوب على امر ما ، فلا بد ان تظهر بما تريد . ولست اخال ، ان شعوبنا العربية ، ترضى ان تعزل نفسها عن الكفاح ، في معركة انسانية كهذه المعركة التي هي في نفس الوقت ، معركة وطنية استقلالية تحررية ، بكل ما في هذه الكلمات من معنى . » (تصفيق متواصل وهتافات : ليحي السلم والموت لدعاة الحروب والمستعمرين !)

ولم يكبد الخطيب ينزل عن المنبر ، حتى كانت نوبة جنونية من الهتافات والهياج . وهجم عليه الحضور يصفحونه بجرارة . وافلقت امرأة عجوز من الازدحام ، وجعلت تقبله ، والدموع تملأ وجهها . وجعلت النساء والفتيات ، ترشقه بباقات الزهر . وحمله الشباب على الاكتاف الى السيارة ، وواكبوه الى بيته . وكان عبيد اكثر الجميع اندفاعاً وحماسة . وكانت تتصاعد الهتافات : « فليسقط دعاة الحرب . وليسقط الاستعمار وعملأؤه . الموت لمن يتاجرون بارواح العباد . ليحي الشعب المناضل من اجل تحرره واستقلاله وخبره ! »

ووسط هذا الصخب والهياج والضجيج ، كانت شرذمة من رجال الشرطة ، تتغلغل في الصفوف المتراصة ، وتعمل العصي في تفريق الحشود بالقوة ، والحشود لا ترضى ان تتفرق ، ولا تبالي ببعضي رجال الشرطة ، ولا تأبه بتهديداتهم وبهوراتهم .

١٦

لدى انصرافه من الاجتماع ، ذهب عبيد على التو ، الى منزل بو محمود . كانت سهام قد وضعت مولودها قبل يومين فقط ، وكانت ما تزال تحت تأثير الولادة . كانت تعاني اوجاعاً مؤلمة ، وكانت درجة حرارتها اربعين ، فما تمكنت من حضور الاجتماع . ولكنها املت على زوجها محمود وحميها بو محمود ، لكي يذهب . واذا اراد بو محمود ان يبقى بجانبها بغياب محمود ، تصنعت العافية ، واصرّت على أن يذهب هو ايضاً ، اذ لا يجوز ان تفوته هذه الفرصة ، من اجل وعكة بسيطة كوعكتها ، لن تلبث أن تزول . هكذا

قالت له سهام .

وبقيت سهام تنتظر عودة زوجها وحميها ، لكي يخبرها عما جرى في الاجتماع . ولكن لا محمود ولا بو محمود أرويا غليلها ، بما حدثاها به . وعندما وصل عبيد ، استقبلته بالمزيد من الابتهاج ، دون ان تبالي باوجاعها ، ولا بالحرارة التي تشعل جسمها .

سألها عبيد عن صحتها وصحة المولود ، فاجابته كما لو لم يكن عندها لا اوجاع ولا حرارة : « انا بخير والمولود بخير اكثر ، لا ينقصه شيء الا ان يكف جده عنه بعض الشيء » وابتسمت سهام ، وحققه بو محمود . ثم اصغت لحديث عبيد عن الاجتماع ، وراح هو يشرح لها كل ما جرى ، واعاد عليها خطاب الدكتور صادق ، كأنما حفظه كلمة كلمة ، وهي على اكثر ما يكون من الغبطة . وكلما شئت ان تظهر غبطتها ، كانت تضم طفلها الى صدرها ، وتقول له : « لن ينتزعك مني احدا يا حياتي . لقد حملتك تسعة شهور ، ورأيت الموت قبلما رأيتك ، ولن اسلمك الى رسل الموت . يجب ان تعيش في دنيا آمنة وسعيدة ، وساكرس عمري في الكفاح ، لكي تعيش كما يجب ان تعيش . »

كانت الساعة الثامنة مساء ، عندما غادر عبيد بيت بو محمود . وما ان وصل الى اول الزاروب ، حتى رأى رجلين من رجل البوليس ينتظرانه . كان الرجلان هذه المرة ، على شيء من الوداعة ، على عكس الذين عرفهم في المرات السابقة . لم يغلظا

له الكلام ، كأنهما مزودان بأوامر غير ما كان يزود بها زملاؤهما الآخرون . وطلب منه الشرطيان ان يرافقهما الى النظارة لأمر ما ، انكرا معرفته . فلم يعترض عبید ، بل طرق نافذة الغرفة واخبر حنيقة انه ذاهب مع الرجلين ، فلا يمتا اذا تأخر بالعودة ، او اذا لم يعد هذا المساء .

ووصل عبید الى النظارة برفقة الشرطيين ، دون ان توضع بيده الاصفاد ، فشاهد في الرواق زمرة من الذين كانوا موجودين في الحفلة . كان الوقت ليلاً ، ولم يكن في النظارة غير الحرّاس ، الذين لم يجيبوا على اسئلة عبید الا بقولهم : «ستبقون في ضيافتنا الى الصباح ريثما يأتي المفوض .»

وبات الموقوفون ليلتهم ، وهم يتحدثون عن الاجتماع وعن صادق . واذ دقت الساعة التاسعة في الصباح التالي ، كان عبید يدخل على حضرة المفوض .

كان المفوض موظفاً ادارياً اكثر مما كان محققاً قضائياً . كان عنده خبرة بشؤون الامن ، من مراسه الطويل في هذه الشؤون . لقد خدم في هذه الوظيفة عشرين سنة ، ورافق جميع العهود ، من يوم كان الفرنسيون حاكمين البلاد ، الى اليوم الذي ذهب هؤلاء واتى غيرهم ، الى الوقت الحاضر ، الذي لم يعد فيه لا انتداب ولا احتلال . انه لم يكن رجل علم ، يحمل شهادات عالية . ولكنه كان ذكياً وصاحب خبرة ، ويعرف كيف يلبس لكل حالة لبوسها ويرضي رؤساءه من ايمانوع كانوا . على على انه كان شديد الوطأة ، في أمور الامن ، لا سيما في مكافحة

الشيوعية والافكار الهدامة ، وهذا السلم الذي ينادي به « الهواشون » . هو مكلف بمطاردة هؤلاء ، كما انه مسؤول عن استقرار الاوضاع ، وعدم السماح لأحد بان يزجج السلطة ، لكي يتاح لها تسوية المشاكل وتدير امور الناس ، والسير بالسياسة الداخلية والخارجية ، حسبما تقضي الحكمة . هو رجل ادارة لا رجل سياسة ، ومن خلال نظريته هذه ، لا يأذن لاحد ، ان يتدخل بالشؤون السياسية ، ولا سيما الدولية منها ، الا اذا كان وزيراً او نائباً او كان من طغمة السياسيين المحترفين . كانت هيئته تدل على انه رجل قاسٍ وحازم وعلى شيء من الشراسة ، ولا يسمح بكثرة الجدل ، ولو كان الجدل منطقياً ومعقولاً . هكذا قال عبيد في ذات نفسه . فما ان دخل عليه عبيد ووقف امامه حتى بادره بالقول :

— اهلاً وسهلاً بالزبون الدائم . متى يا عبيد ستحتاج وتريحنا

منك ؟

— الجواب عند حضرتك يا سيدي .

— الا تريد ان تنتهي من هذه الحترقات ؟

— ايها تعني يا حضرة المفوض ؟

— اعني ؟ اعني الحترقات الشيوعية . هذا ما اعنيه .

— انا لا اعلم شيئاً عن الشيوعية ، ولذلك لا اعلم شيئاً عن

حترقاتها .

— هه . هه . هه . لا تعلم شيئاً عن الشيوعية ، ولكن تعلم

عن السلم ؟ وهذا الاجتماع الذي كنت فيه بالامس ؟ اجتماع ماذا ؟

- لقد دعيت مثل كل من 'دعوا' ، ولا اعرف ان الاجتماع كان اجتماعاً شيعياً ، ولا اظنه كذلك ، وليس الذين وجدوا فيه شيوعيين . هذا على وجه التأكيد .

- اجتماع انصار السلم . ها اسم ثانٍ للشيعية . انكم تظنون ان باستطاعتكم خداعنا . هذه طويلة عليكم .

- هل انصار السلم شيوعيون ؟

- وماذا هم اذاً ؟ اليس ما يقولونه ، هو نفس ما تقولونه . موسكو؟ سلم . استعمار . قواعد عسكرية . كوريا . فرموزا . الهند الصينية . تونس . مراکش . وماذا بعد ؟

- السلم كل الناس تقول به . حكومتنا تقول به ايضاً . الدول الاستعمارية نفسها ، لا تتحدث الا عن السلم ، وكل ما تعمله عمله من اجل السلم . هكذا هي تقول على الاقل . كوريا . فرموزا . الهند الصينية . تونس . مراکش . هذا حديث الناس كلهم . الا يجوز لنا ان نكون مثل كل الناس ؟

- السلم ليس انت ولا انا اللذين نحافظ عليه . اذا كانت الحرب ستندلع ، فلست انت الذي ستمنع اندلاعها ، يا حضرة القطب الكبير . هذا ما اعرفه على وجه التأكيد .

- ولكنني استطيع ، على الاقل ، ان اقول ، لا اريد الحرب ، ومتى قلتها انا وغيري وكل الشعوب ، فليس من يتجرأ عندئذٍ على ان يشعلها . هذا ما اعرفه انا هذه المرة على وجه التأكيد .

- احسن لك يا شاطر ان تشتغل بغير هذه الشغلة . لاق لك شغلة تأكل منها الخبز . والافضل لك والكل الذين يشاغبون

على الدول ، ان يهتموا بنفوسهم أولاً ، ويتركوا الامور الكبيرة
للكبار .

— بس نخلصنا الكبار نلاقي الحُبز ، ونلاقي الشغل .

— يعني انت يا عيوق اكبر من الدولة ؟

— استغفر الله يا سيدي . انا اصغر من النملة . ولكن الدولة
عندها مشاغل اهم بكثير . عندها استقبالات اساطيل وبعثات ،
وعندها مؤتمرات اهم من الحُبز ، وعندها اخذ وعطاء مع الدول
الكبيرة ، وعندها مصالح مع هذه الدول ، وعندها الف شغلة
وشغلة .

— رجعنا لحديث الشيوعيين . وانت غير شيوعي ، ها ؟ من

انصار السلم ، يعني سلم روسيا ، سلم الشيوعيين .

— في سلم روسيا وسلم غير روسيا ؟ هذا شيء جديد عليّ
يا سيدي . نعم انا من انصار السلم . لا انكر ، بل اقوله بكل
فخر . اما الشيوعية يا حضرة المفوض ، فلا اعرف عنها ما يخولني
الردّ على اتهامي بها . في الاجتماع الذي حضرته ، وكان سبب
سوقي الى هنا ، لم يخبرني الخطيب شيئاً عن الشيوعية . لا اعلم اذا
كان هو يعرف شيئاً عنها . ولكني اعدك يا سيدي اني سادرس
موضوعها ، وعندها اتمكن من ان اجيبك . على ان الذي اعرفه ،
على وجه التأكيد ، ان السلم ليس شيوعياً ، والعمل من اجل
السلم ليس عملاً شيوعياً ، بل هو عمل كل انساني شريف .

— انت لا تعرف شيئاً عن الشيوعية ؟ هذا ممكن ، مع اني
اشك به كثيراً . ولكن الخطيب الذي بهركم ، يعرفها

بكل تأكيد . اذا كان يستطيع ان يخذلكم ، فلا يستطيع ان يخذلنا نحن .

—

— اما كان حضرة الخطيب وراء الستار الحديدي ، قبل ان يلقي عليكم هذا الخطاب الرنان ؟
— لا يا سيدي . كان في استوكهولم . هناك كان المؤتمر الذي حدثنا عنه .

— واستوكهولم هذه ، ليست وراء الستار الحديدي ؟ يعني اذا تغيرت الاسماء ، يتغير المعنى ؟
وابتسم عبيد الجهل هذا المفوض الكبير اين هي استوكهولم وقال له :

— استوكهولم على ما اعلم هي عاصمة اسوج . واسوج ليست وراء الستار الحديدي . انظر الى الخريطة تجد انها ليست كذلك .
اني اؤكد لك هذا .

— على كل حال هي بالقرب من الستار الحديدي ، وتحت جزمة روسيا ، ولا تقدر لا انت ولا غيرك ان تخذلنا . فلسفتك لا تسلك علينا .

وادرك عبيد ، انه امام موظف لا ينقصه الجهل . ولم يعد يرى اياما فائدة من الكلام . وقرر فيما بينه وبين نفسه ، ان لا يجيب بشيء . وقال للمفوض ، « ليكن اذاً ما تريد ، ولك ان تفعل بي ما تشاء . »

وصرف المفوض عبيداً من حضرته ، ووقع بيد ترتجف من

شدّة الغضب امرأً بتوقيفه وتوقيف رفاقه ، دون ان يرى ايما
حاجة للتحقيق مع هؤلاء .

وما كاد عبيد يخرج من عند المفوّض ، حتى استلمته مع
رفاقه ، شرذمة من البوليس ، واقتادتهم الى السجن ، بينما كانوا
كلهم يتفون بصوت واحد « فليسقط الاستعمار ، وليسقط دعاة
الحرب ، وليحي الاستقلال الوطني ، والموت لتجار الحرب
والفقر والموت ! »

وسر عبيد عندما حشر بقاووش واحد مع رفاقه ، ولم يحشر
في قاووش رقم ٣ ، الذي كان يوضع فيه في المرات السابقة . فهو
على الاقل ، يستطيع ان يتحدث مع من يعرف عن يعرفهم
ويعرفونه ، ويحبهم ويحبونه . وما خشي عبيد ان تطول مدة
حبسه هذه المرة . هي غيمة وتمضي .

كان الرفاق يتسامرون ويتنادمون كأنهم في بيوتهم . وقد
بدا لهم ان الامر ين لا يضايقونهم كما كانوا يضايقونهم عندما كانوا
يحبسون بالماضي . كانوا يستعيدون خطاب صادق ، جملة جملة ، وكلمة
كلمة . ان ما قاله صادق ، فتح اعينهم ، عما كان مجهولاً لديهم .
كان بينهم من يشك بان شعباً ضعيفاً ، بمقدوره ان يتغلب على
مستعمريه ومستعبديه ، فاذا بهم بعد ان سمعوا ما قاله لهم صادق ،
يعرفون ان في العالم البعيد والقريب ، مساعدين كثيرين لهم ،
واذا بهم يشعرون بقوة لم يكونوا يشعرون بها من قبل . لقد ازداد
ايمانهم بقضيتهم وازداد وثوقهم بنجاحها ، واشتدت عزيمتهم في السير
بها ، والكفاح في سبيلها .

لم يكن بين الرفاق المساجين ، من يبدو عليه شيء من

الانكماش او الذهول ، غير محمود . إنه لم يتعود حياة السجن ، فهذه هي المرة الاولى التي يعرف فيها ما هو الحبس . وفضلاً عن ذلك ، فقد ترك في البيت زوجته المريضة ، ولما يمض على ولادتها بعد غير يومين ، وترك طفله المحبوب . كان الرفاق يهوتون عليه ، وكان هو يتصنع الابتسام ، لدن كلمات التشجيع التي كانوا يقولونها له . وكان عبيد يقول « رفيقنا محمود صار همه اكبر منه . طول بالك يا محمود . ما على قلب سهام شر . زوجته ليست مثل غيرها من الزوجات . ليت كل الزوجات مثلها . وابنك لا تحمل همه ما دام جده بو محمود فوق رأسه . والله بو محمود يحبه اكثر منك . ما احب من الولد الا ولد الولد . » كان الرفاق يمازحون محمود اكثر الوقت ، فلا يلبث هذا حتى يخرج من ذهوله ، ويشترك معهم في الاحاديث والضحك والعريضة .

وتجهتهم وجه حاشد ذات لحظة ، كأنه افاق من حلم مزعج وقال بصوت مرتجف :

— نحن نتكلم ونضحك ونمازح بهذه السهولة ، وليس منا من يفكر فيما قد يكون من امر الدكتور صادق الآن . اذا كانوا حبسوننا لانا ذهبنا الى الاجتماع وسمعنا خطاب صادق ، من يعلم ما اذا كانوا قد وصلوا اليه ايضاً ؟ انهم لا يخافون ربهم . اتظنون انهم يعتقلون صادق ايضاً ؟ والله وبالله وتالله ، اذا قربوا صوبه ، ساحرق دين الأخضرين . لا تقولوا عني اني مجنون . اذا كل الناس سكتوا عن اهانة صادق ، داعيكم حاشد وحده يعرف ماذا يعمل . مجنون ؟ مجنون . الجنون احسن من العقل بعض

الاحيان .

واطلق عبيد ضحكة ساخرة وقال :

— طوّل بالك يا حاشد . اهانة الدكتور صادق ما هي مسألة صغيرة . انا ادرى منك بهؤلاء « السباع » . سباع عليك وعلينا وعلى الفقراء الذين ليس لهم ظهر ، ولكن عندما يصلون الى امثال صادق ، يعدون العشرة ، قبل ان يرموه بزرّ ورد . مرجلتهم وقتها مالها قيمة . ماضي صادق وخدماته للبلاد ، ومركزه بين الناس ، ما هو سهل عليهم ان ينسوها . يمكن ان ينسوا حليب امهاتهم قبل ان ينسوا فضل صادق عليهم . هو سهم له حدّ ، ومرجلتهم لها حدّ ، وجنونهم له حدّ . كل الجنون له حدّ ، حتى جنون صاحبنا حاشد . لا بد ان يكون بقي بينهم كم عاقل . والله يا حاشد ، اني اعرف هؤلاء « السباع » اكثر منك ، واعرف الى اي حدّ تصل مرجلتهم على الناس . صادق بخير وسلامة . خذها مني على وجه التأكيد .

وقال حاشد :

— طيب . ان شاء الله يصدق ظنك . انا من جهتي ، لا أطمئن ، لا اليهم ولا الى عقّالهم .

كان اعتقال محمود شديد الاثر على بو محمود . انه لم يراى سبب لاعتقال وحيدده . هو يعلم ان السلطة تخشى عبيداً وتحتجّين كل فرصة لاعتقاله . ولكن هذا الشاب محمود ماذا فعل ، وما هو خطره على الأمن العام ، الذي يتبجحون به كلما دق الكوز

بالجرّة؟ بو محمود يخشى ان يُهان ابنه في السجن ، هذا الطفل (كان
بو محمود دائماً ينظر الى محمود كطفل) الذي دله ، ما هي جريمته
حتى يعتدّب على هذا الشكل ؟ هذا ما جعل بو محمود ينقم على
الحكومة وعلى كل رجالها . وعندما كان يأخذ حفيده بين ذراعيه ،
كان يناغيه ، كما كان يناغي محموداً لما كان هذا صغيراً . انه يرى
صورة محمود في وجه هذا الحفيد المحبوب . وفيما كان يطلق السباب
للأميرين ، كانت سهام تسرّي عنه لكي يهديء روعه ، وتزيل من
خاطره المخاوف على محمود .

كانت حنيفة تلازم سهام معظم ساعات النهار وبعض ساعات
الليل . كان عامر يشدّد عليها ان تذهب وتعتني بسهام والطفل ،
فتحمل معها بشير ويصرفان النهار في بيت بو محمود . انها اخبر من
سهام بمعاملة النفاسي والاعتناء بالمواليد . كانت حنيفة تطوف من
بيتها الى بيت سهام ، وتعدّ الطعام لزوجها ، ثم تتركه مع كتبه
واوراقه ، وتجيء لعند الوالدة الجديدة ، تقضي لها شؤونها
البيتيّة ، وتعطيها الدواء الذي يصفه لها الدكتور صادق ، وتحمم
الطفل ، وتغسل له امتعته ، وتمازح بو محمود كلما رآته مهموماً على
ابنه وتقول له « خفف عنك يا عمي بو محمود . محمود ما على قلبه
شر . اجلس للرجال ، ومحمود ما حبس الاّ لانه من الرجال .
ما دام محمود مع عبيد لا تخف عليه » . وكان بو محمود يطمئن
احياناً بعض الشيء ، ويعود الى مناغاة حفيده ، ومداعبة بشير .
ولم يكن شيء يفرح بشيراً ، اكثر من مجيئه مع امه الى بيت بو
محمود ، والشخوص الى هذا الطفل الجديد ، ومناغاته كما يفعل جدّ

الطفل وامه حنيفة . وكان بشير يأبى ان يجيد عنه لحظة واحدة .
وعندما اخذت سهام تتعافى ، عاد الى بيت بو محمود جو المرح
والاطمئنان ، وكان صحة سهام ، كانت الدواء الشافي لقلق بو
محمود على ابنه المحبوس ، وزالت من فكره هواجسه عليه . غير
ان بو محمود بقي يلعن السلطة ، على معاملتها لهؤلاء الشباب . ولم
يعد يقصر اهتمامه على ابنه فقط .

١٧

كان الدكتور صادق ، طوال الاسبوعين ، اللذين مضيا على
الاجتماع الكبير ، يوالي احتجاجاته على الاجراءات التعسفية التي
اتخذتها السلطات ، بحق الشباب المحبوسين . وكانت عزمته تشتد
اكثر واكثر ، كلما شعر بهذه الموجه التأييدية العارمة ، لحركة
السلم ، التي نذر نفسه ونشاطه في سبيلها ، وكانت الوفود تتورد
عليه ، من مختلف المناطق والاحياء ، ومن مختلف الهيئات الشعبية .
وكان بو محمود يزوره يوميا ، لسؤاله عما يعرفه من امر محمود
ورفاقه المحبوسين . وكان صادق لا يغمض عينه عن ايما مؤامرة ،
تدبر في الخفاء ، لتشتيت الحركة .

كان صادق يدرك اكثر من غيره ، ان هذه الحركة العنيفة
ضد انصار السلم ، تعود الى السياسة الاستعمارية ، التي تفرضها
الدول الاجنبية على الحكام واصحاب الرأي في البلاد ،
بحجة ان حركة السلم ، حركة شيوعية وهدامة . فهو اعرف
بحيل المستعمرين من سواه . لقد خبرها من يوم بدأ يعني بشؤون
بلاد العامة . خبرها عندما كان الفرنسيون يحكمون البلاد باسم

الانتداب . وخبرها بعد ان رحل الفرنسيون ، وجاءت الجيوش
البريطانية لتأخذ محلهم ، للدفاع عن البلاد وحمايتها من الالمان .
وعرفها بما كان يطالعه عما يجري في المؤتمرات ، الخاصة ببلاده
والبلدان المماثلة لها ، بين اقطاب الدول الاستعمارية . فقد كان
صادق يتتبع هذه الامور كلها ، ويفضحها بكتاباته في الصحف ،
وفي خطبه في جميع المناسبات .

عندما كان يناهض الانتداب الفرنسي ، كان الفرنسيون
يقولون عنه انه انكليزي . وعندما جاء الانكليز ، كان من جملة
من صفقوا لهم كمخلصين ، فقال عنه الانكليز انه وطني مخلص ،
حتى اذا انكشفت الامور والمقاصد ، وظهرت في الآتين الجدد
نيّات استعمارية ، جعل يناهضهم ، فبدّلوا رأيهم فيه ، وقالوا انه
اميركي النزعة ، اكتسبها من تلمذته في المدارس الاميركيّة .
وعندما بسطت اميركا نفوذها على البلاد ، باسم الحرية (كانت
اميركا استولت على زعامة « العالم الحر ») وبمساعدة الدولار ،
وميوعة الحكام ، جعل صادق همّه مناهضة السيطرة الاميركية ،
وفضح نيّاتها الاستعمارية في البلاد ، وكان لا يترك فرصة ، إلا
ويجاهر برأيه . فصبغته الدعاية الاميركية بالشيوعية . وكانت
شيوعيته هذه تزداد اكثر فأكثر ، كلما ذهب الى احد مؤتمرات
السلم . ان منطق الاستعمار ، لا يقرّ بوطنية الشعوب الصغيرة ،
اذالم تكن هذه مدموغة بدمغة اجنبية ، سواء كانت دمغة
اميركية ام انكليزية ، ام فرنسية ، ام روسية ، ام ايّ شيء
آخر . ان للاستعمار مفهومه الخاص للوطنية . وهذا المفهوم لا

يستطيع تحديد غير المستعمرين بالذات ، ودون سواهم .
كان لصادق علاقات مع اكثر رجال الحكم . ولطالما كان
هؤلاء الاصدقاء ، يلومونه على قساوته في النقد . كانوا يتهمونهم
بانه غير واقعي ، ويطالب بما هو فوق المعقول والممكن . وفي
ذات يوم ، بينما كان يتجادل مع احدهم وهو نائب ووزير ، عن
معاملة السلطة لجماعات الشباب وجماعات انصار السلم ، على
الشكل الذي تعاملهم به ، قال له صديقه الوزير :

— انك مثالي اكثر من اللزوم يا صادق . انك تطالب
بالمستحيل . يفوتك يا صاحبي اننا دولة صغيرة ، وشعبنا ضعيف
وفقر وجاهل . وليس من الواقعية ، ولا من الحكمة ، ان
نحمل السلم بالعرض ، ونقاوم الدول الكبيرة . ان الحكمة
تقضي علينا بمسايرة هذه الدول ، لنحصل منها على اكثر ما يكون
من المساعدات ، ولكي نحمينا عند اللزوم .

وابتسم عبيد ابتسامة فيها شيء من السخرية وقال له :
— انتم السياسيين تحتجون دائماً بالواقعية . ونحن الذين
تدعوننا مثاليين ، نرى في واقعيتكم ، خطراً ما بعده خطر .
واقعيتم تعني تكريس اوضاع فاسدة ، وديموقراطية زائفة ،
وانتخابات تسمونها دستورية ، وهي ابعد ما يكون عن
الدستورية ، ونفوذ استعماري من الدول الغربية ، حتى انتم
لا تنكرون وجوده ، ولكنكم تقبلون به وتخضعون له باسم
الواقعية . ان واقعيتم يا صاحبي ستجر البلاد الى ثورة ، وهذا
ما نريد نحن ان نتحاشاه . غير انك ستري انه من المستحيل

تحاشيه ، اذا بقيتم تصرون على تكريس واقعيتكم هذه .
كان الوزير الذي يحدث صادق ، ينقل الجدل أحياناً من صعيدة
الجدّي الى صعيد بين الجدّ والهزل ، لا سيما عندما يرى صادق
محتدّاً ، فقال لصادق :

— انك تعطي الامور اهمية اكثر مما تستحقه . بزمانك لن
تكون نائباً ولا وزيراً . الامور في هذه البلاد يجب ان تمشي
« هيك » . ان بلاداً مثل بلادنا ، كل عمرها كانت محكومة ، لا
تقدر ان تعمل اكثر مما تعمله الآن . هل تريد منا ان نقاوم
اميركا وانكلترا وفرنسا ؟ العين لا تقاوم الخرز يا صاحبي . ونحن
ليس لنا قدرة على معاندة الدول . اذا لم نقبل مشاريع الاميركان
والانكليز والفرنسيين ، من يضمن لنا انهم لا يفرضونها بالقوة ؟
الافضل ان نقبلها بارادتنا ، ونأخذ منهم كل ما يعطوننا إياه .
وسّعها يا صادق .

ولكن صادق لم يعنّ على باله الهذر في ذلك الوقت فقال :
— الاستقلال ، والسيادة ، وعضويتنا في جامعة الامم و ..
— حطّ بالخرج .

— ولكن الخرج ينفخت من كثرة ما تحطّ فيه .
— لوقتها فرج ورحمة .

— يعني ، لو طلبوا منكم ان تضعوا البلاد تحت رحمتهم ،
لا بأس من ذلك ، ولو مات الشعب كله . ها ؟
— نعم . نعم . والوزير الذي يقول غير ذلك لا تصدّقه .
ما في واحد منا يرضي بان يغامر بوزارته . لم ننس بعد قصة الوزير

- الذي مرّ على بودابست . طار هو ، وطير كل الوزارة معه .
- ما شاء الله على وزارات من هذا النوع .
- في بلادنا ، الشيوعية لا تمشي .
- وما دخل الشيوعية في الامر ؟ لماذا تخلط شعبان بـرمضان ؟
- حركات اصحابك الذين تدافع عنهم ، ماهي ؟ « فليستط الاستعمار » ما هو معناه ؟ « فليستط الاحلاف العسكرية » شو يعني ؟ « نطالب بتحريم القنبلة الذرية » ما هو تفسيره ؟ « السلم ! السلم ! السلم » من اين اتيم بهذه النعمة ، التي ترددها موسكو ، كل صبح وظهر ومساء ؟
- يعني كل من يقول بالسلم هو شيوعي ؟
- هكذا يقولون ؟
- من هم الذين هكذا يقولون ؟
- دول « العالم الحر » اميركا وانكلترا وفرنسا .
- وانتم هنا تردّدون اقوالهم كالبيغاء ، اليس كذلك ؟
- بيغاء او غير بيغاء . نحن لا يوافقنا ان نكون ضد الغرب ومع موسكو .
- حتى ولو « حرق دينكم » الغرب . ها ؟
- الغرب لا يحرق ديننا اذا مشينا معه . بالعكس يساعدنا بكل شيء .
- يعطونكم ابرة مثل مساعدات النقطة الرابعة مثلاً .
- وبماذا اضرتنا النقطة الرابعة ؟ هذه ما دخلها في السياسة ؟

— الم يخبرك احد عما قاله بالامس فقط سميع بك في خطاب
علنيّ على اكثر من الف شخص في مؤتمر الاحزاب والهيئات
والشخصيات؟ أحسب انك تعرف سميع بك. صديقك الذي كان
رئيس وزارة .

— لا ، ماذا قال ؟

قال : انا مجرم ايها القوم ، وهذه اليد المجرمة (ومدّ يده
اليمني) التي وقعت اتفاقية النقطة الرابعة ، عندما كنت رئيس
حكومة ، تستحق البتر ، لأن ما ظنناه ، عن حسن نية وبساطة
قلب ، مساعدة ، ظهر لنا جلياً انه شركٌ وفنخٌ ، للأطباق على
بلادنا ، وجعلنا مستعمرة لاصحاب هذه النقطة .

— عال . عال . اذاً طمّن صديقي سميع بك ، انه لن يرى
الوزارة بحياته .

— سأطمئنه على وجه التأكيد ، ولكني سأهنته ايضاً اذا كانت
الوزارة متوقفة على رضا النقطة الرابعة واصحابها .

وخشي الوزير صديق صادق ، ان يكون في اجتماعه الطويل
مع صادق ، خطر على كرسيه في الوزارة ، واعتذر لصديقه ،
لأنه على موعدٍ سابق . وعندما همّ بمغادرة مكان الاجتماع ، ربّت
على كتف صادق وقال له :

— وسّع طبعك يا صاحبي ، ولا تأخذ كل شيء بالجدّ والحدّة
هل تعرف اغنية الشاعر الشعبي الزعني ؟ ... « كنا هيك ، ونحن
هيك ، ومنزل هيك . وما بيصير غير هيك » لا تتعب قلبك
يا صادق . العمر قصير ولا يحرز كل التعب .

واجابه صادق ، بجفاف وتهكم :

— حبذا لو كنتم تدركون مغزى اغنية شاعر الشعب ، ولا تأخذونها على ظاهرها . ولكنكم كيف لكم ان تدرکوا ، وانتم بعيدون عن الشعب ، بعد الارض عن الشمس ؟ وخطف الوزير نفسه ، وهو يضحك من حماسة صديقه صادق ومثاليته وقلة فهمه بالشؤون السياسية الكبيرة .

عاد صادق الى بيته ، وهو ذاهل الفكر وكثير الحيرة بما سمعه من صديقه الوزير . وقال في ذات نفسه : « مسكين الشعب متى كانت مقدراته ومصائره بيد هكذا وزراء ، مهذارين واستسلاميين . »

كان صادق ، بحكم مهنته ، يختلط بجميع طبقات الشعب . وفضلاً عن ذلك ، كان في طبيعته ، ما يدفعه الى التقرب ، بما اتفق على تسميتها بالطبقة العامة ، التي كان يحبها ويحترمها . كان كلما سمع احداً من « الكبار » يتكلم عن هذه الطبقة بشيء من الاستخفاف والازدراء ، ينفجر بالغضب ، ويرشق الرجل الكبير بكل ما في قاموسه من قامي الكلام . وكان ذلك سبباً آخر ، من جملة الاسباب ، التي تتذرع بها الاوساط الاستعمارية والرجعية لصبغه باللون الاحمر ، بغية تخويله والتقليل من شأنه . وكان صادق يقابل هذه الحملات بالاحتقار والسخرية ، وكلما ازدادت الدعاية خبيثاً ، ازداد عنفاً وصلابة .

كان صادق يشعر بان السلطات الحاكمة ، تسير في طريق لا تتفق مع ما كان يلمسه من رغبات الشعب ، وهي تكاد تورط

البلاد في شتى المآزق والمخاطر ، مسيطرة للمطامع الاجنبية .
فرأى من واجبه الوطني والانساني ، ان يعمل شيئاً ما ، يكون
على شكل استفتاء شعبي ، تظهر فيه ارادة عامّة الشعب ، لا
ارادة خاصته فقط ، كما هو الشأن في ما يدعى بانتخابات نيابية .
كان يرغب في ان يدلّل ، بصورة عملية جليّة ، على ان الكثرة
الساحقة من الشعب ، غير راضية عن السياسة المماسية للدول
الاستعمارية ، وترفض الانصياع لخطط هذه الدول العسكرية
والحربية ، ولا تؤمن بمساعدتها الدولارية ، ولا هي مطمئنة
لهذه الاحلاف التي تعوضها ، من طريق الفرض على الحكومات .
كان يرغب في ان يدلّل ، بصورة عملية جليّة على ان الكثرة
الساحقة في الشعب تكره الحرب ، وتريد ان تعيش في جوّ
سلمي ، لكي لا يصيبها ما اصبّت به في الحربين الاستعماريّتين
الماضيّتين ، من مصائب وويلات وتشريد وجوع .

كان صادق يعلم كل العلم ، ان مشروعه هذا ، سيقاوم
بالضغط من السلطات وبال دعايات الحبيثة من الدول الاستعمارية ،
والاوساط المشايعة لها ، ومن الاوساط الاستثمارية ، الراضية
كل الرضى ، عن السياسة الراهنة ، مهما يكن المصير الذي ستؤول
اليه البلاد . ولكنه كان واثقاً من وجود عناصر وطنية مخلصّة ،
في جميع طبقات الشعب ، يتوجّب عليه ، وعلى من هم من رايه ،
ان يتّصلوا بها ، ويتدارسوا الامر معها ، ويجلّوا ما قد يكون
غائباً عن اذهانها . وفضلاً عن ذلك ، فهو واثق كل الثقة بان
العامّة الساحقة ، لا بدّ وان تقف بجانب ايّما عمل ، من شأنه أن

ينجّيها من الاخطار التي تنجم منها السياسة الراهنة ، اذا بقيت على استسلامها ولا مبالاة بها . هكذا قالت له نفسه ، وهكذا قرّر فيما بينه وبين نفسه .

كان صادق جالساً وراء مكتبه ، يدبّج نداءً عن حركة السلم العالميّة ، وخطر الاسلحة الذريّة ، وعمّا تعنيه هذه الحركة للشعوب ، ولشعبنا بالذات ، لكي يوقعه اكبر عدد من المواطنين ، اظهاراً لرغبتهم ، في عدم زجّ بلادهم في احلاف عسكرية ، مع الدول الناهجة سياسة عربيّة . كان صادق مغلقاً الباب ، وغارقاً في التفكير ، عندما سمع جلبة في الخارج ، ووطء اقدام مسرعة على الدرج . فقام على التوّ ، وفتح الباب ، ليرى من يكون القادمون بهذه الضجّة . وما ان فتح الباب ، حتى شاهد زمرة تهجم عليه ، يتقدمها عبيد ، عبيد بالذات .

كان القادمون ، معتقلو الاجتماع وذووهم واصدقاؤهم ، جاءوا ليسلموا عليه ، ويمجّدوا تأييدهم ، لما سمعوه منه في الاجتماع ، الذي عقده قبل اسبوعين .

كان صادق على اكثر ما يكون من الغبطة ، اذ رأى عبيداً بين القادمين . واخذه بين يديه ، وعانقه عناق الشوق والمحبة . وكانت تبدو على عبيد دلائل العزم والصلابة والقوة ، التي كانت تبدو عليه دائماً ، كأن اعتقاله لم يكن غير فترة راحة واستجمام . كانت حنيفة تجرّ معها ولدها بشير . وكانت سهام تحمل على صدرها مولودها سلام ، ملفوفاً بربطات الطفولة . وكان بو محمود ، يحوم حول كنيته وحفيده الجديد ، لكي يقيها خطر الازدحام .

وكان حاشد ، يزاحم الزمرة بجسمه العملاق ، لكي يصل الى
صادق ، ويهزّه بيديه المخشوشتين . وكان الرفاق الآخرون ،
يتسابقون الى داخل الغرفة ، ويحشرون انفسهم على مقاعدها
وفي زواياها . وكان صادق ، يبتسم ابتسامة الفرح ، لخروج عبيد
ورفاقه من السجن ، ويدعوهم الى الجلوس ، حتى اذا غصّت
الغرفة بالضيوف قال صادق :

— ها نحن نلتقي مرة ثانية . لقد خاب فال الذين ظنّوا ان
بمقدورهم ان يفرّقوا بيننا . ان الغاية التي تجمعنا ، لا يستطيع
أحد ان يقلبها . قل لي يا عبيد ، متى خرجتم من السجن ، وهل
كان خروجكم بمقتضى حكم تبرئة ، ام خروجاً موقتاً بانتظار
المحاكمة ؟

وقال عبيد :

— الحقيقة اني لا اعلم شيئاً من هذا . في صباح هذا النهار ،
قالوا لنا اخرجوا وخرجنا .

وضحك صادق وقال :

— يعني أخرجتم كما ادخاتم ، اعتباراً باعتبار .

وقال عبيد :

— هو كذلك بالضبط ، لا محاكمة ولا من يحزنون . لا اظن

انهم سيحاكموننا . على ماذا يحاكموننا ؟ الارجح عندي ، انهم
يخافون ، اذا قدمونا للمحاكمة ، ان لا يحكم علينا القضاء ، فننفضح
الحكاية . هذه ليست اول مرّة ندخل السجن ونخرج منه على
هذا الشكل ، ولا اظنها المرة الاخيرة .

وضحك الجميع وبقهقهة بشيرة ، فحمله صادق وشك على صدره

حماسة السلام ، وشبك بشير يديه على عنق صادق ، وهو يتطلع الى الحشد ، كأنه امتلك الدنيا .

وتابع عبيد القول باكثر ما يكون من العزم :
— اعتقلنا لن يفيدهم بشيء يا صديقنا العزيز ، ما دام عندنا شباب ، مثل الذين تراهم قدامك ، كلما انحبسوا مرة ، ازدادت عزيمتهم وحقدهم على من يريدون ان يجرموهم الحياة . بالحققة يجب ان نشكرهم على هذه المعاملة ، لانها اعظم مقوٍ لنا .
وقال صادق :

العصر عصر شباب يا ابني ، لولا الشباب ، ما كان عندنا امل .
فليحي الشباب !

وصرخ الجميع :
— فلتحي انت يا صديق الشباب ونصيرهم .
وصاحت سهام بحماسة :

— والله انهم مجانين ، هؤلاء الذين يظنون ان في استطاعتهم ان يقضوا علينا وعلى اولادنا ، بالجوع والتشريد والموت ، من اجل غاياتهم الشريرة . اقسم بهذا (وغمرت طفلها) اننا اقوى منهم .
وخشي بو محمود على حفيده من حماسة سهام ، وغمره هو ايضاً ، وهو يقول :

— والله والله انهم مجانين . لن ادعهم ينالون من ظفر رجله ، هذا الذي تراه على صدر كنتي سهام ، وأوماً لسهام ان لا تتحمس اكثر من الزوم .
وقالت حنيفة :

— زوجي الكسيع حملني لك قنطار سلام . بشير اتى معنا

محلّ أبيه .

وعاد بشير الى ذراعي صادق :

كان حاشد يعبس احياناً ، ويشارك رفاقه بالضحك والابتهاج
احياناً اخرى . كان يجول في خاطره سؤال يريد ان يسأله
لسادق فقال له :

— الم يزعجوك يا دكتور ؟

— من هم الذين تعنيهم ؟

— اعني هؤلاء الذين وجدوا لزعاج الناس .

— من هم ؟

وانبرى عبيد للافصاح مما يجول في خاطر حاشد وقال وهو
يضحك :

— عندما كنا في السجن ، لم يكن يشغل فكر حاشد شيء ، الا
ان تكون الجماعة ، يعني جماعة الامن ، ما شاء الله على هيك امن ،
قربت صوبك . كان شغله الشاغل ، ان يعرف ما اذا كان احد
سألك شيئاً ما ، او طلبوك للتحقيق او اخذ الافادة ، او ... »
وابتسم صادق وقال :

— او ماذا ؟ ...

وقال حاشد ، بنبرته المشهورة :

— او اعتقلوك يعني . لان هؤلاء ليس عندهم دين ولا ايمان .

واغرق صادق في الضحك وقال :

— لم يكن ايما شيء من هذا يا حاشد .

والتفت عبيد الى حاشد وقال له :

— اما كنت اقول لك ، انهم اعقل من يفعلوا ذلك ؟

واجاب حاشد :

— ليس لانهم عقل ، بل لانهم يحسبون حساب المستقبل ،
ويريدون ان يحفظوا خط الرجعة .

وقال عبيد :

— مهما يكن الامر . الذي يحسب حساب المستقبل ويحفظ
خط الرجعة ، لا يكون بدون عقل .

وهدر حاشد ، وارتفع صوت القهقهة على هذا النمر .

عندما هدأت ضجة المرحبين ، اخذ صادق الورقة ، التي كان
يكتب عليها النداء ، وقال للجماعة :

— هناك شيء جديد اريد ان اطلعكم عليه .

واشرأبت الانظار الى صادق والى الورقة في يده .

كنت افكر دائماً ، بأحسن وسيلة لاطهار ارادة الشعب ،
في الشؤون التي تشغل كل الناس ، هنا وفي الدنيا كلها . اننا نسمع
اصوات الحكومات وتهديدات بعض رجالها ، عن الحرب القادمة ،
ومقدار خطر القنبلة الذرية على البشر . وحكومتنا هنا لا يشغلها
شاغل ، اكثر من نقل هذه الاصوات اليها ، كأنها تريد ان يبقى
الناس في حالة الرعب والخوف . (اصوات : هذا صحيح . هذا
صحيح) وفي المدة الاخيرة ، كل يوم خبر عن احلاف عسكرية
تقرضها علينا الدول الاجنبية ، التي تزعم اننا قاصرون ، وهي
ترغب في حمايتنا والدفاع عنا . اما من هي الدول التي ستدافع
عنا ، فالحكومة تقول انها تلك نفسها التي كانت من مئات
السنين ، وما زالت الى الآن ، تتحكم بنا ، وتنهب مواردنا ،

وتفقر شعوبنا . بالطبع الحكومة تسير هذه الدول باسم الشعب ، لكونها ، حسب زعمها ، حكومة منتخبة من الشعب . وانتم تعلمون كيف ينتخب الشعب نوابه وحكوماته هنا . (اصوات : نعلم . نعلم . نعلم .) فالفكرة التي اتت الى خاطري ، ان اكتب هذا النداء ، ليوفعه من يرغب في توقيعه ، لكي يظهر للملأ ، اذا كان صحيحاً ان الحكومة ، تفعل ما تفعله ، في وقوفها موقف اللامبالاة من الدعاية للحرب ، ووقوفها موقف التحيز ، او المتزجر ، تجاه ما يعرض عليها من الاحلاف العسكرية . اننا نريد ان ننظم نوعاً من الاستفتاء (بالطبع ليس كالاستفتاء الذي تنظمه الحكومات وقت الانتخابات) ونريده استفتاءً شعبياً خالصاً ، لكي يبطل ادعاء الحكام ، انهم على حق ، في التكلم باسم الشعب ، عندما يتعاقدون مع الدول ، على « كيت وكيت » لنرى اذا كان حقيقة ان الشعب يريد هذا « الكيت وكيت » .

وما كاد صادق ينتهي من قراءة النداء ، حتى ارتجت الغرفة من التصفيق . وغلبت الروعة على بشير وجعل يصفق هو ايضاً بيديه الصغيرتين .

وانبرت سهام الى القول ، كأنها وكّلت من قبل الجماعة . وجعل بو محمود يخفّف من حدّتها ، لئلا يتعكّر الحليب في ثديها ، ويتضرّر الحفيد المحبوب :

— ومن لا يوقع على نداء كهذا ؟ الحرب ، من يريدّها ؟ والاحلاف العسكرية مع الدول التي تهيب للحرب ، من يقبل بها ؟ والاستعمار ، من لا يكرهه ؟ والاستقلال ، من يتجرأ على

التفريط به ؟

— هذا كله صحيح . ولكن ما يجب ان نبينه بوضوح ، ان الشعب كله ، يطالب بما في هذا النداء . وهذا لا يمكن تبيانہ بشكل ايجابي ، الا اذا وقعت اكثرية الشعب على النداء لكي نرسله الى المراجع العالية ، التي تدعي انها تتكلم باسم الشعب ، وتتعاقد مع الدول الاجنبية برضى الشعب ، وما اشبه ذلك . فضلاً عن كونه وثيقة نجابه بها الدول الاجنبية نفسها . وعاد حاشد الى نبرته وقال :

— اكتبه يادكتور ونحن نجول على كل الناس ونوقعه منهم ، ومن لا يوقعه نبصق في وجهه . وقال صادق :

عدنا الى المرحلة يا حاشد . اننا لانريد استفتاءً يجريه القضايات ، والاّ ماذا يكون الفرق بين استفتاءنا والانتخابات التي تعملها الحكومة ؟ يجب ان يكون هذا الاستفتاء استفتاءً حرّاً . نريد ان يوقع عليه الناس بكل طيبة خاطر . لا ازعاج ولا اكراه . ان الشرفاء في شعبنا هم الاكثرية الساحقة ، وسنبهرن على ذلك ، اذا جمعنا على هذا النداء اكثرية تواقع الشعب . عندئذ تقوى حجتنا ، عندما نقول ان الشعب يريد كذا ولا يريد كذا . ان حملتنا هذه ، ليست سهلة كما قد تظنون . ان كل القوى الاستعمارية والرجعية والانتهازية ، ستعرقل الطريق امامنا . ولكن الشعب متى اراد ، لا يقف بوجهه احد ، مهما كان كبيراً ، ولا يتراجع امام الصعوبات .

وانصت الجميع ، عندما وقف الجبّار عبّيد ليقول :
 — لن يكون اكثر مما كان . صار لنا خمس سنوات ، ونحن
 ندخل الى الحبس ، ونخرج منه . ما شنعونا ، ولن يشنعونا ،
 لانهم لا يجراؤن على شيء مثل هذا ، ما داموا يرون الشعب
 كـلـه معنا . ما هي قيمة من تخافون منهم ؟ (اصوات : لا نخاف .
 لا نخاف) . ان الشعب لا يريد ان يموت من اجل خاطر الاستعمار
 ودعائه وعملائه . اننا من صباح الغد يا صديقنا صادق ، سنجنّد
 انفسنا في هذه الحملة المباركة ، وانا على اكثر ما يكون من
 التأكيد ، اننا سنجد مناصرين عديدين يمشون معنا .
 وقال صادق :

— لو لم اكن واثقاً كل الثقة ، بان الطريق التي نمشيها هي
 طريق الحق ، وان الشعب باكثريته الساحقة لا تريد ان تمشي
 بغير طريق الحق ، لما خطر ببالي هذا الحاطر ، ولما كنت اعرض
 نفسي للخيبة ، واعرضكم للمتعاب والمشقّات . ان ثقتي بالشعب ،
 ولا سيما العامة منه ، لا يحدّها حدّ ، و « اذا الشعب يوماً اراد
 الحياة ، فلا بدّ ان يستجيب القدر » .
 وقال عبّيد :

— عفواً يا دكتور ، اسمح لي بان اقول « اذا الشعب يوماً
 اراد الحياة ، فليس فوق ارادته قدر » .

انتهت

Am a // He/a

Kees }

حنا، جورج

عبيد الجبار

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01037816

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



